جيمي كارتر
الرئيس الأمريكي السابق

فلسطين

السلام لا التمييز العنصري



نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

الطبعة
الشرعية
الأصلية

العبيكان
Obekan

الهيئة المصرية العامة للكتاب

Original Title:

THE HIGH PRIESTS OF WAR

By:

MICHAEL COLLINS PIPER

ISBN 0–9745484–1–3

المملكة العربية السعودية، طريق الملك مع تقاطع العروبة، ص. ب: 62807 الرياض 11595

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P. O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1427هـ . 2006م

ISBN 8-841-40-9960

ⓒ **مكتبة العبيكان، 1427هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كارتر، جيمي

فلسطين السلام لا التمييز العنصري. / جيمي كارتر؛ محمد التوبة. – الرياض، 1428هـ

216 ص؛ 16.5×24سم

1– الولايات المتحدة – الأحزاب السياسية　　2– الولايات المتحدة – نظام الحكم

أ. عبدالرحمن، عبداللطيف (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي 320.973　　1426/ 5500

رقم الإيداع: 5500 /1426

ردمك: 8 – 841 – 40 – 9960

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أول حفيد ابن لنا، هنري لويس كارتر

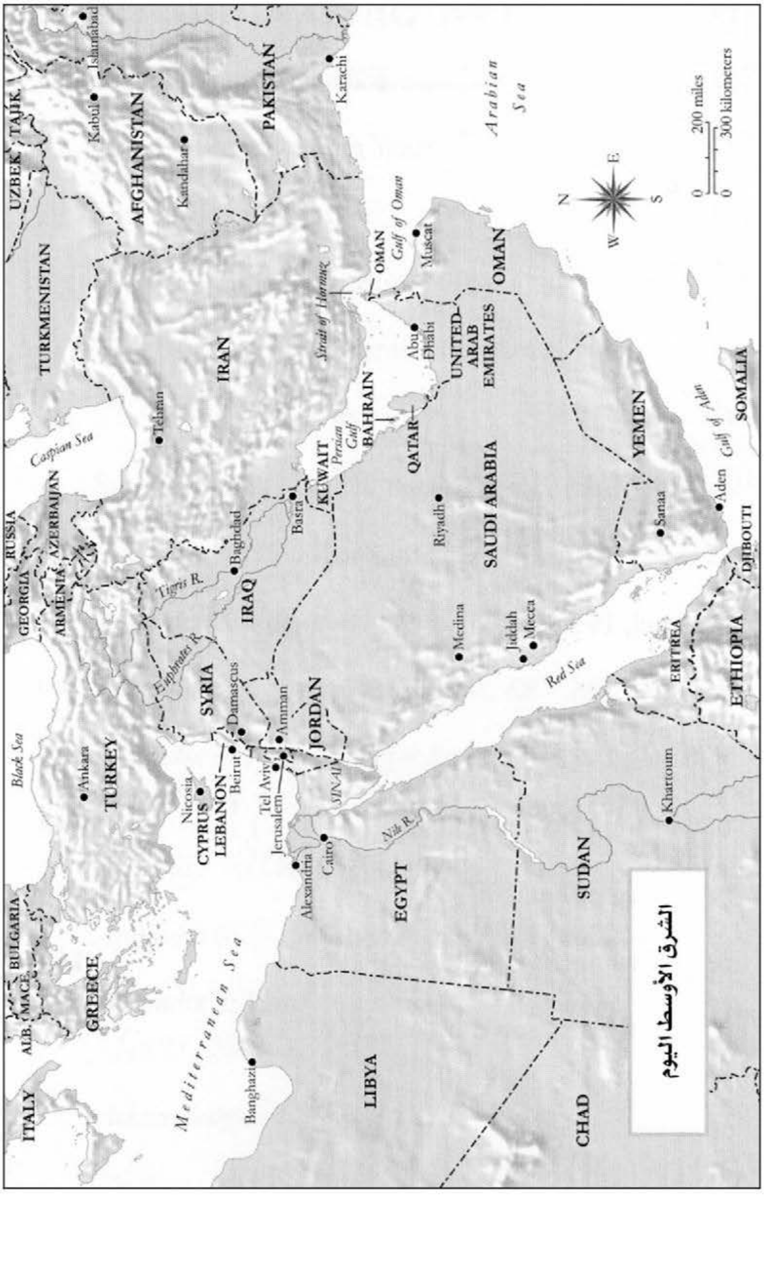
مع الآمال بأنه سيرى السلام

والعدالة في الأرض المقدسة

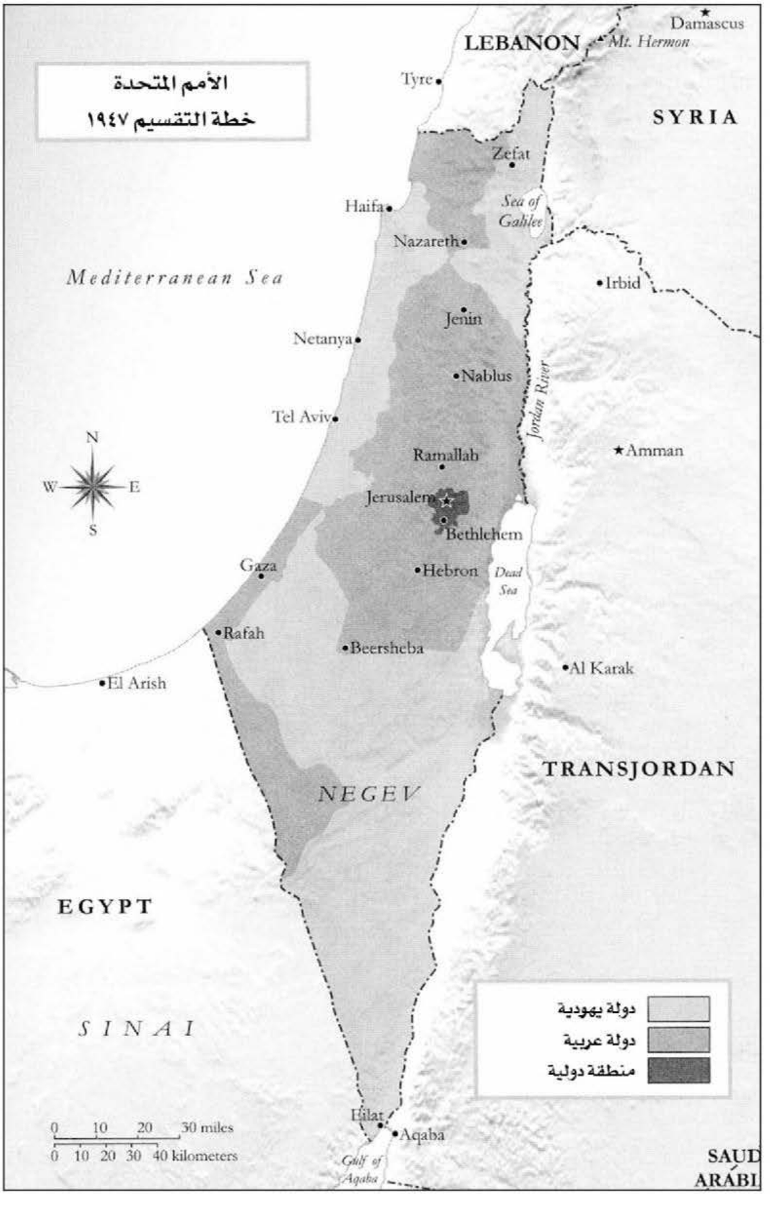
المحتويات

قائمة بالخرائط

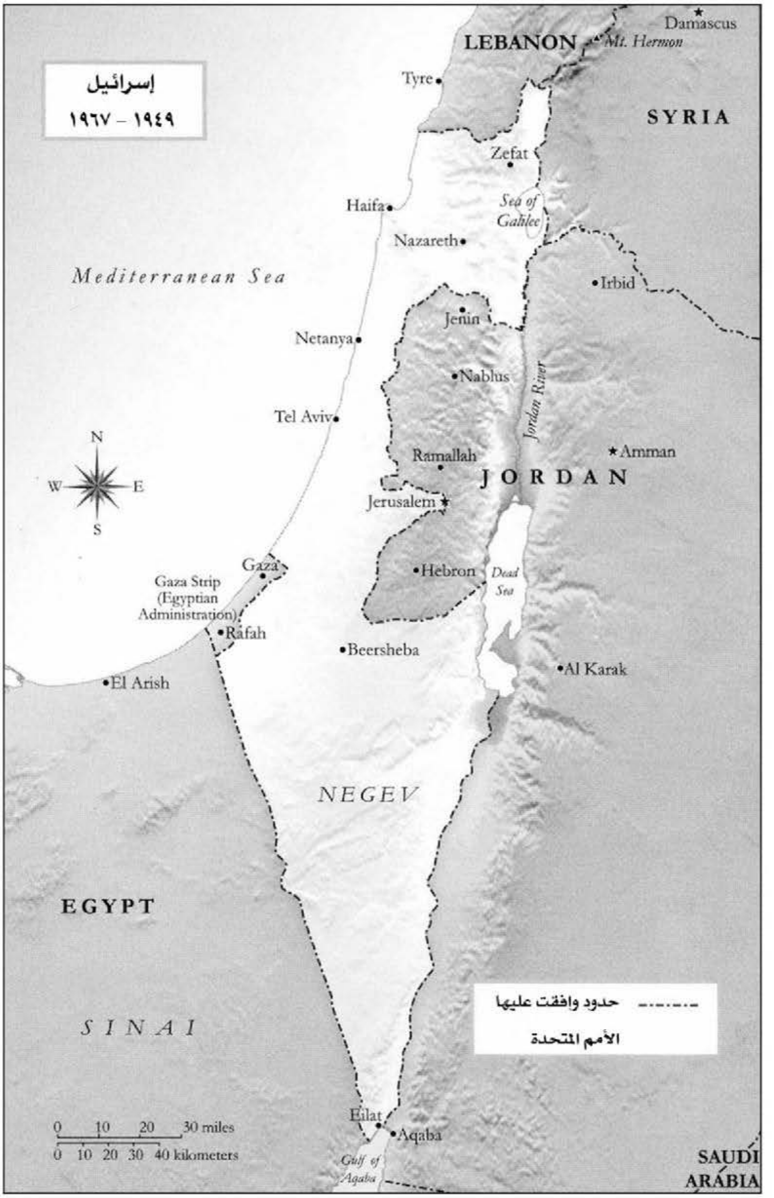
الخريطة 1


الشرق الأوسط اليوم
ITALY
ALB.
MACE.
BULGARIA
GREECE
TURKEY
Ankara
Black Sea
GEORGIA
RUSSIA
ARMENIA
AZERBAIJAN
Caspian Sea
TURKMENISTAN
UZBEK.
TAJIK.
AFGHANISTAN
Kabul
Islamabad
Kandahar
PAKISTAN
Karachi
IRAN
Tehran
Strait of Hormuz
OMAN
Gulf of Oman
Muscat
Arabian Sea
CYPRUS
Nicosia
LEBANON
Beirut
SYRIA
Damascus
Euphrates R.
Tigris R.
IRAQ
Baghdad
Basra
KUWAIT
Persian Gulf
BAHRAIN
QATAR
UNITED ARAB EMIRATES
Abu Dhabi
SAUDI ARABIA
Riyadh
Medina
Jiddah
Mecca
YEMEN
Sanaa
Aden
Gulf of Aden
SOMALIA
DJIBOUTI
ERITREA
ETHIOPIA
Red Sea
JORDAN
Amman
Tel Aviv
Jerusalem
SINAI
Cairo
Alexandria
Nile R.
EGYPT
SUDAN
Khartoum
LIBYA
Banghazi
CHAD
Mediterranean Sea
N
E
S
W
0 200 miles
0 300 kilometers

الخريطة 2


الأمم المتحدة
خطة التقسيم ١٩٤٧
Damascus
LEBANON
Mt. Hermon
Tyre
SYRIA
Zefat
Haifa
Sea of Galilee
Nazareth
Mediterranean Sea
Irbid
Jenin
Netanya
Nablus
Jordan River
Tel Aviv
N
W
E
S
Ramallah
Amman
Jerusalem
Bethlehem
Gaza
Hebron
Dead Sea
Rafah
Beersheba
Al Karak
El Arish
TRANSJORDAN
NEGEV
EGYPT
دولة يهودية
دولة عربية
منطقة دولية
SINAI
0 10 20 30 miles
0 10 20 30 40 kilometers
Eilat
Aqaba
Gulf of Aqaba
SAUD
ARABI

الخريطة 3


إسرائيل
١٩٤٩ - ١٩٦٧
Damascus
LEBANON
Mt. Hermon
Tyre
SYRIA
Zefat
Haifa
Sea of Galilee
Nazareth
Mediterranean Sea
Irbid
Jenin
Netanya
Nablus
Jordan River
Tel Aviv
Amman
Ramallah
JORDAN
N
W
E
S
Jerusalem
Gaza
Hebron
Dead Sea
Gaza Strip (Egyptian Administration)
Rafah
Beersheba
Al Karak
El Arish
NEGEV
EGYPT
حدود وافقت عليها الأمم المتحدة
SINAI
Eilat
Aqaba
0 10 20 30 miles
0 10 20 30 40 kilometers
Gulf of Aqaba
SAUDI ARABIA

يقول الكتاب المقدس:

«إنه حين سفك أول دم بين أبنائه، سأل الله قابيل، القاتل: أين أخوك هابيل؟ وقال قابيل: أنا لا أعرف. وهل أنا الحفيظ على أخي؟ وقال الله: ماذا فعلت؟ إن صوت دم أخيك يصرخ مستغيثاً بي من الأرض. والآن تكون أنت ملعوناً...».

(سفر التكوين 4: 9 11)

دم إبراهيم، والد الذين اختارهم الله، مازال يجري في عروق العرب، واليهود، والمسيحيين، وقد سفح الكثير جداً من هذا الدم في الحرص على وراثة الأب الشيخ الجليل في الشرق الأوسط. إن الدم المسفوح في الأرض المقدسة مازال يصرخ إلى الله مستغيثاً به صرخة محزونة من أجل السلام.

عن كتاب دم إبراهيم، بقلم جيمي كارتر

جدول تاريخي بترتيب الحوادث بحسب أزمانها

يمكن أن تفهم التطورات في الشرق الأوسط فهماً أفضل إذا استعرض تاريخ المنطقة. وندرج هنا قائمة بعدد قليل من الأحداث المهمة التي قادت إلى الحالة الموجودة من الأمور.

- **في 1900 ق.م. تقريباً**: رحلات إبراهيم (عليه السلام) من أور إلى كنعان.
- **في 1200 ق.م. تقريباً**: موسى (عليه السلام) يقود خروج الإسرائيليين من مصر.
- **في 1000 ق.م. تقريباً**: الملك داوود يوحد الاثنتي عشرة قبيلة من إسرائيل ثم يبني ابنه سليمان بعدئذ الهيكل في القدس.
- **في 930 ق.م. تقريباً**: تنقسم الأمة الإسرائيلية إلى مملكتين أضعف مما كانا ، إسرائيل واليهودية. أما إسرائيل فقد قهرها الآشوريون في حوالي 720 ق.م.، وأما اليهودية فقد دمرها البابليون في 586 ق.م.
- **في 538 ق.م. تقريباً**: فارس تقهر بابل وتسمح لليهود المنفيين بالعودة إلى القدس.
- **332 ق.م**. اليونان الإغريق يقهرون المنطقة.
- **167 ق.م**.اليهود يؤسسون اليهودية المستقلة.
- **63 ق.م**.الرومان يؤسسون السيطرة على اليهودية.
- **في 4 ق.م. تقريباً**: ولد المسيح (عليه السلام). وصلب بعد ثلاثة وثلاثين عاماً بعد بعثه بثلاثة أعوام. وتأسست الكنائس المسيحية في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية الشرقية.
- **70 م**: أخدمت ثورة يهودية قامت ضد روما ودمر الهيكل.

- **135**: قمع الرومان ثورة يهودية، وقتلوا أو أكرهوا جميع يهود اليهودية تقريباً على المنفى. ويسمي الرومان المنطقة باسم فلسطين سورية.
- **في 325 تقريباً**: يقوي الإمبراطور الروماني قسطنطين، وهو مسيحي، دينه الخاص به في كل أنحاء المنطقة.
- **في 570 تقريباً**: ولد النبي محمد (عليه السلام) في مكة، وأسس الدين الإسلامي، ووحد شبه جزيرة العرب، وتوفي في 632. وانتشر الحكم العربي والديني انتشاراً سريعاً في كل أنحاء سوريا، وفلسطين، وفارس، ومصر.
- **1099**: أول حملة صليبية تستولي على القدس وتؤسس الحكم المسيحي على فلسطين.
- **1187**: يفتح صلاح الدين، سلطان مصر، القدس ويستولي عليها، وباستثناء فاصل من خمسة عشر عاماً، يسيطر المسلمون على فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.
- **1516**: الأتراك العثمانيون يستولون على سورية، وفلسطين، ثم على مصر.
- **1861**: الفرنسيون يؤسسون لبنان بصفته منطقة ذات حكم ذاتي داخل سورية، تحت قيادة مسيحية.
- **1882**: القوات البريطانية تحتل مصر وتبقى هناك حتى عام 1955.
- **1917**: تصدر بريطانيا العظمى، في أثناء الحرب الأولى، وعد بلفور، وتعد بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، مع الاحترام لحقوق الفلسطينيين غير اليهود.
- **1922**: بعد أن هزمت الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، تؤكد عصبة الأمم الانتدابين البريطانيين على العراق وفلسطين، والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان. وتفصل شرق الأردن عن انتداب فلسطين ويصير مملكة ذات حكم ذاتي.

- **1936**: يطلب العرب الفلسطينيون وقف الهجرة اليهودية وحظر بيع الأراضي إلى اليهود. وتحاول القوات البريطانية أن تشدد السيطرة، ولكن العنف يستمر. وتوصي لجنة بيل بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود.
- **1939**: تعلن بريطانيا قيوداً شديدة على هجرة اليهود وشراء الأرض في فلسطين. وينفجر العنف من المقاتلين اليهود.
- **1947**: بريطانيا تترك للأمم المتحدة أن تقرر ما تفعله بشأن فلسطين، التي قسمت إلى منطقة يهودية، ومنطقة عربية، ومنطقة دولية (القدس وبيت لحم). وخصص خمسة وخمسون بالمائة من الأرض للدولة اليهودية. مصر، وسورية، ولبنان والأردن هي الآن دول مستقلة.
- **1948**: ينتهي الانتداب البريطاني على فلسطين. الإسرائيليون يعلنون استقلالهم بصفتهم أمة. والجيوش العربية تهاجم، وإسرائيل تسيطر. ينشئ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 194 لجنة مصالحة ويشدد على أن اللاجئين الراغبين في العودة إلى بيوتهم والعيش بسلام يجب أن يسمح لهم بذلك، وأن التعويض يجب أن يدفع إلى الآخرين، وأن الوصول الحر إلى الأماكن المقدسة يجب أن يكون مضموناً.
- **1949**: اتفاقات الهدنة مع العرب تسمح لإسرائيل أن تكسب المزيد من الأرض (77 بالمائة من فلسطين)، مصر تحتل قطاع غزة. وشرق الأردن أعيدت تسميته بالأردن، ويسيطر على ما ترك من الضفة الغربية من نهر الأردن، ومن جملتها القدس القديمة، وفي العام 1950 تلحق الأردن هذه الأرض بها.
- **1956**: مصر تؤمم قناة السويس، وإسرائيل تنضم إلى بريطانيا وفرنسا في احتلال منطقة القناة. وتحت الضغط الدولي تنسحب كل القوات الأجنبية من الأراضي المصرية مع حلول العام التالي. وكلفت قوات الأمم المتحدة بالقيام بدوريات في المناطق الإستراتيجية في سيناء.
- **1964**: تأسست منظمة التحرير الفلسطينية، وهي ملتزمة بشن معركة لتحرير وطن الشعب الفلسطيني.

- **1967**: مصر تغلق ممرات تيران، والقوات العربية تقوم بتحركات مهدِّدة. وإسرائيل تشن هجمات استباقية على مصر، وسورية، والعراق، وبعدئذ على الأردن، وفي غضون ستة أيام تحتل إسرائيل مرتفعات الجولان، وغزة، وسيناء، والضفة الغربية، ومن جملتها القدس.

بعد ستة شهور، يصدر القرار رقم 242 من مجلس الأمن في الأمم المتحدة، يؤكد عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة ويدعو إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، وإلى حق جميع الدول في المنطقة بالعيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها، وإلى حل عادل لمشكلة اللاجئين.

- **1973**: مصر وسورية تهاجمان القوات الإسرائيلية في سيناء ومرتفعات الجولان. وصار هذا النزاع يعرف باسم حرب يوم كيبور. بعد ستة عشر يوماً من الحرب، يصدر قرار الأمم المتحدة رقم 338، مؤكداً القرار رقم 242، وداعياً إلى محادثات سلام دولية. وتتبع عدة اتفاقات فك اشتباك.

- **1974**: تعلن القمة العربية في الرباط في المغرب بالإجماع منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني. وتوافق إسرائيل على الانسحاب من الأرض السورية ما عدا السيطرة على مرتفعات الجولان.

- **1975**: تنفجر الحرب الأهلية في لبنان. وبموافقة من المجتمع الدولي في العام التالي ترسل سورية قواتها لإقامة النظام.

- **1977**: الرئيس المصري أنور السادات يزور القدس ويلخص مطالب العرب أمام الكنيست الإسرائيلي. يقوم رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن برد الزيارة إلى الإسماعيلية مع عدم وجود تقدم نحو السلام.

- **1978**: وافقت إسرائيل ومصر على اتفاقات كامب ديفيد، مؤكدة التزام إسرائيل بقرار الأمم المتحدة رقم 242، وانسحاب القوات السياسية والعسكرية من الضفة الغربية وغزة، والحكم الذاتي الكامل للفلسطينيين. وتلخص الاتفاقات اتفاقية سلام بين إسرائيل ومصر والجيران العرب الآخرين. ترفض الاتفاقات من العرب في قمة بغداد، وتعزل مصر.

- **1979**: توقع اتفاقية سلام بين إسرائيل ومصر، تضمن انسحاب إسرائيل من سيناء، وعلاقات دبلوماسية عادية، ووصول إسرائيل إلى قناة السويس.
- **1981**: إسرائيل تُصعِّد إنشاء المستوطنات على الأراضي الفلسطينية. يغتال الرئيس المصري أنور السادات.
- **1982**: رداً على هجمات إرهابية عبر الحدود اللبنانية، تتحرك القوات الإسرائيلية إلى داخل لبنان، وتسعى إلى تدمير قوات منظمة التحرير الفلسطينية هناك. وتتأسس المنظمة اللبنانية المقاتلة المعروفة باسم حزب اللّه. والأعمال اللاحقة التي قام بها الإسرائيليون في لبنان تجر عليهم النقد الدولي.
- **1985**: إسرائيل تزيل قواتها جزئياً من لبنان.
- **1987**: تنفجر انتفاضة فلسطينية، وإسرائيل ترد على العنف بأعمال انتقامية قاسية. تتأسس المنظمة الفلسطينية المقاتلة المعروفة باسم حماس.
- **1988**: يتنازل الأردن عن حقوقه في الضفة الغربية والقدس الشرقية إلى منظمة التحرير الفلسطينية. ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية يعترف بحق إسرائيل بالوجود ويتخلى عن العنف، والولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية تبدأان الحوار.
- **1991**: حرب الخليج الفارسي تطرد القوات العراقية التي غزت الكويت. كثيرون من الفلسطينيين المنفيين ينتقلون إلى الأردن. يعقد في مدريد مؤتمر سلام الشرق الأوسط، ويركز على العلاقات العربية الإسرائيلية.
- **1993**: إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية تتوصلان إلى اتفاقية سلام في أوسلو بالاعتراف المتبادل وخطة لخمس سنوات لحل كل الخلافات المتبقية. ويبدأ المقاتلون الفلسطينيون والإسرائيليون من الجناح اليميني بمحاولات لتقويض الاتفاقية.
- **1994**: تتأسس السلطة الوطنية الفلسطينية. وتوقع إسرائيل والأردن اتفاقية سلام شاملة.

- **1995**: يُغتال رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين على يد متعصب ديني إسرائيلي من الجناح اليميني. وهذه النكسة لعملية السلام تفاقمت بهجمات العنف من جماعات فلسطينية عارضت اتفاقية أوسلو.
- **1996**: الفلسطينيون ينتخبون ياسر عرفات رئيساً وينتخبون أعضاء المجلس التشريعي. والإسرائيليون يعيدون حزب الليكود إلى السلطة، وهو يعطل عملية سلام أوسلو.
- **1998**: مذكرة واي ريفر تنشر بعد محادثات جرت بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تحت رعاية الولايات المتحدة. يفتح مطار في غزة، مع القيام برحلات طيران إلى الأمم العربية.
- **2000**: تسحب القوات الإسرائيلية من لبنان ما عدا منطقة متنازع عليها، هي مزارع شبعا. ومفاوضات السلام في كامب ديفيد تنهار. وآرييل شارون يزور جبل الهيكل وتنطلق انتفاضة ثانية، وهي أعنف من الأولى.
- **2001**: ينتخب آرييل شارون رئيساً لوزراء إسرائيل، وهو ملتزم برفض اتفاقية سلام أوسلو وبالتوكيد على الأمن الوطني. ويجرف مدرج مطار غزة بالجرافات.
- **2002**: يوافق اجتماع قمة لجامعة الدول العربية على خطة سلام سعودية مستندة إلى قراري الأمم المتحدة 242 و 338. والتفجيرات الانتحارية تثير رد فعل إسرائيلياً قوياً. شارون يلوم عرفات على العنف ويحدد إقامته في مكتبه في رام الله. وتبدأ إسرائيل ببناء جدار فصل داخل الضفة الغربية.
- **2003**: المجموعة الرباعية (الولايات المتحدة، والأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وروسيا) توافق على ''خريطة طريق من أجل السلام.'' والفلسطينيون يتعهدون بالدعم الكامل، ولكن إسرائيل ترفض نقاطاً رئيسية. ويستمر العنف، والحاجز الأمني في الضفة الغربية يجر النقد الدولي لتقويضه لعملية السلام. أعلن عن اتفاقية سلام غير رسمية فاوض عليها إسرائيليون وفلسطينيون مع دعم دولي كثيف باسم مبادرة جنيف.
- **2004**: ياسر عرفات يتوفى.

- **2005**: ينتخب محمود عباس (أبو مازن) رئيساً للسلطة الوطنية الفلسطينية. إسرائيل تخلي من جانب واحد مستوطناتها في قطاع غزة وتخلي أربع مستوطنات في الضفة الغربية.
- **2006**: كانون الثاني/يناير 2006: أرييل شارون يعاني من جلطة دماغية كبيرة. والفلسطينيون ينتخبون حكومة جديدة، وحماس تكسب أغلبية صغيرة من الأصوات ولكنها تكسب أغلبية مقاعد البرلمان. إسرائيل والولايات المتحدة تعزلان فلسطين وتقطعان التمويل.
- آذار/مارس آب/ أغسطس **2006**: ايهود أولمرت يصير رئيس وزراء إسرائيل، ويعد أن الجدار المقسم سيكون هو في الواقع الحدود الجديدة بين إسرائيل والضفة الغربية. مقاتلو حماس وحزب الله يأسرون جنوداً إسرائيليين، والقوات الإسرائيلية تهاجم غزة ولبنان. وصواريخ حزب الله تضرب شمال إسرائيل. والأمم المتحدة توافق على القرار 1701، مؤسسة بذلك وقفاً هشاً لوقف إطلاق النار.

الفصل الأول

فرص نجاح السلام

كانت إحدى الغايات الكبيرة لحياتي، حين كنت في منصب سياسي ومنذ أن تقاعدت من البيت الأبيض بحلول انتخابات 1980، هي أن أساعد على ضمان السلام الدائم للإسرائيليين وللآخرين في الشرق الأوسط. وكثيرون من الناس يشاركون في الحلم نفسه، وفي بعض الأوقات تضافرت جهودي الخاصة لتحقيق هذه الغاية مع بعض جهود الآخرين. وسيكون أمراً طيباً أن نمعن النظر في ما أوصلنا إلى الحالة الحاضرة، وفي العقبات التي تقف أمامنا، وفي بعض الأمور التي يمكن عملها ويجب عملها من أجل إحلال السلام والعدالة في المنطقة.

وما من تمثيلية خيالية يمكن أن تكون مليئة بالإثارة، أو بالأحداث غير المتوقعة، أو بالشخصيات المثيرة للاهتمام أكثر من هذا الجهد المبذول لوضع نهاية للنزاع المستمر، إنه بالتأكيد واحد من موضوعات الأزمنة الحديثة السياسية والعسكرية التي تعتبر أكثرها أسراً للاهتمام وأكثرها أهمية بحق. وربما يكون الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم تقلباً، والمنطقة التي يشكل عدم استقرارها تهديداً متواصلاً للسلام الكوني. وهي أيضاً المنطقة الحاضنة للكثير من الإرهاب الذي يعتبر ذا أهمية كبيرة جداً للأمريكيين وللمواطنين من الأمم الأخرى. وعلى الرغم من أنه ليس من الصعب أن نعبر عن التحديات بتعابير مبسطة نوعاً ما، فإن القضايا مع ذلك معقدة تعقيداً شديداً للغاية وهي مشتقة من كلا التاريخين السياسي والديني القديمين والمعاصرين اليوم معاً.

والأسئلة التي يجب أن نمعن النظر فيها أسئلة لا تنتهي تقريباً:

ما هي المستلزمات الضرورية الأولى للسلام؟ وما هي الإمكانات التي يخبئها المستقبل؟ وما هي الأرض المشتركة الموجودة من قبل وتستطع الأطراف المتنازعة أن تبني عليها مستقبلاً أكثر أمناً؟ وهل هناك فرص أفضل للنجاح من الجهود الدبلوماسية الهادئة أو من الضغط الجريء والعلني في سبيل إجراء المفاوضات؟ وهل

يمكن أن يكون هناك سلام مستقر يديم الظروف الحالية؟ وهل يجب أن تتدهور الحالة باضطراد إلى أن تسبب أزمة أخرى بدفع الأطراف المعنية إلى التصرف؟ وهل تستطيع قوة إسرائيل العسكرية الضخمة مع الدعم الأمريكي الكامل أن تسيطر على العرب المقاتلين؟

وأشد هذه الأسئلة كلها بعثاً للقُشَعْريرة هو: هل يمكن للخلافات المتقرحة أن تعجل من مواجهة عسكرية تتضمن استخدام الأسلحة النووية؟ فالمعروف أن إسرائيل تمتلك ترسانة نووية كبيرة وتمتلك القدرة على إطلاق الأسلحة إطلاقا سريعاً، ويعتقد كذلك، أن بعض الدول المجاورة تحاول أن تحصل على قنابلها الذرية الخاصة. ومن دون التقدم نحو السلام، يمكن لليأس وللمغامرة في كلا الطرفين أن يعجل في وقوع مثل هذه المواجهة.

هناك انشقاقات متنامية في منطقة الشرق الأوسط، مع تزايد في تصلب العداوة العربية نحو التحالف الإسرائيلي الأمريكي. وقد أدت حرب العراق إلى المبالغة في النزاع بين المسلمين السنة والمسلمين الشيعة، وزادت قوة تأثير إيران. ومُنح العرب المقاتلون، ومن جملتهم حماس وحزب الله، حياة وتأثيراً جديدين حين صار ينظر إليهما بأنهما يكافحان ضد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وإن غياب أي مبادرة سلام قابلة للحياة يؤدي إلى تفاقم كل خلاف من هذه الخلافات بمفرده.

في الأحوال التي يسودها أكبر التثبيط، يستقر الأمل النهائي على حقيقة هي أن الناس في المنطقة يريدون، وعلى نحو كاسح، لجهود السلام أن تنجح ومن جملتهم أولئك السوريون، والإسرائيليون، واللبنانيون، والفلسطينيون الذين هم أكثر الناس موضعاً لعدم الثقة من خصومهم. إن الخطابة والطلبات من كل الأطراف قد تكون خشنة، ولكن هناك مجالات اتفاق واضحة تستطيع أن توفر الأساس للتقدم. إن المناقشات الخاصة مع القادة العرب مناقشات واعدة أكثر مما قد تقود بياناتُهم العلنية المرء إلى الاعتقاد، وهناك في إسرائيل مجموعة قوية وثابتة تقف مع الاعتدال وهي لا تسمع أو تقدر إلا قليلاً في الدول المجاورة أو في أمريكا.

لقد كانت العوائق المستمرة حتى الآن هي رغبة بعض الإسرائيليين في الأرض الفلسطينية، ورفض بعض العرب أن يقبلوا إسرائيل جارة لهم، وغياب الصوت الفلسطيني الواضح وصاحب السلطة المقبول لدى إسرائيل، ورفض كلا الجانبين

أن يلتحق بمحادثات السلام من دون شروط مسبقة شاقّة، وظهور الأصولية الإسلامية، والغياب الحديث لأي جهد متواصل من الولايات المتحدة لمتابعة السلام المستند إلى القانون الدولي وإلى الاتفاقات السابقة التي صادقت عليها إسرائيل.

وعلى الرغم من الحاجة الظاهرة إلى حل الخلافات، فإن الجهد المبذول للسلام لا يمتلك حياة خاصة به، إنه ليس جهداً قائماً بنفسه. وستكون الولايات المتحدة دائماً مستغرقة في انشغالها في العراق، أو إيران، أو كوريا الشمالية، أو في المسؤوليات الإستراتيجية الأخرى، وهناك عوامل منافسة تشغل أذهان القادة العرب الذين كانوا حتى الآن أكثر ميلاً إلى التركيز على السلام مع إسرائيل وعلى حل عادل للمسألة الفلسطينية. والعديد من أنظمة الحكم العربية صارت مستغرقة، على نحو متزايد، في المشكلات المحلية، وهي مشكلات تضم في جملتها معاودة ظهور الهوية الدينية، والتوقعات المتصاعدة بين مجموعات السكان التي صارت أكثر تعليماً، وظهور الطبقات الوسطى، والخوف من مزيد من التدخل من القوى الخارجية، ومن مثيرات الديمقراطية. هناك اتجاه لدى أنظمة الحكم هذه إلى تحرير نفسها من عبئها الفلسطيني.

الحالة بوضوح ليست مشجعة، ولكنها ليست يائسة كذلك إذا كان الزعماء يستطيعون أن يتذكروا التقدم الذي سبق أن تمّ وأن يبنوا على الاتفاقات السابقة التي تمّ التفاوض عليها. إن معظم أنظمة الحكم العربية قد قبلت الوجود الدائم لإسرائيل بصفتها حقيقة لا نزاع فيها ولم تبق هذه الأنظمة تدعو الآن إلى إنهاء دولة إسرائيل بعد أن صاغت بياناً مشتركاً في القمة العربية في العام 2002 يعرض السلام والعلاقات العادية مع إسرائيل ضمن حدودها المعترف بها دولياً والعمل بموجب القرارات الأخرى لمجلس الأمن في الأمم المتحدة. وقد قبل كل واحد تقريباً الحق النهائي للشعب الفلسطيني ليقرر مصير سيادته الخاصة في مناخ من السلام.

ليس هناك مكان للعنف المداوم، الذي يميل إلى تخريب مبادرات السلام ويديم البغضاء والقتال إن بعض الفلسطينيين ردوا على الاحتلال السياسي والعسكري بشن هجمات إرهابية ضد المدنيين الإسرائيليين، وهو مسار للعمل يستحق اللوم أخلاقياً ويؤدي إلى إعاقة تحقيق غاية فاعله سياسياً في وقت معاً. وهذه الأعمال الخسيسة قد جلبت على المجتمع الفلسطيني بكامله الاستنكار الواسع

الانتشار وعدم الثقة وهي أعمال انتحارية قاتلة تقريباً للقضية الفلسطينية. وقد كان مشجعاً أن نلحظ غياباً كاملاً تقريباً للعنف في أثناء تلك الفواصل القصيرة جداً كلها حين أعطت فرص نجاح السلام والعدالة أملاً للناس. كان هذا واضحاً، على سبيل المثال، في أثناء وقت اتفاقات كامب ديفيد في العام 1978، وحين كان الفلسطينيون موضع ترحيب في مؤتمر مدريد في العام 1991، وفي أثناء الانتخابات الفلسطينية العديدة كذلك.

لقد كان واضحاً دائماً أننا لا نستطيع أن نتوقع من الخصوم أن يتخذوا المبادرات لحل خلافاتهم الخاصة. فالبغضاء وعدم الثقة في الشرق الأوسط متأصلة جداً والكبرياء في أي من الأطراف المتنازعة أكبر من أن تسمح له أن يقدم دعوات أو تنازلات وهم يعرفون أنها لا محالة تقريباً سوف ترفض. يجب أن ينشد الصلح من خلال المفاوضات مع كل أطراف النزاع، وكل طرف يمتلك التمثيل المنصف والحق في المشاركة في مناقشات حرة. الحل الوسط المهاود ضروري من كلا الطرفين، مع تمييزات واضحة توضع بين ما تمليه عليهم أحلامهم وأيديولوجيتهم وبين ما هو ممكن عملياً. وعلى الرغم من أن بعض المتطرفين لا يوافقون، فإن معظم الإسرائيليين قد تعلموا أنهم لا يستطيعون إعادة بناء مملكة داوود التي تشمل كل الضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، وأجزاء من لبنان والأردن. وفي الوقت نفسه، فقد أرغم الفلسطينيون على أن يقبلوا الحقيقة التي تبين أن أمة إسرائيل لن تمحى أبداً من الخريطة. ولا يستطيع أحد من الطرفين أن يتنبأ بالنتيجة النهائية للمفاوضات أو أن يفرضها على الآخرين، وإن أي اتفاقية نهائية يجب أن تكون في الوقت نفسه طوعية ومقبولة من كلا الطرفين.

ويجب أن يأتي الدعم القوي لمحادثات السلام من الولايات المتحدة، ويفضل أن تضم المحادثات ممثلين عن الأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وروسيا. وحتى وقت قريب، كان معروفاً عن زعماء أمريكا ومتوقعاً منهم أن يمارسوا أقصى التأثير في طريقة موضوعية، غير منحازة لتحقيق السلام في الشرق الأوسط. وكي تستأنف الولايات المتحدة هذا الدور الحيوي، يجب أن تكون مشاركاً موثوقاً، وعادلاً وثابتاً، ولا يتزعزع، ومتحمساً شريكاً مع كلا الجانبين لا قاضياً لأي منهما. وعلى الرغم من

أنه لابد في بعض الأحيان من أنه سيكون هناك ميل إلى جانب أو إلى آخر، ففي المدى الطويل يجب أن تلعب واشنطون دور الوسيط الأمين مرة أخرى.

حين تدور مفاوضات واعدة، فسيكون على الولايات المتحدة أن تنضم إلى الأمم الغنية الأخرى في تقديم الحوافز السياسية والاقتصادية الضرورية لمساندة ما سيكون في البداية تفاهماً هشاً ثم أن تكون بعدئذ مستعدة لمساعدة صناع السلام على منع أذى الراديكاليين (الجذريين) والمتطرفين الذين سيسعون إلى هدم ما يجري إنشاؤه وتغذيته بعناية.

والافتراضات الثلاثة الأساسية واضحة تماماً:

1. حق إسرائيل في الوجود داخل حدود معترف بها وحقها في أن تعيش في سلام يجب أن يكون مقبولاً من الفلسطينيين ومن جميع الجيران الآخرين.

2. قتل غير المحاربين في إسرائيل، وفي فلسطين، وفي لبنان، بالقنابل، أو بهجمات الصواريخ، أو بالاغتيالات أو بالأعمال الأخرى من أعمال العنف لا يمكن السماح بها.

3. ويجب أن يعيش الفلسطينيون في سلام وكرامة في أرضهم الخاصة كما هي محددة بالقانون الدولي ما لم تعدل بمفاوضات حسن نية مع إسرائيل.

إن الاندلاع الحديث للعنف في غزة وبين إسرائيل ولبنان برهان حي على الحاجة إلى اتفاقية سلام شامل. إن الولايات المتحدة تقف وحيدة تقريباً في دعمها لإسرائيل دعماً لا يحيد، في حين يقترب دعم العرب للجماعات المقاتلة من الإجماع حين يستمر العنف. والناس في معظم الأمم الأخرى يدينون التدمير المفرط والإصابات المدنية التي توقعها إسرائيل مثلما يستنكرون الاستفزاز العمد لإسرائيل من حماس وحزب الله.

وفي التحليل الأخير، فإن الشعوب المختلفة في الشرق الأوسط لها وجهات نظرها الخاصة، ولها ظلاماتها، وغاياتها وطموحاتها الخاصة. ولكن إسرائيل هي التي تبقى المفتاح، هي الدوامة الصغيرة التي تدور حولها رياح البغضاء وعدم التسامح، وسفك الدماء. وشعب إسرائيل الذي لا يقهر ما زال يحاول أن يحدد مستقبله، والشخصية الأساسية لأمته، وحدوده الجغرافية، والشروط التي يمكن

بموجبها احترام الحقوق المشروعة للفلسطينيين وتشكيل صلح مع جيرانها. وهذه القرارات الداخلية سيتعين أن تتخذ بالتشاور مع العرب الذين هم في الأساس في موقف الخصوم وهي قرارات قد تكون احتمالاً سياسياً صعباً بقدر صعوبة ما سبق أن رآه التاريخ. وإسرائيليون كثيرون، مثل جيرانهم، ينشدون برغبة شديدة درجة من الوجود المعتاد، ولكن التهديدات اللفظية من إيران ومن بعض الراديكاليين العرب وهجمات الإرهابيين في الأراضي المحتلة وداخل إسرائيل كذلك قد أبقت مشاعر عدم الثقة والاغتراب حية بين الإسرائيليين نحو جيرانهم. وأكثر البيانات تطرفاً وبغضاً جاءت من الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، الذي وصف المحرقة بأنها "أسطورة" ودعا إلى إفناء إسرائيل أو نقلها من الشرق الأوسط إلى أوروبة.

يجب على العرب أن يعترفوا بالحقيقة الواقعة أي بإسرائيل، تماماً مثلما يجب على الإسرائيليين أن يقبلوا دولة فلسطينية في القسم الصغير المتبقي من أراضي الوطن المخصصة للفلسطينيين من الأمم المتحدة واتفاقات السلام السابقة. ويجب أن تحمى حقوق الإنسان الفلسطيني مثلما هو معترف به عموماً بموجب القانون الدولي، ومن جملة ذلك حق تقرير المصير، وحرية التعبير، والمعاملة المتساوية لجميع الأشخاص، والحرية من الهيمنة العسكرية الطويلة والسجن من دون محاكمة، وحق العائلات بالتوحد ثانية، وقداسة ملكية الممتلكات، وحق الناس غير المحاربين أن يعيشوا في سلام.

يقول الكتاب المقدس إنه حين سفك أول دم بين أبنائه سأل الله قابيل، القاتل، "أين هابيل أخوك؟" وقال قابيل: "أنا لا أعرف. وهل أنا الحفيظ على أخي؟" وقال الله: "ماذا فعلت أنت؟إن صوت دم أخيك يصرخ مستغيثاً بي من الأرض. وأنت الآن ملعون..." (سفر التكوين 9: 411). ودم إبراهيم؟، والد الذين اختارهم الله، مازال يجري في عروق العرب، واليهود، والمسيحيين، وقد سفح الكثير جداً من هذا الدم في الحرص على وراثة الأب الجليل في الشرق الأوسط. والدم المسفوح في الأرض المقدسة مازال يصرخ مستغيثاً بالله صرخة محزونة من أجل السلام.

سوف نرى أن هناك معادلة من أجل السلام مع العدالة في هذا القسم الصغير والفريد من العالم. إنها معادلة متلائمة مع القانون الدولي ومع سياسة الحكومة الأمريكية الثابتة، وتملك موافقة معظم الإسرائيليين والفلسطينيين، وتنسجم مع

الاتفاقات التي أنجزت سابقاً - ولكنها نبذت لاحقاً. إن هذا المخطط التفصيلي هو الذي سوف نستكشفه الآن.

الفصل الثاني

زيارتي الأولى إلى إسرائيل

1973

لقد زرت إسرائيل مرات عديدة وناقشت الظروف الموجودة وفرص النجاح المستقبلية مع أشخاص من أصحاب الإرادة القوية الذين يمثلون وجهات نظر عديدة مختلفة، من كل من الإسرائيليين في الوطن واليهود في بلدان أخرى، ممن يحملون اهتماماً شديداً في الأمة وسياساتها. وتابعت باستمرار التعلم في أثناء سنواتي في البيت الأبيض وبعدها على حد سواء، ولكنني وقبل أن صرت رئيساً، كنت قد أقمت علاقات شخصية، مع اسحق رابين، وموشيه دايان، وغولدا مائير، وأبا إيبان، ومع زعماء إسرائيليين آخرين، وتعلمت كل ما كنت أستطيع عن إسرائيل وعن تحدياتها السياسية والعسكرية. ونظراً إلى أن هذا الوقت هو الذي شكلت فيه معظم انطباعاتي الدائمة عن إسرائيل، فسوف أستعرض هذه الخبرات الأولى ببعض التفصيل.

لقد جاء تقديمي إلى إسرائيل في وقت كان فيه مواطنوها يمتلئون بالثقة والتفاؤل حول مستقبلهم. فإسرائيل، في أثناء السنوات الأولى، ظهرت عرضة لخطر الهجمات العربية العقابية، ولكن حرب العام 1967 بينت عملياً أن قواتها كانت أفعل من قوات جيرانها إلى حد بعيد. فقوات الطيران الإسرائيلي دمرت معظم المعارضة، وتحركت القوات الأرضية إلى الجنوب والغرب عبر قطاع غزة وصحراء سيناء الجافة إلى قناة السويس، وإلى الشرق إلى نهر الأردن لتحتل الضفة الغربية، وإلى الشمال الشرقي لتأخذ مرتفعات الجولان. وكان أحد أبطال الحرب هو الجنرال إسحق رابين. وقد جاء رابين إلى جورجيا حين كنت حاكماً لها، وكان ذلك جزءاً من جهد تقوم به إسرائيل لتقوي علاقاتها مع الزعماء الأمريكيين زيادة عما هي عليه. وبدا مسروراً في أن يجيب عن أسئلتي المتشوقة حول العلاقات العسكرية والسياسية في الشرق الأوسط ودعاني إلى زيارة إسرائيل في تاريخ مبكر لأكون ضيفاً عليه.

وبما أنني كنت قد تعلمت دروس الكتاب المقدس منذ مطلع الطفولة، وعلّمت هذه الدروس طوال عشرين عاماً، فقد كنت بسبب هذا مفتوناً بالأرض المقدسة، ولذلك رتبنا، زوجتي روزالين وأنا، أن نقبل دعوته في العام 1973. وفي الإعداد من أجل هذه الرحلة عكفنا على الخرائط وراجعنا التاريخ القديم والحديث لإسرائيل على السواء. وكان اختيارنا للكيفية التي نقضي فيها الأيام العشرة للزيارة سلسلة من الحلول الوسط لأنني كنت ممزقاً بين سعادة زيارة الأماكن المسيحية المقدسة التي كنت دائماً أحن لأراها وبين المعرفة التي يجب أن أركز عليها في الإعداد لمسار سياسي آخر. فقد كنت أخطط بجدية لدور مستقبلي لمنصب الرئيس، ولم يكن يعلم بأحلامي إلا حفنة فقط من أقرب أصدقائي المقربين.

قابلنا أولاً ولمدة وجيزة رئيسة الوزراء غولدا مائير، التي خصصت لنا سيارة مرسيدس ستيشن واغون مستخدمة وطالباً شاباً سائقاً لها، وكانت تعليماتها هي أننا سنأخذ سبعة أيام للسفر إلى أي أماكن من اختيارنا، وفي أثناء الأيام الثلاثة الأخيرة سوف نتلقى ما وصفته هي باسم إيجازات سرية عن اهتمامات إسرائيل الأمنية وعلاقاتها مع الأمم الأخرى في المنطقة. وأرادت أن تكون زيارتنا الأخيرة معها، كي تستطيع أن تجيب عن أي أسئلة وأن تلخص رسالة حكومتها.

كان اسم سائقنا جيورا أفيدار، وكان شاباً مطلعاً جداً وابن أحد الدبلوماسيين. وأعطاني كتاباً دليلاً أولياً للغة العبرية، ومارست قراءة إشارات الطرق ونحن نسافر من مكان إلى آخر. ومازلت أحتفظ بالكتيب، وكنت قد كتبت فيه ملاحظات في أثناء زيارتنا. وكذلك فقد احتفظت معي بخريطة إسرائيل التي كان قد زودني بها. وليس هناك إشارة إلى "خط أخضر" بين إسرائيل وبين الضفة الغربية أو غزة. وتشمل الخريطة أيضاً جزءاً أساسياً من مرتفعات الجولان وكل سيناء. كانت هناك رغبة واضحة عند بعض الإسرائيليين الراديكاليين في الاحتفاظ بالأراضي المستولى عليها، ولكن الموقف السائد بين زعماء الأمة كان يرى أن الأراضي المحتلة يجب أن يحتفظ بها فقط إلى أن يكون ممكناً مبادلتها في مقابل سلام آمن مع العرب. ولم يتضمن أي واحد من إيجازاتي الرسمية خططاً من أجل الاحتفاظ الدائم أو الانسحاب المبكر.

قضينا أيامنا الثلاثة الأولى في القدس وحولها، وكنا نبدأ كل صباح قبل شروق الشمس، لأنني أردت أن أرى المدينة وهي تعود إلى الحياة حين لا يكون فيها

إلا قلة من السياح يتجولون ولأمسك بالنكهة التي تبين كيف كان يمكن أن تكون المدينة قبل ألفي عام، حين طاف المسيح في الشوارع نفسها. زرنا المخابز التي كان الخبز يعد فيها للأسواق في أفران مفتوحة واسعة، وارتشفنا القهوة أو الشاي في المحلات الصغيرة، وراقبنا الباعة وهم يرتبون سلعهم للنهار المشرق. وكان لي محادثات طويلة مع علماء الآثار الذين كانوا ينقبون في مدينة داوود الإنجيلية، ووصفوا كيف أن حطام مواد الحضارة القديمة قد رفع باستمرار مستوى الشوارع في متوسط يساوي حوالي قدم واحد في القرن. وهذا ما جعل من الأسهل علينا أن نفهم لماذا كانت الأماكن التي زرناها في القدس، وبيت لحم، والخليل، وأريحا، والناصرة أماكن مختلفة جداً عما كنا نتوقع. بدت كأنها مدفونة تحت الأرض، ومغلق عليها، ومبهرجة، وتجارية إلى حد كبير، وليست بسيطة وبدائية، مثلما كنا قد تخيلناها دائماً. وحين سافرنا في الأماكن المفتوحة ورأينا جبل الزيتون، وحديقة القبر، وقانا، وجبل الكرمل، وبحر الجليل (بحيرة طبرية) وجبل الطوبيات؟، وكبرنيوم (كفر نحوم)؟، وبيت سيدا (بيت الصياد)، ونهر الأردن، حينها فقط شعرنا أننا كنا ننظر إلى البلاد مثلما قد تكون بدت في الأزمنة الإنجيلية.

وحين كنا نصل إلى كل محطة مقصودة، كان جيورا يقدمنا بوصفنا ضيوفاً خاصين لرئيسة الوزراء غولدا مائير والجنرال رابين، وبدا مضيفونا متشوقين إلى الإجابة عن أسئلتنا وإلى أن يجعلونا نشعر بالترحيب وفي البيت. وكانت أمتع نزهة لنا وأكثرها إعلاماً في الناصرة. فبعد زيارة كنيسة البشارة ومساكن تحت الأرض يقال إنها تمثل المساكن التي عاش فيها المسيح، كنا ضيوفاً في غداء مثير وصاخب نوعاً ما مع رئيس البلدية المسلم، ونائبه المسيحي، ورئيس البلدية اليهودي للناصرة العليا، وعدد من عائلاتهم وأصدقائهم. وطوال ساعات عديدة أكلنا كميات ضخمة من لحم الخروف الذي شوي كله، ومن الفواكه، والخضروات، والخبز، ويخنة سميكة غرفناها بأصابعنا. وأذكر أنه كانت هناك عدة زجاجات من ويسكي إسكوتلاندية من جوني ووكر رد ليبيل في مركز طاولة طويلة، واستهلكت إلى حد كبير في أثناء الأنخاب العديدة التي قدمت لدى طرح كل موضوع يمكن تصوره، وأخيراً شربنا القهوة السوداء الكثيفة النموذجية في المنطقة.

وقد أثاروا فضولنا بالكيفية التي كان المسؤولون في الناصرة يحاولون فيها أن يزيدوا السياحة ويروجوا التقدم الاقتصادي، وفي فترة بعد العصر ذهبنا وتفحصنا مدينة جديدة يجري بناؤها لإسكان بعض المهاجرين الحديثين القادمين من الاتحاد السوفيتي، الذين كانوا على ما يبدو يصلون في تدفق ثابت. لم يكد دهان الجدران يجف حين انتقلت كل عائلة إلى شقتها الجديدة، وكانت هناك خطط لبناء ثلاثة آلاف وحدة أخرى لإسكان أولئك الذين لم يأتوا بعد. لقد زادت الهجرة بعد انتصار إسرائيل في حرب العام 1967، ووصلت إلى أعلى مستوى لها في العام الذي كنا فيه هناك. وقال رئيس البلدية إن ما يصل إلى مائة مصنع حول الناصرة الكبيرة (المتروبوليتان) سوف توفر الأعمال للمقيمين القدامى والجدد على حد سواء. وبعض المواطنين من زمن طويل اشتكوا من المعاملة الخاصة التي يجري منحها للقادمين الجدد، ولكن هذه الأصوات المنشقة لم تكن واسعة الانتشار أو دائمة. وتحدثنا إلى العديدين من المستوطنين السوفييت، الذين تبجحوا أمام مستوطنين شبان بأنهم كانوا قد بدؤوا بدراسة العبرية من أول يوم في بيوتهم الجديدة.

وتابعنا سفرنا إلى قانا ثم بعدئذ على طول مسارات خطى المسيح في بعثته الأولى إلى كبرنيوم والمجتمعات الأخرى الواقعة حول بحر الجليل(بحيرة طبرية). وكان باعثاً للاهتمام بوجه خاص أن نزور بعضاً من القلة الباقية من السامريين، الذين اشتكوا إلينا أن مواقعهم المقدسة وثقافتهم لم يكن يجري احترامها من السلطات الإسرائيلية وهي الشكوى نفسها التي سمعها المسيح وحواريوه تقريباً قبل ألفي عام.

بعد ذلك زرنا العديد من الكيبوتزات (المزارع الجماعية أو المستوطنات)، وكان قد صار عمر إحداها أربعة وخمسين عاماً. وبصفتي مزارعاً، فقد كنت مهتماً في أن أعلم أنهم كانوا يزرعون التفاح وكانوا قادرين على المحافظة عليه في تخزين بارد للبيع على مدار العام تقريبا، وأن أبقارهم كانت تُحلب ثلاث مرات في اليوم (بدلاً من الحلبتين المعتادتين) لزيادة الإنتاج والأرباح. وكان الصباح التالي يوم السبت، وفي الوقت المحدد دخلنا الكنيس، وصلينا صلاة صامتة، وبعدئذ وقفنا بهدوء داخل الباب تماماً. ولم يظهر إلا متعبدان اثنان آخران فقط. وحين سألت إن كان هذا الوضع نموذجياً، ابتسم جيورا ابتسامة ساخرة وهز كتفيه وكأن الأمر لم يكن مهماً على كلا الحالين.

وحصلنا على منظور مختلف حين زرنا مستوطنة في مرتفعات الجولان، التي أخذت من سورية في العام 1967. فهناك وجدنا روحاً طليعية أكثر بكثير، وتأثرنا بالتكريس الهادئ من أفراد العائلات الشابة الذين كانوا يزرعون معاً. وظهر أنهم يشتركون في كل شيء، وكانوا فخورين تماماً بعملهم اليدوي الشديد وبغياب السلع الدنيوية في بيوتهم. وأخذنا قادة الكيبوتز إلى منحدر غربي حاد يطل على الجليل ليرونا مرابض المدفعية التي كانت قد بنيت من طرف السوريين واستخدمت ضد إسرائيل في أثناء حرب العام 1967. وكنا نستطيع أن نرى بعيداً تحت مكان وقوفنا القرى الصغيرة على شاطئ البحيرة، والبيوت في القرى، والسيارات على الطرق، والجرارات تفلح الحقول. وكان واضحاً لماذا كانت السيطرة على هذا الموقع مهمة للقوات العسكرية الإسرائيلية، بانتظار اتفاقية سلام مع سورية. وتحدث الشباب الإسرائيليون بحماسة متنامية، وكانوا يشرحون أن قوة إسرائيل كان يجري اختبارها في كل يوم ويجب ألا تكون ضعيفة أبداً. وكانوا مقتنعين أن كيبوتزهم كان ذا قيمة اقتصادية وعسكرية معاً وأوضحوا لنا بجلاء أنهم كانوا عازمين على ألا يتركوا مدافع العدو تطلق النار إلى أسفل على الإسرائيليين من هذه المرتفعات المشرفة ثانية.

كان هناك حوالي 1500 مستوطن يهودي فقط في الأراضي المحتلة في ذلك الوقت، وكان افتراضنا الطبيعي هو أن إسرائيل سوف تفكك المستوطنات غير المرغوبة لتراعي أحكام القانون الدولي، ومنها قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة التي سبق أن لقيت الدعم من إسرائيل ومن الولايات المتحدة معاً. وكنت أعرف أن رئيسة الوزراء مئير كانت قد قالت إنه لم يكن يوجد شعب فلسطيني منفصل، ولكننا افترضنا أن هذا يعني أنه لن يكون هناك أي وصف عرقي مستقبلي بين اليهود وبين غير اليهود.

وعلي أن أقر أنني، في ذلك الوقت، ساويت بين طرد الفلسطينيين من بيوتهم السابقة داخل دولة إسرائيل وبين إجبار هنود الكريك السفلي على الخروج من أراضي جورجيا حيث توجد مزرعة عائلتنا في موقعها الآن، لقد نقل الهنود غرباً إلى أوكلاهوما على "طريق الدموع"؟ لإفساح المجال لأجدادنا البيض. وفي هذه القضية الفلسطينية وهي أحدث قضية، وعلى الرغم من أنها مساوية في القسوة، فإن أخذ

الأرض كان قد فرض من قبل المجتمع الدولي من خلال قرار رسمي من الأمم المتحدة. وكان على الفلسطينيين أن يمتثلوا، فهم بعد كل شيء، كانوا يستطيعون أن يعودوا أو أن يعوضوا في المستقبل، وقد ضُمِنت لهم الملكية التي لا نزاع فيها للقدس الشرقية، والضفة الغربية، وغزة.

بعد الذهاب إلى البحر، بحيرة طبرية، على متن واحد من زوارق الصواريخ التي كانت قد أخذت سراً من الفرنسيين على الرغم من حظر الأسلحة بعد العام 1967 ضد إسرائيل، سقنا شرقاً وبعدئذ جنوباً إلى أقرب ما كنا نستطيع من نهر الأردن. وطوال حياتنا كنا قد درسنا وغنينا عن هذا الجدول، ولذلك فقد تخيلناه تياراً قوياً بصفات سحرية تقريباً. ولكننا كنا مندهشين حين وجدنا أنه لم يكن بضخامة الجداول الصغيرة التي تنساب عبر مزرعتنا الخاصة. وعلمنا أن الكثير من الماء كان يجري تحويله من المجرى لري المحاصيل الإسرائيلية وكان ذلك آنئذ واحداً من الأسباب الأولى للعداوة بين إسرائيل وجيرانها الشرقيين. وأبقتنا الأسلاك الشائكة وحواجز الطرق بعيدين عن المنطقة الأمنية على طول ضفتي النهر، ولكنني مع الإذن الخاص من حرس أمن الحدود، أخذت غطسة سريعة في نهر الأردن قرب المكان الذي اعتقدت أن المسيح كان قد عُمّد فيه على يدي جون (يوحنا) المعمدان.

وعلى جسر اللنبي، الذي يعبر الجدول، راقبنا طوال مدة من الوقت أعداداً كبيرة من الناس والسيارات تتحرك إلى الأردن ومنه. وأخبرنا مسؤولو الجمارك أن تدقيقات الأمن العادية فقط هي التي يجري القيام بها، وفي أثناء السنوات الثلاثة الأخيرة، قالوا، إن أكثر من ثلاثة أرباع المليون من العرب قد زاروا إسرائيل بشكل شرعي. وبغمزة، أضاف واحد من الحراس أنهم كانوا يستطيعون أن يقدروا كم عدد الزوار غير الشرعيين فقط الذين كانوا هناك، ولكن بعضهم (يشير إلى الإرهابيين المقبوض عليهم) لم يكن قادراً على أن يعود إلى بيته في الأردن.

بعد ذلك، خبرنا جميعنا الطفو غير العادي حين سبحنا في البحر الميت. ولاحظنا أن بيوت الاستحمام كانت بعيدة نوعاً ما عن الشاطئ، وقال لنا المرافق إن مستوى الماء مازال يهبط كلما أُخذ المزيد والمزيد من أنظمة الري من الجدول المتناقص. وقال سيكون هناك في نهاية الأمر بحران صغيران إن استمر هذا الاتجاه.

بعد أن أنهينا خطة مسير رحلتنا الطموحة بصفتنا سائحين، اتبعنا الجدول الذي كان معداً لنا من المسؤولين الإسرائيليين. فذهبنا مع الجنرال رابين إلى بيت هل، إلى معسكر تدريب في الأراضي المحتلة حيث طلب مني أن أشارك في حفل تخريج عسكري. وهذه المنشأة في الضفة الغربية كانت قد استخدمت من قبل من الأردنيين للغرض نفسه قبل أن تحتل إسرائيل المنطقة في حرب الأيام الستة. وقف الجنود في وضع الانتباه وقوفاً جامداً، وكلما كان ينادى على اسم، كان المتخرج يركض بأعلى سرعة إلى منصة الاستعراض، وهناك يسلم له القائد شهادة، وأما أنا فكنت أسلم "سيف الروح" (إنجيل عبراني)، وكان هذا الكتاب واحداً من مؤشرات قليلة عن الالتزام الديني الذي لاحظته في أثناء زيارتنا.

وصف الجنرال رابين العلاقات الوثيقة التي كانت لإسرائيل مع جنوب إفريقية في تجارة الماس (وكان هو قد عاد من هناك قبل يوم أو يومين لتحيتنا) ولكنه علق بأن نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقية لا يستطيع أن يعيش طويلاً. وحين سألت عن مستقبله السياسي الخاص به هو، قال إنه سيأخذ مكاناً على لائحة حزب العمل ولكنه لم يعط حتى ذلك الحين ضماناً لمنصب في الوزارة.

في ذلك الوقت، كان وزير الخارجية إيبان أفضل إسرائيلي معروف، وكان مشهوراً بفصاحة خطاباته في الأمم المتحدة، وكنت متحمساً حين دعانا لمقابلته. وليس هذا مثيراً للدهشة، فقد كان مليئاً بالأفكار عن مستقبل إسرائيل، وبعض أفكاره أثبتت انه بعيد النظر بشكل جدير بالملاحظة. قال إن الأراضي المحتلة كانت عبئاً وليست مصدر قوة، وإن العرب واليهود بجبلتهم غير متوافقين وسيتوجب أن يفصلوا في نهاية المطاف. ومراكز الحجز والإجراءات العقابية والقمعية المتصلة بها والضرورية لحكم مئات الآلاف من العرب ضد إرادتهم سوف تعذب إسرائيل بنوع من الحالة شبه الاستعمارية التي كان يجري إلغاؤها في كل أنحاء العالم. وحين سئل، أجاب من دون شرح بأن الحل لهذه المعضلة كان يجري تطويره. (وأنا كنت أعرف أن بعض الزعماء الإسرائيليين كانوا يفكرون في هجرة ضخمة من روسيا ومن الولايات المتحدة الأمريكية معاً إضافة إلى تشجيع العرب على الهجرة إلى أمم أخرى.) وشرح إيبان دوره غير العادي في الأمم المتحدة بالقول: "لو كنت وزير

خارجية للأمة العربية الوحيدة المحاطة بتسع وثلاثين دولة يهودية معادية، لكنت سألتجئ إلى الأمم المتحدة، من أجل الحصول على المساندة".

وقدم لي اللواء إلياهو زيرا رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، ورئيس أركان الجيش حاييم بارليف، إيجازات خاصة تعتبر من "الأسرار العليا" عن الموقف العسكري والسياسي في البلدان المجاورة، مع التوكيد على سورية ومصر. ومرة تلو المرة أشاروا إلى حرب العام 1967 بوصفها مثالاً على عدم قابلية إسرائيل للتعرض للخطر ولم يتركوا أي شك في أنهم مستعدون استعداداً شاملاً لمواجهة أي احتمال قد يحدث. وعلى الرغم من أن 5 بالمائة فقط من الأفراد العسكريين الإسرائيليين يحتفظ بهم في الزي العسكري، فإن استخباراتهم كانت ممتازة وزمن الحشد لقوات الاحتياط قصير جداً. وأقر كبار القادة، وهم يصفون قواتهم العسكرية "الدفاعية"، بالحلف الحيوي مع الولايات المتحدة ولكنهم شددوا على الاكتفاء الذاتي لإسرائيل إذا أعطيت الإمدادات والترخيص لإنتاج نسخ إسرائيلية خاصة من الطائرات والدبابات والمواد العسكرية الأمريكية الأخرى. وافترضت أن هذه الرسالة كانت واحداً من الأسباب التي دعت إلى دعوتي للزيارة.

وفي أثناء ساعاتنا الأخيرة في القدس دعينا إلى حضور جلسة في الكنيست، فيها خاطبت رئيسة الوزراء مائير المجلس. وعلقتُ على لافتات ممنوع التدخين المبثوثة في قاعة الاجتماع والتي كان يطيعها كل واحد باستثناء رئيسة الوزراء، وقد شرح ذلك جيورا فقال: "لدينا خيار نفعله. إما أن لا يكون هناك لافتات ممنوع التدخين فيدخن كل من يريد التدخين أو أن نرفع لافتات ممنوع التدخين ويكون لدينا مدخن واحد. لقد قررنا أن قيام شخص واحد بالتدخين لن يكون أمراً سيئاً جداً".

بعد ذلك، في مكتب رئيسة الوزراء، شكرتها على جعل زيارتنا الرائعة ممكنة، وسألت هي إن كان لدي أي ملاحظات أود أن أشاركها بها. قلت ببعض التردد: إنني علّمت لمدة طويلة دروساً مأخوذة من الكتاب المقدس العبراني وإن النمط التاريخي الشائع هو أن إسرائيل كانت تعاقب حين يبتعد قادتها عن العبادة المخلصة للّه. وسألتها إن كانت قلقة بشأن الطبيعة العلمانية لحكومتها من حزب العمل. وبدت مندهشة من جسارتي، واستبعدت تعليقاتي بهزة كتف وضحكة. وأشعلت سيجارة من أخرى ثم قالت إن اليهود "الأرثوذكس" مازالوا موجودين

ويستطيعون تولي ذلك الجزء من مسؤولية الأمة. وكانت بذلك تشير إلى اليهود المتدينين في البرلمان الإسرائيلي، الذين كانوا أحياناً شوكة حقيقية في جنبها. وأضافت: "لو أنك حضرت جلسة من جلسات الكنيست، فسوف تراهم وهم يعملون وسوف تعرف أنهم لم يفقدوا إيمانهم". وبوجود النظام الإسرائيلي للانتخابات، الذي يستلزم قيام تحالف من الأحزاب لتشكيل أكثرية حاكمة، فإن منظمات الأقلية الدينية كانت تمتلك تأثيراً يفوق إلى حد بعيد قوتها العددية.

لا السيدة مئير، ولا أنا أدركنا ذلك حينئذ، ولكن مناحيم بيغن، زعيم حزب حيروت مع 22 بالمائة فقط من مقاعد الكنيست، سيكون رئيس وزراء إسرائيل في غضون أربع سنوات (وسأكون أنا رئيس الولايات المتحدة). والكثير من قوة بيغن السياسية سوف يأتي من قناعاته الدينية العميقة.

وطوال سفراتنا وجدنا البلد مسترخية بشكل مثير للدهشة ولم نر إلا حفنة فقط من الناس في الزي العسكري، ومعظمهم يوجهون المرور عند التقاطعات المزدحمة أكثر من غيرها. وكذلك، فقد كان هناك على ما يبدو علاقة سهلة بين مختلف أنواع الناس الذين قابلناهم، ومن جملتهم اليهود والعرب. وأدركت، لاحقاً، أنني لم أكن قد حصلت إلا على القليل من الاتصالات الشخصية أو المناقشات السياسية مع العرب الذين لم يكونوا يعيشون داخل إسرائيل، ولكن بلواهم بدت لي في ذلك الوقت غير مهمة نسبياً.

لقد سجلت بعض الملاحظات الخاصة والعامة التي تبين كيف كان الجو في إسرائيل مستبشراً مع إحساس بالنجاح والرفاهية:

- "الولايات المتحدة هي صديقنا المهم الوحيد".
- "الروس يريدون السلام الآن في الشرق الأوسط. ولا يستطيعون تحمل هزيمة كبيرة أخرى لحلفائهم العرب".
- "الأوروبيون مشغولون بالاقتصاد. وفرنسا هي أسوأ عدو لنا في السوق المشتركة مهتمة بالأخلاقيات الضيقة على نحو مفرط".

- "العـرب غـير متـوافقين معنـا ، ولـيس لهـم أي ولاء للعلـم الإسـرائيلي. العـرب الإسرائيليون هم أسـرع مجتمع على الأرض نمواً ، والهجرة اليهودية فقـط هـي التي ستسمح لنا باستبقاء الأكثرية".
- "سـلاح الـنفط العربـي لـيس تهديـداً حقيقيـاً. فهـم يحتـاجون إلى الـدولارات أكثر من حاجة العـالم إلى نفطهم. وإسـرائيل تستلم 90 بالمائـة مـن حاجاتهـا من النفط من سيناء وإيران. وليس لـدينا أي مـشكلة في المستقبل المنظـور في الحصول على الوقود الكافي".
- "لا ينبغي لأحد أن يخاف من الأمم العربيـة. لقـد هزمـوا هزيمـة سيئة في كـل نزاع وفي النهاية سيكون عليهم أن ينشدوا السلام".

وغادرنـا ونحـن مقتنعـون أن الإسـرائيليين كـانوا مـسيطرين ولكـن عـادلون، والعرب ساكتون لأن حقوقهم كانت محمية، والموقف السياسـي والعسكري مقـدر لـه أن يبقـى مـستقراً إلى أن يـتم مقايـضة الأرض في مقابـل الـسلام. وكنـت متحمـساً ومتفـائلاً بـشأن الالتـزام الظـاهر مـن الإسـرائيليين لإنـشاء أمـة سـتكون وطنـاً قوميـاً لليهـود، ومكرسـة لمبـادئ الـسلام والعدالـة اليهوديـة المسيحية، ومـصممة علـى أن تعيش بانسجام مع جميع جيرانها. وعلى الرغم من أنني كنت أعي المكانة الخاضعة للفلسطينيين، فقد كنت واثقاً بـالافتراض أن إسـرائيل سـوف تـسحب مـن الأراضـي المحتلة في مقابل السلام. وكنت قد ذُكـرت بكلمـات أول رئـيس لإسـرائيل، حـاييم وايزمن: "أنا على يقين أن العالم سـوف يحكـم علـى الدولـة اليهوديـة بالكيفيـة الـتي ستعامل بها العرب".

بعد عودتي إلى الوطن، راقبت التطورات في الشرق الأوسط مراقبة حميمة جداً. كـان يـستحوذ علـى الإسـرائيليين الحفـاظ علـى سـيطرتهم علـى الـضفة الغربيـة والاستمرار في بنـاء اقتـصادهم وتحالفـاتهم العالميـة، وحينئـذ أخـذ الإسـرائيليون علـى حين غرة بشكل كامل بعد أربعة أشهر من زيارتي، في شهر تشرين الأول/أكتـوبر مـن العـام 1973، حـين نـسق الرئيـسان أنـور الـسادات مـن مـصر وحـافظ الأسـد مـن سورية هجمات متزامنة بقواتهم المسلحة في سيناء وفي مرتفعات الجولان، وكلتاهمـا كانت محتلة من إسرائيل. وكان العرب في البداية ناجحين، وهـم مـسلحون تـسليحاً

جيداً بالأسلحة السوفيتية، ولكن التماسك الإسرائيلي والإمدادات الإضافية العسكرية من الولايات المتحدة قلبت المد في نهاية الأمر.

لقد كنت قلقاً بعمق حين وصلت القوات المشتركة من القوى الكبيرة إلى حد النزاع تقريباً حين عبرت القوات العسكرية الإسرائيلية قناة السويس وكانت تتحرك باتجاه القاهرة في مصر. فالأساطيل النووية من الاتحاد السوفيتي (التي كانت تحمي مصر) والولايات المتحدة (المساندة لإسرائيل) كانت قد وضعت في حالة إنذار عالية للمرة الوحيدة في التاريخ. ومن حسن الحظ، فإن الأمتين العظيمتين استخدمتا نفوذهما للوصول إلى وقف إطلاق للنار بعد أربعة وعشرين يوماً من القتال. وحاول وزير الخارجية هنري كيسنغر ونجح في التفاوض من أجل الوصول إلى اتفاقات دائمة لفك الاشتباك.

الفصل الثالث

رئاستي

1981 – 1977

أدخلت حرب العام 1973 تغييرات كبيرة في شخصية الشرق الأوسط. فالأداء الفعال للجيشين المصري والسوري زاد مكانة كلا الرئيسين: الرئيس أنور السادات من مصر، والرئيس حافظ الأسد من سورية. وأبانت الدول العربية عملياً أنها كانت مستعدة لاستخدام النفط سلاحاً في مساندة مصالح العرب، وذلك من خلال الحظر وزيادات السعر. وفي إسرائيل، في شهر حزيران/يونيو من العام 1974، استقالت رئيسة الوزراء غولدا مئير، وأخذ مكانها إسحق رابين. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر، أيضاً، أعلن الزعماء العرب بالإجماع منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وياسر عرفات زعيماً لها. وصار يجب الآن أن يُنظر إلى الفلسطينيين بوصفهم شعباً وكانوا يستطيعون أن يتحدثوا عن أنفسهم.

وصارت منظمة التحرير الفلسطينية كياناً سياسياً قوياً، وصارت قادرة على استثارة مساندة قوية في المنتديات الدولية من العرب، ومن الاتحاد السوفيتي، ومن معظم بلدان العالم الثالث، ومن كثيرين غيرهم. وفي المقابل، فإن زعماء الحكومة الأمريكية تعهدوا بألا يعترفوا بمنظمة التحرير الفلسطينية أو يتفاوضوا معها إلى أن تعترف المنظمة رسمياً بحق إسرائيل في الوجود وإلى أن تقبل قرار الأمم المتحدة رقم 242، وهو القرار الذي أكد وجود إسرائيل داخل حدودها في العام 1949. وكانت هناك مشكلة أكثر أهمية وهي أن رفض منظمة التحرير الفلسطينية لإسرائيل كان يشاركها فيه زعماء جميع الأمم العربية، بعد أربعة حروب في السنوات الخمس والعشرين الماضية.

كانت هذه هي الأحداث التي رصدتها بعد عودتي إلى الوطن من زيارتي الأولى إلى إسرائيل وفي أثناء حملتي الانتخابية في التنافس من أجل منصب الرئيس. وكان يوماً نادراً في مسيرة الحملة الانتخابية اليوم الذي لا أتلقى فيه أسئلة من مواطنين

يهود عن مصالح إسرائيل، وزودني فريقي المتزايد من محللي القضايا بأوراق إيجازات كنت أستطيع أن أدرسها. وقدمت وعوداً متكررة بأني سأسعى إلى تنشيط جهود السلام الساكنة، وبعد أن انتخبت رئيساً وقبل تنصيبي ألقيت خطاباً في المعهد السميثسوني وأدرجت فيه هذا التنشيط لجهود السلام بوصفه غاية كبيرة للسياسة الخارجية.

ونظراً إلى أنه كان ينبغي على الولايات المتحدة أن تلعب دوراً قوياً في أي جهد يبذل في سبيل السلام، فقد استعرضت المواقف الرسمية لأسلافي في القضايا الرئيسية. وكانت سياسة أمتنا الثابتة قد استندت إلى قرارات قليلة رئيسية لمجلس الأمن في الأمم المتحدة، وعلى الخصوص القرار رقم 242 للعام 1967 (الملحق 1) والقرار رقم 338 للعام 1973 (الملحق 2). والفرضية الأساسية في القرارين، التي كانت الموافقة عليها بالإجماع ومازالت قابلة للتطبيق، هي أن استيلاء إسرائيل على الأرض بالقوة غير قانوني ويجب على إسرائيل أن تنسحب من الأراضي المحتلة، وأن إسرائيل تمتلك الحق في أن تعيش بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها، وأن مشكلة اللاجئين يجب أن تحل، وأن المجتمع الدولي يجب أن يساعد بالمفاوضات لتحقيق سلام عادل وقابل للدوام طويلاً في الشرق الأوسط. وعلى نحو أكثر تحديداً، كانت سياسة الولايات المتحدة هي أن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وفي غزة كانت "غير قانونية وعقبات للسلام". وجاء واحد من أوائل بياناتي العامة وأكثرها إثارة للجدل في شهر آذار/مارس من العام 1977، بعد بضعة أسابيع فقط بعد أن صرت رئيساً، حين استعرضت هذه الفرضيات نفسها وأضفت: "يجب أن يكون هناك وطن يتوفر للاجئين الفلسطينيين الذين عانوا طوال سنوات عديدة، عديدة". وهذا ما سيكون أول تحرك نحو مساندة دولة فلسطينية.

بعد أسبوعين جاء الرئيس السادات إلى واشنطون لزيارة رسمية، وبعد المأدبة الرسمية صعدنا، هو وأنا الدرج إلى غرف المعيشة في البيت الأبيض. وفي أثناء محادثة طويلة وخاصة، صار واضحاً أن ميله إلى العمل معي في محادثات السلام كان قد صار من قبل ميلاً متطوراً تطوراً جيداً، ولكنه لم يكن قد قرر بشأن أي خطة جازمة للوصول إلى ما قد يصير غايتنا المشتركة. لقد أخبرني السادات بوضوح أنه كان مستعداً لاتخاذ خطوات جسورة نحو السلام، وتكون كلها مستندة إلى

القرارات السائدة في مجلس الأمن في الأمم المتحدة. وناقشنا بعض العناصر المحددة لمفاوضات مباشرة ممكنة في المستقبل: الحدود الدائمة لإسرائيل، ووضع القدس، وحقوق الفلسطينيين، ثم ـ وهو أمر غير متصور تقريباً أن يحدث في الوقت الحاضر ـ تجارة حرة وحدود مفتوحة بين الأمتين، زائداً الاعتراف الدبلوماسي الكامل وتبادل السفراء.

وحل مناحيم بيغن مكان إسحق رابين رئيساً للوزراء بعد شهر من ذلك، وقد تعلمت على وجه السرعة كل ما استطعت عن زعيم إسرائيل الجديد. فانتصاره المفاجئ أنهى السيطرة غير المتقطعة التي سيطرها حزب العمل منذ استقلال إسرائيل. لقد وضع بيغن معاً تحالف أكثرية قَبِل بافتراضه أن الأرض في غزة والضفة الغربية كانت تعود ملكيتها إلى دولة إسرائيل بشكل شرعي ويجب ألا تبادلها إسرائيل في مقابل اتفاقية سلام دائم مع العرب. وكان الرأي العام مختلفاً اختلافاً واسعاً، ولكن لم يكن هناك أدنى شك في العام 1977 في أن موقفاً صقرياً أكثر تشدداً سيطر الآن في حكومة إسرائيل. كنت مهتماً اهتماماً عميقاً ولكنني أرسلت له التهاني الشخصية مع دعوة لزيارتي في واشنطون.

وعلى الرغم من أن عوامل عديدة أثرت على نتيجة الانتخابات الإسرائيلية، فإن العمر والاختلافات العرقية فضلت الليكود تفضيلاً قوياً على اصطفاف حزب العمل. واليهود والشرقيون (وهم المعروفون باسم السيفارديم)، والذين كانت عائلاتهم قد جاءت من الشرق الأوسط وإفريقية، أعطوا أحزاب تحالف الليكود هامشاً سياسياً في العام 1977، وكانوا ميالين إلى دعم سياسة عسكرية أكثر شدة في التعامل مع الأراضي المحتلة. وعلى الرغم من أن بيغن ليس من السيفارديم في المولد، فقد كانت فلسفته ونهج تصرفاته جذابة للمقترعين السيفارديم. وكذلك، فإن السيفارديم كانوا على وجه العموم أفتى، وأكثر محافظة، وأقرب إلى قاع السلم الاقتصادي وكانوا يسخطون من المهاجرين اليهود الذين قدموا من أوروبة وأمريكا الذين كانوا أكثر منهم ثراء وتقدماً (المعروفون باسم الأشكينازيم)، والذين كانوا قد قدموا كل زعماء إسرائيل السابقين تقريباً. ولعائلات السيفارديم معدل ولادة أعلى من الأشكينازيم، والآن، بالاشتراك مع العديدين من المهاجرين صاروا قوة سياسية قوية.

وكانت الطبيعة الشخصية لمناحيم بيغن أيضاً عاملاً كبيراً في النصر. فبعد أن عانى هو وأسرته الاضطهاد في أوروبة الشرقية وسيبريا من أجل نشاطه السياسي بوصفه صهيوناً، أطلق سراحه من سجن سوفيتي وذهب إلى فلسطين في العام 1942. وصار قائداً لجماعة سرية عسكرية تدعى منظمة الأرغون، التي احتضنت أقصى مطالب الصهيونية. وكان من جملة المطالب طرد القوات البريطانية من فلسطين. وقد قاتل بكل سلاح توفر له ضد البريطانيين، الذين وصموه باسم الإرهابي البارز في المنطقة. وهو رجل يتمتع بشجاعة شخصية وإخلاص لغاياته موطد العزم، وكان يفتخر بكونه "مقاتلاً يهودياً". وقد أدركت أن رئيس وزراء إسرائيل الجديد، الذي كنت سأتعامل معه، سيكون مستعداً للجوء إلى الإجراءات المتطرفة لتحقيق غاياته التي آمن بها.

وفي إسرائيل، قدم بيغن إجابات واضحة فظة لأسئلة معقدة حول السلام والحرب، والدين، والفلسطينيين، والمالية، والاقتصاد. وتوقعت منه أن يمتلك فكرة واضحة عن الوقت الذي قد يتنازل فيه عن شيء وعن الشيء الذي لن يعطيه في المفاوضات مع جيرانه العرب والولايات المتحدة. ومع ذلك، فحين جاء إلى واشنطون لمقابلتي، وجدت رئيس الوزراء مستعداً تماماً لمتابعة بعض الغايات الكبيرة التي سبق أن ناقشتها مع السادات.

وكان لي أيضاً محادثات محددة مع الملك حسين، ملك الأردن، ومع الرئيس حافظ الأسد، الرئيس السوري، ولكن كان من الواضح أنهما لن يكونا مستعدين للمشاركة في نوع جهود السلام التي سبق أن ناقشتها أنا والسادات وبيغن. وكانت الضغوط الاقتصادية والسياسية الموجودة في صفوف زعماء العرب للإبقاء على إدانة جماعية لإسرائيل ضغوطاً كاسحة. وكانت منظمة التحرير الفلسطينية خارج الحدود الدبلوماسية بالنسبة إلي، وكانت ما تزال مصنفة رسمياً من الولايات بصفتها منظمة إرهابية. وعلى الرغم من هذا القيد، فقد سعيت من خلال قنوات غير رسمية إلى استمالة ياسر عرفات وإقناعه بقبول القرارات الرئيسية للأمم المتحدة لكي تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية أن تلتحق بالجهود المبذولة من أجل السلام، ولكن عرفات رفض.

أرسلت إلى السادات رسالة مكتوبة بخط اليد أخبره فيها كم كان "مهماً للغاية وربما حيوياً" بالنسبة إلينا أن نعمل معاً، وناقشنا هو وأنا الاحتمالات المختلفة من خلال الهاتف. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1977، قام السادات بمبادرة سلام مؤثرة دراماتيكية من خلال الذهاب مباشرة إلى القدس. واستقبل بيغن السادات بلطف واستمع له برزانة واضحة والرئيس المصري يضع في تعابير لا مجال فيها لأي شك أقوى موقف عربي يتضمن انسحاب إسرائيل الفوري من كل الأراضي المحتلة وحق العودة للفلسطينيين إلى بيوتهم السابقة. ووجدت الأمر مثيراً للاهتمام أن السادات قرر ألا يتبع نصيحة مستشاريه بأن يلقي خطابه باللغة الإنجليزية من أجل جمهور المستمعين في العالم، ولكنه قرر أن يلقيه باللغة العربية من أجل منفعة جيرانه العرب. إن الرمزية في حضوره قد ألقت بالغموض على خشونة كلماته الفعلية، وهكذا فقد كان رد الفعل في الأمم الغربية محبّذا بشكل كاسح ورد الجمهور الإسرائيلي بإثارة وحماسة. وكانت ردود فعل السعوديين، والأردنيين، وبعض الزعماء العرب المعتدلين الآخرين ردوداً متسمة بالحذر، ولكن سورية قطعت العلاقات الدبلوماسية مع مصر، ودعا مسؤولون كبار في دمشق، وبغداد، وطرابلس ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى اغتيال السادات.

وجاء رئيس الوزراء بيغن إلى البيت الأبيض لمناقشة مقترحات سلام محددة، وكان هناك حركة مفاجئة مضطربة من الاجتماعات بين المصريين والإسرائيليين بلغت ذروتها بعد عيد الميلاد بمدة قصيرة في زيارة رد مقابلة قام بها بيغن إلى مصر. وروى لي السادات أن الجلسة كانت غير مرضية بشكل كامل، وهي نكسة قاتلة على ما يظهر لمبادرة السلام التي قام بها، وذلك لأن بيغن كان يصر على أن المستوطنات الإسرائيلية يجب أن تبقى على الأرض المصرية في سيناء. وبدا أن النتيجة الدائمة الوحيدة لتحرك السادات هي النهاية لأي فرصة لعقد مؤتمر سلام دولي يشمل السوفيت. وتشاورت مع أكبر عدد ممكن من الزعماء العرب في رحلة سريعة في العام الجديد إلى المنطقة، ووجدتهم مساندين نوعاً ما للسادات في السر ولكنهم منتقدون له في بياناتهم العلنية، محترمون في ذلك تعهداً بالإجماع مع إخوانهم العرب الآخرين.

وفي أثناء الجزء الأول من العام 1978 ، أرسل إلي السادات رسالة خاصة بأنه كان ينوي المجيء إلى الولايات المتحدة وأن يدين بيغن علناً بوصفه خائناً لعملية السلام. ودعونا ، روزالين وأنا ، أنور السادات وزوجته جيهان ، إلى كامب ديفيد للقيام بزيارة شخصية ، وبعد نهاية أسبوع من المحادثات المكثفة ، كان السادات مقتنعاً بإلغاء خطابه الذي خطط له وانضم إلي في البحث عن اتفاقية.

ومن سوء الطالع ، أن علاقاتي العملية مع مناحيم بيغن صارت أصعب مما كانت عليه في شهر مارس/آذار ، وذلك حين شنت منظمة التحرير الفلسطينية هجوماً على إسرائيل من قاعدة في جنوب لبنان. وكان قد تم الاستيلاء على سيارة ركاب سياحية لمشاهدة معالم المكان وقتل فيها خمسة وثلاثون إسرائيلياً. وقد أدنت أنا هذا العمل الآثم علناً ، ولكن تعاطفي توتر بعد ثلاثة أيام حين غزت إسرائيل لبنان واستخدمت القنابل العنقودية الأمريكية الصنع المضادة للأفراد ضد بيروت والمراكز الحضرية الأخرى ، وقتلت بذلك مئات من المدنيين وخلفت آلافاً منهم بلا مأوى. وقد نظرت إلى هذه الغزوة الكبيرة بوصفها رد فعل مفرطاً على هجوم منظمة التحرير الفلسطينية ، وبوصفها تهديداً خطيراً للسلام في المنطقة ، وربما تكون جزءاً من خطة لتأسيس وجود إسرائيلي دائم في جنوب لبنان. وكذلك ، فإن مثل هذا الاستخدام للأسلحة الأمريكية قد خرق متطلباً قانونياً هو أن التسليح المباع منا يجب أن يستخدم للدفاع الإسرائيلي فقط ضد هجوم على إسرائيل.

وبعد التشاور مع المساندين الرئيسيين لإسرائيل في مجلس الشيوخ الأمريكي ، أعلمت رئيس الوزراء بيغن أنه إذا بقيت القوات الإسرائيلية في لبنان ، فسوف يكون علي أن أحيط مجلس الشيوخ علماً ، حسب ما يطلبه القانون ، بأن الأسلحة الأمريكية كان يجري استعمالها بشكل غير قانوني في لبنان ، وهو الأمر الذي سيؤدي تلقائياً إلى قطع كل العون العسكري لإسرائيل. وكذلك ، فقد وجهت وزارة الخارجية بأن تعد قراراً من مجلس الأمن في الأمم المتحدة يدين فعل إسرائيل. وانسحبت القوات الإسرائيلية ، وجاءت قوات الأمم المتحدة لتحل محلها في جنوب لبنان ، وكانت كافية لكبح المزيد من هجمات منظمة التحرير الفلسطينية على المدنيين الإسرائيليين.

كانت جهودنا لتجديد العملية الكلية للسلام جهوداً غير مثمرة في أثناء الربيع والصيف. وكان عملي التالي عملاً من أعمال اليأس تقريباً. قررت أن أدعو بيغن والسادات معاً إلى كامب ديفيد لكي يكون باستطاعتنا أن نكون بعيدين عن روتين الواجبات لمدة أيام قليلة ولكي أستطيع، في عزلة نسبية، أن أتصرف بصفة وسيط بين وفدي الأمتين. وقد قبلا من دون تأخير، وفي 4 أيلول/سبتمبر بدأنا ما تطور إلى جلسة دامت ثلاثة عشر يوماً، وضمت زمراً من حوالي خمسين شخصاً في كل طرف. وكان هدفي هو أن أجعل المصريين والإسرائيليين يفهمون ويقبلون توافق الكثير من غاياتهم والميزات المتوفرة لكلتا الأمتين في حل خلافاتهما. وكان علينا أن نعالج مسائل أساسية مثل الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة، وحقوق الفلسطينيين، وأمن إسرائيل، ونهاية الحظر التجاري العربي، والحدود المفتوحة بين إسرائيل ومصر، وحقوق السفن الإسرائيلية في المرور في قناة السويس، والقضايا الحساسة المتصلة بالسيادة على القدس والوصول إلى الأماكن المقدسة. وفي مسار العملية، أملت أن أحقق سلاماً دائماً بين البلدين مستنداً إلى الاعتراف الدبلوماسي الكامل كما سيكون مؤكداً في معاهدة سلام ثنائية.

بيغن والسادات كانا غير متوافقين شخصياً، وقررت أنا بعد مواجهات قليلة غير سارة بأنهما لا يجب أن يحاولا التفاوض أحدهما مع الآخر. وبدلاً من ذلك، عملت في أثناء الأيام والليالي العشر الأخيرة أن أعمل مع كل واحد منهما أو مع ممثليهما على انفراد. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة كانت أصعب بالنسبة إلي إذ كان علي أن أذهب من جلسة مفاوضات إلى أخرى ـ فقد كان هناك ميزات في أنها تجنبت البلاغة الخشنة، والنقاش الشخصي بين الزعيمين. وعلى الأقل مع بيغن، فإن كل كلمة من الاتفاقية النهائية قد درست بعناية، وصرفنا هو وأنا الكثير من الوقت نتابع مكنزاً لغوياً ومعجماً. وكان لغوياً حريصاً. وأدهشني مرة حين اقترحت حكماً ذاتياً للفلسطينيين، وأصر هو على "حكم ذاتي كامل".؟

لقد جاء بيغن إلى كامب ديفيد ينوي مجرد الوصول إلى صياغة بيان مبادئ عريض، وعام لاتفاقية السلام، ويترك إلى مرؤوسيه واجب حل التفاصيل الصعبة. لقد كان واضحاً في الحال أنه كان مهتماً بمناقشة سيناء أكثر من اهتمامه بالضفة الغربية وغزة، وصرف أفضل جزء من طاقته في التفاصيل الدقيقة لكل

مقترح. وكان الأعضاء الرئيسيون الآخرون في الفريق الإسرائيلي وهم وزير الخارجية موشيه دايان، ووزير الدفاع عزرا وايزمان، والنائب العام أهارون باراك، قد رغبوا في اتفاقية تكون على أكمل ما يمكن مع المصريين، وكانوا قادرين في أغلب الأحوال على إقناع بيغن بأن اقتراحاً معيناً كان في مصلحة إسرائيل وسيوافق عليه مواطنوها.

وأراد السادات اتفاقية سلام شاملة، وكان هو أكثر عضو حاضر مستعد من أعضاء الوفد المصري. وكانت متطلباته العامة هي أن يغادر كل الإسرائيليين سيناء المصرية وأن يكون هناك اتفاق شامل يشمل الأراضي المحتلة، والحقوق الفلسطينية، والتزام إسرائيل بأن تحل أي نزاعات أخرى مع جيرانها بطريقة سلمية. وكان يتوجب على الطرفين أن يتعهدا باحترام قرار الأمم المتحدة رقم 242، وكان السادات عادة يترك تفاصيل المفاوضات لي أو للمفاوض الرئيسي في فريقه المصري أسامة الباز.

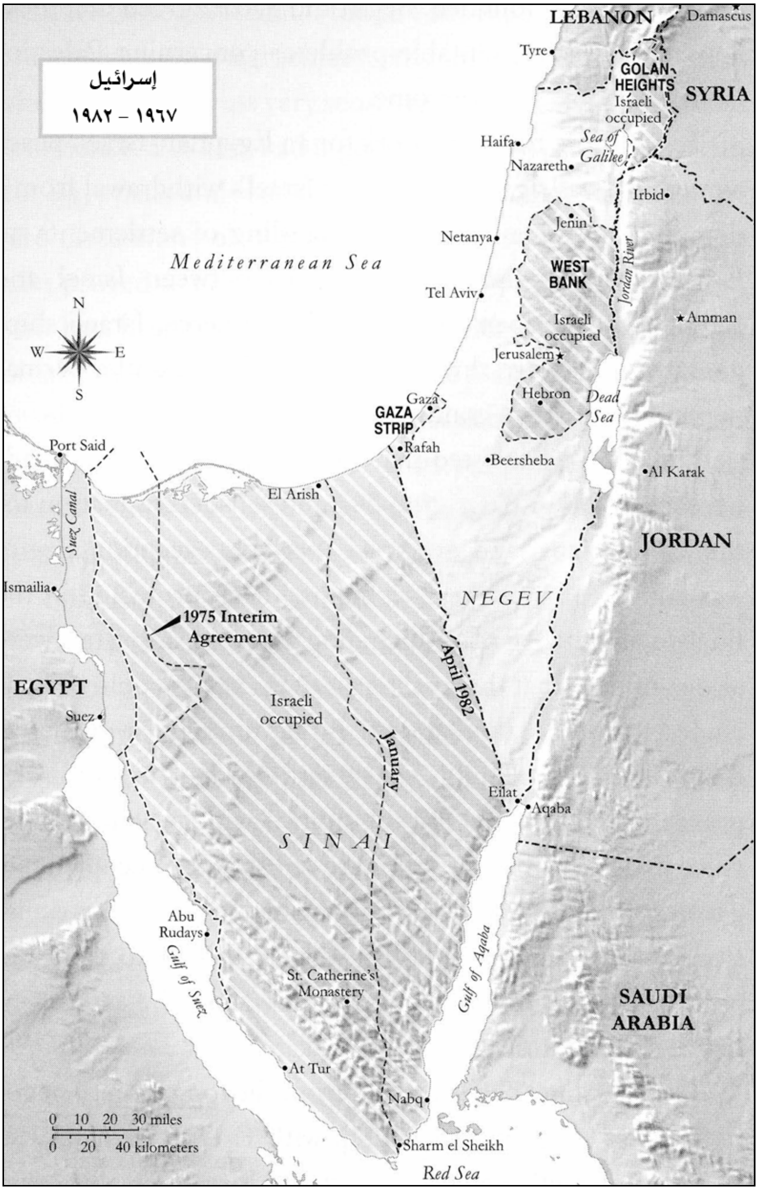
وفي مناسبات عديدة كان السادات أو بيغن مستعداً أن ينهي المناقشات ويعود إلى الوطن، ولكننا في النهاية تفاوضنا على اتفاقات كامب ديفيد (الملحق 3)، ومن جملتها إطار عمل لمعاهدة السلام بين الأمتين (الملحق 4). لا بل لقد وافق الزعيمان ومستشاروهما على فقرتي المصوغة صياغة حريصة بشأن أكثر القضايا كلها حساسية، وهي المدينة المقدسة:

القدس، مدينة السلام، هي مدينة مقدسة لليهودية، وللمسيحية، وللإسلام، ويجب أن يكون لكل الناس حق الوصول الحر إليها وأن يتمتعوا بالممارسة الحرة للعبادة وبالحق في أن يزوروا وينتقلوا إلى الأماكن المقدسة من دون تمييز أو تفرقة. والأماكن المقدسة لكل دين ستكون تحت إدارة ممثليه وسيطرتهم. وسيقوم مجلس بلدي ممثل لسكان المدينة بالإشراف على الأعمال الأساسية في المدينة من مثل المنافع العامة، والنقل العام، والسياحة وسوف يضمن أن يكون باستطاعة كل مجتمع أن يحافظ على مؤسساته الخاصة الثقافية والتعليمية.

ومع ذلك، ففي آخر دقيقة، وبعد عدة أيام من الاتفاق بالإجماع، فإن السادات وبيغن كليهما قررا أنه قد صار في الاتفاقات، من قبل هذه الفقرة، ما يكفي من العناصر الخلافية وطلبا أن تحذف هذه الفقرة من النص النهائي.

ينبغي أن يذكر أن اتفاقات كامب ديفيد ، التي وقعها السادات وبيغن وصُدّق عليها رسمياً من كلا الحكومتين، قد عاودت التشديد على التزام محدد باحترام أحكام قراري الأمم المتحدة رقم 242 و338، اللذين يمنعان الاستيلاء على الأرض بالقوة ويدعوان إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. وتصف الاتفاقات "حكماً ذاتياً كاملاً" لسكان الأراضي المحتلة، وانسحاب القوات الإسرائيلية العسكرية والمدنية من الضفة الغربية وغزة، والاعتراف بالشعب الفلسطيني بوصفه كياناً سياسياً منفصلاً له حق في أن يقرر مستقبله، وهي خطوة كبيرة نحو دولة فلسطينية. وتحدد الاتفاقات أن الفلسطينيين يجب أن يشاركوا بوصفهم مساوين في مفاوضات أخرى، وأن الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة يجب أن يخضع "للتصويت من الممثلين المنتخبين من سكان الضفة الغربية وغزة".

الخريطة 4



إسرائيل
١٩٦٧ - ١٩٨٢
LEBANON
Damascus
Tyre
GOLAN HEIGHTS
Israeli occupied
SYRIA
Haifa
Sea of Galilee
Nazareth
Irbid
Jenin
Netanya
Mediterranean Sea
WEST BANK
Jordan River
Tel Aviv
Israeli occupied
Amman
N
W
E
S
Jerusalem
Gaza
Hebron
Dead Sea
GAZA STRIP
Port Said
Rafah
Beersheba
Al Karak
El Arish
Suez Canal
JORDAN
Ismailia
NEGEV
1975 Interim Agreement
April 1982
EGYPT
Israeli occupied
Suez
January
Eilat
Aqaba
S I N A I
Abu Rudays
Gulf of Suez
St. Catherine's Monastery
Gulf of Aqaba
SAUDI ARABIA
At Tur
Nabq
0 10 20 30 miles
0 20 40 kilometers
Sharm el Sheikh
Red Sea

وزيادة على ما تقدم، اعترفت الاتفاقات عموماً بأن الاستمرار في معاملة غير اليهود في الأراضي المحتلة، وكأنهم طبقة أدنى في المجتمع، هي معاملة مناقضة لمبادئ الأخلاق والعدالة التي تأسست عليها الديمقراطيات.

إضافة إلى ذلك، فإن إطار العمل الذي وضع من أجل اتفاقية سلام مصرية إسرائيلية قد وقع، وهو يدعو إلى انسحاب إسرائيل من سيناء مجردة من السلاح وإلى تفكيك المستوطنات الموجودة على أرض مصرية، وإلى علاقات دبلوماسية بين إسرائيل ومصر، وحدود مفتوحة للتبادل وللتجارة، ويضمن للسفن الإسرائيلية المرور عبر قناة السويس، ويدعو إلى معاهدة سلام دائمة لتوكيد هذه الاتفاقيات.

وقد أصر السادات دائماً على أن الأسبقية الأولى يجب أن تكون هي الالتزام بقرار الأمم المتحدة رقم 242 وحق تقرير المصير للفلسطينيين، وكان كل واحد مقتنعاً (ربما باستثناء بيغن) بأن هذه الحقوق كانت قد حميت في الوثيقة النهائية. وجميعنا (ومن جملتنا رئيس الوزراء) كنا واثقين أيضاً بأن الشروط النهائية للمعاهدة يمكن الوصول إلى استكمالها في غضون هدف زمني من ثلاثة أشهر. وعرف كل واحد أنه إذا بدأت إسرائيل ببناء مستوطنات جديدة، فإن الوعد بمنح الفلسطينيين "حكماً ذاتياً كاملاً"، مع صوت مساو أو نهائي في تقرير الوضع النهائي للأراضي المحتلة، سيكون قد خرق. وربما كان أخطر ما حدث من حذف في محادثات كامب ديفيد هو الإخفاق في توضيح وعد بيغن الشفهي توضيحاً كتابياً فيما يخص تجميد الاستيطان في أثناء محادثات السلام التالية.

كانت إحدى المنافع الشخصية لي من الأيام الطويلة من المفاوضات هي صداقة عمر مع عيزر وايزمان، الذي خدم وزيراً للدفاع في إسرائيل. فقد وجدت عيزر، أكثر من أي عضو آخر في فريق بيغن راغباً في الوصول إلى اتفاقية سلام شاملة، وكان شخصاً كنت أستطيع أن أناقش معه القضايا الحساسة جداً بصراحة وبثقة. وكانت له أيضاً علاقة شخصية جيدة مع المصريين وكان يذهب مراراً إلى مقصورة السادات من أجل إجراء مناقشات خاصة أو لعبة طاولة الزهر. وقد برهنت محادثات السلام هذه على أنها نوع ما من الظهور والتجلي بالنسبة إلى وايزمان، الذي كان عضواً سابقاً من فريق بيغن في منظمة أرغون من المقاتلين الصهاينة، وهو بطل مرموق في حرب الأيام الستة بوصفه مدير الضربات الصباحية المبكرة التي مزقت

القوات الجوية العربية، وهو مؤسس لحزب الليكود السياسي المحافظ. لقد كان "صقراً" قائداً طوال حياته ولكنه تحول في أثناء أسابيع المفاوضات إلى داع قوي للمصالحة مع العرب. ؟

احتفالنا باتفاقات كامب ديفيد لم يعش إلا لوقت قصير، نظراً إلى أننا تحملنا أسابيع من المفاوضات المتعبة والمحبطة لتنفيذ التزامنا في استكمال معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر. بعد ستة شهور من كامب ديفيد، قررت أن أذهب إلى القاهرة والقدس لأحاول أن أحل القضايا المتبقية، وكنا قادرين على الوصول إلى استكمال الشروط النهائية لاتفاقية محددة. وعلى الرغم من أن معاهدة السلام الحاسمة هذه لم يسبق أن خرقت قط، فإن أحكاماً أخرى مساوية في الأهمية من اتفاقيتنا لم تكن قد التزمت منذ غادرت منصب الرئاسة. فالإسرائيليون لم يمنحوا أي حكم ذاتي ذي قيمة ملحوظة أبداً للفلسطينيين، وبدلاً من سحب قواتهم العسكرية والسياسية، شدد الزعماء الإسرائيليون قبضتهم على الأراضي المحتلة.

وقاوم السادات تنديد رفاقه العرب، الذين فرضوا عقوبات دبلوماسية، واقتصادية، وتجارية قاسية ضد مصر وإن كانت في نهاية المطاف غير ناجحة، وذلك في محاولة لعزل السادات ومعاقبته. وإلى وقت كبير، وبعد أن غادرت المنصب العام بمدة طويلة، لم يكن الأردن ولا منظمة التحرير الفلسطينية راغبين في المشاركة في محادثات السلام اللاحقة مع إسرائيل. وهذا ما أكد مخاوف الإسرائيليين من أن وجود أمتهم سيكون مهدداً مرة أخرى حين يستطيع خصومهم أن يراكموا قوة كافية ليشنوا تحدياً عسكرياً.

وبالنسبة إلى مناحيم بيغن، كانت معاهدة السلام مع مصر هي العمل المهم لإسرائيل، في حين أن الوعود الجدية بخصوص الضفة الغربية والفلسطينيين ستخرق مداورة أو عن عمد. وبالمعاهدة الثنائية، أزاحت إسرائيل قوة مصر الكبيرة من المعادلة العسكرية في الشرق الأوسط، وهكذا سمحت لنفسها بحرية متجددة في متابعة غايات أقلية من مواطنيها شديدة الحماسة والالتزام بمصادرة الأراضي المحتلة واستيطانها وتحصينها. وتسبب نشاط الاستيطان الإسرائيلي حتى الآن في قلق كبير، وفي العام 1980، صدر بالإجماع قرار الأمم المتحدة رقم 465 (الملحق 5)،

وهو يدعو إسرائيل إلى أن تفكك مستوطناتها الموجودة في الأراضي العربية المحتلة منذ العام 1967، ومن ضمنها القدس الشرقية.

ونحن كلنا نعرف أن إسرائيل يجب أن تحظى بسلام شامل ودائم، وأن هذا الحلم كان يمكن أن يكون قد تحقق لو أن إسرائيل قد التزمت باتفاقات كامب ديفيد وأحجمت عن استعمار الضفة الغربية، مع قبول العرب بإسرائيل داخل حدودها القانونية.

الفصل الرابع

اللاعبون الرئيسون

الفلسطينيون:

من الضروري لفهم الظروف الحاضرة في الشرق الأوسط أن نلقي نظرة أقرب إلى الفلسطينيين والإسرائيليين. ونستطيع أن نبدأ بوصف وجيز عام للفلسطينيين، الذين يجب أن يكون وضعهم المستقبلي هو نقطة التركيز من أجل التقدم نحو السلام.

ما فلسطين؟ ومن هم الفلسطينيون؟ إن حدود هذه المنطقة المثيرة للنزاع، والتي تسمى أيضاً أرض كنعان أو الأرض المقدسة، لم يسبق لها أبداً أن حددت تحديداً حصرياً. واسم فلسطين اسم قديم، اشتق من اسم الفلسطينيين الذين عاشوا على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط وكانوا يعرفون أيضاً باسم شعب البحر. والكتاب المقدس لا يصور هؤلاء الناس بصورة جذابة جداً، لأنهم لم يكونوا يعبدون الله ولأنهم تنافسوا مع مؤلفي الكتاب المقدس وأبطاله في سبيل السيطرة على أجزاء من أرض كنعان. كانوا مقاتلين مرعبين وهم من بعض أقدم المستعملين للأسلحة الحديدية، وكانوا عادة قادرين على الانتصار على أعدائهم ومن جملتهم النبي داوود القوي نفسه. وبعد أن سحق الفاتحون الرومان الثورة اليهودية الثانية في العام 135 بعد الميلاد، انطلقوا في محو الحضور التاريخي اليهودي في الأرض. فغيروا اسم جيروسالم (القدس) إلى إليا كابيتولينا؟، وصارت اليهودية مقاطعة سوريا بلستينا، ولاحقاً صارت بلستينا فقط.. وحين صارت المسيحية هي دين الإمبراطورية الرومانية، أعيد إحياء اسم جيروسالم. واسم بلستينا، بعد أن ترجم إلى اللغة العربية باسم فلسطين، بقي حياً بعد الفتح العربي في القرن السابع، وساد هذا الاسم على رغم أن حدود المنطقة تذبذبت خلال القرون.

وحكم فلسطين سلسلة متتابعة من الأتراك، والأكراد، والصليبيين الأوروبيين إلى أن أدمجها العثمانيون الأتراك في إمبراطوريتهم في العام 1516. وفي الحرب

العالمية الأولى، كان العثمانيون الأتراك في الجانب الخاسر، وتولت فرنسا وبريطانيا العظمى مبدئياً السلطة على الأجزاء المختلفة من الشرق الأوسط. وخصّت عصبة الأمم بريطانيا العظمى بالإشراف على الانتداب على فلسطين، وهي التي نعرفها الآن باسم أراضي إسرائيل والضفة الغربية وغزة، والأردن. وبعد أن تم فصل الأردن عن الانتداب في العام 1922، صارت الأرض المتبقية الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط معروفة باسم فلسطين.

وعلى الرغم من أن المسيحيين والمسلمين العرب كانوا قد استمروا في العيش في هذه الأرض نفسها منذ الأزمنة الرومانية، فلم يكن لديهم التزام حقيقي لتأسيس أمة منفصلة مستقلة. وكان اهتمامهم بالأسرة وبالقبيلة، وبالنسبة إلى المسلمين، كان اهتمامهم بالعالم الأوسع للإسلام. أما الأفكار القوية عن الأمة القومية فلم تبدأ تأخذ شكلاً في صفوف العرب إلا حين رأوا فقط أعداداً متزايدة من الصهاينة تهاجر إلى فلسطين، وتشتري قطعاً من الأرض لإقامة البيوت الدائمة وغايتهم تأسيس أمتهم الخاصة بهم.

وفي العام 1947 وافقت الأمم المتحدة على خطة تقسيم فلسطين. وكان يجب أن تضم الدولة اليهودية 55 بالمائة من هذه الأرض (الخريطة 2) وأن تكون القدس وبيت لحم دوليّتين بوصفهما مكانين مقدسين، وكان يجب أن تشكل بقية الأرض دولة عربية. ووافقت الوكالة اليهودية (وهي مجموعة رسمية مثلت المجتمع اليهودي في فلسطين أمام الانتداب البريطاني) ووافق ممثلون آخرون صهاينة على الخطة، ولكن الزعماء العرب كانوا، بالإجماع تقريبا، معارضين. وحين أعلن اليهود استقلالهم بصفتهم أمة، هاجمهم العرب عسكرياً ولكن العرب هزموا. وصارت خطوط تحديد هدنة العام 1949 هي حدود أمة إسرائيل الجديدة وكانت مقبولة من إسرائيل ومن الولايات المتحدة، ومعترفاً بها من الأمم المتحدة اعترافاً رسمياً.

لقد أخذت إسرائيل 77 بالمائة من الأرض المتنازع عليها، وترك الفلسطينيون في منطقتين صغيرتين منفصلتين، عرفتا باسم الضفة الغربية (ألحقتها الأردن بها) وغزة (وأديرت من قبل مصر). واليهود الذين عاشوا داخل أمتهم الجديدة اتخذوا لهم اسم الإسرائيليين، في حين فضل المسيحيون والمسلمون العرب في الأرض المقدسة خارج إسرائيل أن يعرفوا باسم الفلسطينيين. وأوسع تعريف خاص بالفلسطينيين يشمل:

"كل أولئك الذين كانوا مقيمين على الأرض الفلسطينية قبل 14 أيار/مايو من العام 1948 ونسلهم [حين صارت إسرائيل دولة]".

حين قامت بريطانيا بعمل إحصاء في فلسطين في العام 1922، كان هناك ما يقارب 84.000 يهودي و670.000 عربي، كان منهم 71.000 مسيحي. ومع حلول الوقت الذي قسمت فيه الأمم المتحدة المساحة، كانت هذه الأعداد قد تزايدت إلى ما يقارب 600.000 يهودي و1.3 مليون من العرب، كان منهم 10 بالمائة من المسيحيين. وفي أثناء حرب العام 1948 وبعدها، فإن ما يصل إلى حوالي 420 قرية فلسطينية في الأرض التي صارت دولة إسرائيل، تم تدميرها وإن ما يصل إلى حوالي 700.000 مقيم فلسطيني هربوا أو طردوا.

واستمر الفلسطينيون وزعماء عرب أفراد في اعتراضاتهم العنيفة على التعديات الإسرائيلية المتزايدة على ما اعتبروه أراضيهم وحقوقهم. ومع ذلك، فإن أول اجتماع قمة للزعماء العرب لم ينعقد في مطلع العام 1964، ولم تتشكل منظمة التحرير الفلسطينية رسمياً، إلا بعد أن أعلنت إسرائيل خططها لتحويل المياه عن بحر الجليل (بحيرة طبرية) ونهر الأردن لري إسرائيل الغربية وصحراء النقب. وقدرت الأمم المتحدة أنه بحلول هذا الوقت كان هناك 1.3 مليون وثلاثة أعشار من المليون من اللاجئين الفلسطينيين، مع وجود ربعهم في الأردن، وحوالي 150.000 في كل من لبنان وسورية، ومعظم الفلسطينيين الآخرين كانوا في مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وغزة.

وفي شهر أيار/مايو من العام 1967، وبعد صدامات عسكرية بين سورية وإسرائيل، أغلقت مصر مضائق تيران وأمرت بإزالة قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة المرابطة على طول حدود إسرائيل ومصر. ووضعت دول عربية أخرى قواتها في حالة إنذار. وفي 5 حزيران/يونيو من العام 1967، شنت إسرائيل ضربات استباقية، متحركة أولاً ضد مصر وسورية، ثم ضد الأردن. وفي غضون ستة أيام كانت القوات العسكرية الإسرائيلية قد احتلت مرتفعات الجولان، وغزة، وسيناء، والقدس، والضفة الغربية.

ونتيجة لذلك النزاع فإن 320.000 عربي آخرين أجبروا على مغادرة المساحات الإضافية من سورية، ومصر، والأردن، وفلسطين التي احتلتها إسرائيل. وتم تبني عدد من قرارات الأمم المتحدة (مع مساندة الولايات المتحدة وموافقة إسرائيل)، التي

تعيد تأكيد عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة، وتدعو إلى انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلة، وتحض على وجوب إعادة اللاجئين، وهم أكثر حاجة واستحقاقا، إلى بيوتهم السابقة؟

بعد حرب العام 1967، أقر معظم الزعماء العرب بالوضع المتقدم لمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها تمثل الفلسطينيين وتشكلت شبه حكومة للتعامل مع مسائل مثل الرعاية، والتعليم، والإعلام، والصحة، والأمن. وفي العام 1969 وجدت منظمة التحرير الفلسطينية زعيماً قوياً في ياسر عرفات، وهو فلسطيني جيد التعليم كان رئيساً لفتح، وهي منظمة حرب عصابات. وبصفة عرفات رئيساً للمنظمة، فقد وجه الكثير من اهتمامه إلى جمع الأموال من أجل العناية باللاجئين ودعمهم والحفز على تقديم إسهامات في كل العالم لقضيتهم. وفي الوقت نفسه، كانت منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على تأسيس بعثات دبلوماسية في أكثر من مائة من البلدان واستخدمت وضعها بصفة مراقب في الأمم المتحدة لتصير واحداً من أقوى الأصوات في المجالس الدولية. ولكن هجمات منظمة التحرير الفلسطينية المتواصلة على الإسرائيليين استمرت، في داخل الأراضي المحتلة ومن الدول العربية المجاورة معاً.

وكان الرحيل التالي للفلسطينيين من الأردن في العام 1970، وهو نتيجة حرب أهلية بين قوة قوية من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية الذين كانوا قد استقروا في الأردن وبين القوات النظامية للملك حسين. وحين سيطرت قوات الملك، تحرك فيضان جديد من اللاجئين من الأردن إلى لبنان، الذي كان للفلسطينيين وبلداً مضيفاً ليس قوياً قوة كافية للفظهم، وكانت منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على أن تشكل فيه منظمة حكومية لا بل قوة عسكرية مستقلة. وفي الكثير من لبنان، كما كانت الحال في الأردن، صارت منظمة التحرير الفلسطينية في الحال قوية قوة كافية لتتحدى سيادة الحكومة المضيفة نفسها، وشنت قوات منظمة التحرير الفلسطينية هجمات متكررة عبر الحدود ضد إسرائيل.

غارات حرب العصابات هذه جلبت رداً ثأرياً إسرائيلياً سريعاً. وقع معظمه على المدنيين اللبنانيين، الذين سخطوا سخطاً متزايداً على ضيوفهم المزعجين. وصار البلد متورطاً في نزاع مدني، وتحركت قوات سورية إلى داخل لبنان لتستعيد النظام في شهر حزيران/يونيو من العام 1976 (وهو العام الذي انتخبت فيه رئيساً)، وتصوغ

اتفاقية لتحديد مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية في مواقع معينة لتحديد هجمات حرب العصابات من جنوب لبنان إلى داخل إسرائيل.

الخريطة 5



لقد وجدت فلسطينيين في الضفة الغربية وغزة يركزون على مشكلاتهم الشخصية تحت الاحتلال الإسرائيلي، ولكن هناك تنوعاً من الاهتمامات في صفوف الزعماء الفلسطينيين في البلدان الأخرى. وكانت مواقفهم والتزاماتهم قد تشكلت نتيجة لأحداث سابقة تؤثر على حياتهم الخاصة، وقلة منهم لها في هذه الأيام أي اتصال مباشر مع اليهود أو العرب من الذين مازالوا يعيشون في فلسطين. لقد طردوا في العام 1948 وفي العام 1967 مما مازالوا يعتبرونها بيوتهم، وكثيرون ممن قابلتهم ادعوا الحق باستخدام أي وسائل تحت تصرفهم، ومن جملتها الكفاح المسلح، لاستعادة حقوقهم الضائعة.

حين قابلت ياسر عرفات في العام 1990، صرح: "إن منظمة التحرير الفلسطينية لم يسبق لها أبداً أن دعت إلى إفناء إسرائيل. الصهاينة هم الذين بدؤوا شعار "رمي اليهود إلى البحر" ونسبوه إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وفي العام 1969 قلنا نحن نريد أن نؤسس دولة ديمقراطية يستطيع اليهود، والمسيحيون، والمسلمون كلهم أن يعيشوا فيها معاً. وقال الصهاينة إنهم لا يختارون أن يعيشوا مع أي شعب غير اليهود... وقلنا نحن للصهاينة اليهود، طيب، إذا كنتم لا تريدون دولة علمانية ديمقراطية لنا جميعنا، فنحن، إذاً، سوف نسلك طريقاً آخر. وفي العام 1974 قلت أنا: نحن جاهزون لتأسيس دولتنا المستقلة في أي جزء ستنسحب منه إسرائيل. وكما هو الحال مع الإسرائيليين، هناك العديد من الاختلافات بين الأصوات الصادرة من منظمة التحرير الفلسطينية، ويفسر المستمعون الكلمات لتناسب غاياتهم الخاصة".

وحين سألت عرفات عن أغراض منظمة التحرير الفلسطينية، بدا متفاجئاً نوعاً ما من أنني كنت محتاجاً إلى أن أسأل مثل هذا السؤال. وأعطاني كراسة نصت على أن: "منظمة التحرير الفلسطينية هي حركة الشعب الفلسطيني للتحرر الوطني. وهي التعبير المؤسسي عن الوطنية الفلسطينية... ومنظمة التحرير الفلسطينية هي بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني ما كانت عليه حركات التحرير الوطني الأخرى للأمم الأخرى. إنها وسيلتهم إلى إعادة التوكيد والتشديد على هوية وطنية حرموا منها، ولاستعادة تاريخ مطموس، ولحماية التراث الشعبي، ولإعادة بناء المؤسسات المدمرة، ولصون الوحدة الوطنية المهددة من التشتت المادي، وللكفاح من أجل أرض الوطن المغتصب والحقوق الوطنية التي جحدت. وباختصار، إن منظمة التحرير

الوطنية هي مسعى الشعب الفلسطيني لبعث وجودهم الوطني". ومن المثير للاهتمام كم مرة تظهر كلمة "وطني" في هذا النص القصير.

ومنظمة التحرير الفلسطينية منظمة مظلة ترتبط ارتباطاً فضفاضاً وترتبط معاً بهدف مشترك، ولكنها تضم مجموعات عديدة ترغب باستخدام وسائل متنوعة للوصول إلى غاياتها. وقد اعترفت كل الحكومات العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية رسمياً بوصفها "الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، في كل من الوطن [في فلسطين] وفي الشتات [في الأمم الأخرى]". وتلعب المنظمة دوراً قوياً في الأمم المتحدة وتعتبر العديد من قرارات الأمم المتحدة الصادرة في مساندة الفلسطينيين على أنها دليل على فعالية الفلسطينيين وعلى الحق في قضيتهم؟.

ويبدو أن مكانة الفلسطينيين السياسية وتأثيرهم يتزايدان بنسبة تتناسب عكسياً مع هزائمهم العسكرية. فبعد فقدان المنظمة لجهودها في استخدام الأردن قاعدة للعمليات ضد إسرائيل في العامين 1970 71، رجعت بوصفها القائد الحصري للشعب الفلسطيني، مع قاعدة قوية للعمليات في لبنان. وبعد أن أبعدت كامب ديفيد ومعاهدة السلام الإسرائيلية المصرية مصر بوصفها مسانداً كبيراً، بدت منظمة التحرير الفلسطينية وهي تكتسب حياة جديدة حين جدد العرب الآخرون الغاضبون التزامهم بالقضية.

الإسرائيليون:

يجب على المرء أن يدرس خبرة الماضي اليهودية. فاليهود قد عانوا طوال قرون ألم الشتات والاضطهاد المستمر في كل أمة تقريباً أقاموا فيها. وعلى الرغم من انجازاتهم الملحوظة في كل نواحي المجتمع، فإن كثيرين من اليهود قتلوا وكثيرين آخرين طردوا من مكان إلى مكان على أيدي الحكام المسيحيين. وعلى الرغم من أن كلاً من اليهود والنصارى لم يمنحوا الحقوق ذاتها مثل المسلمين، فإنهم تقدموا في الغالب على نحو أفضل من تقدم غير المسيحيين في العالم المسيحي، وذلك لأن النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) أمر أتباعه بالاعتراف بالأصول المشتركة لإيمانهم من خلال إبراهيم (عليه السلام)، وباحترام أنبيائهم، وبحماية مؤمنيهم. وكان الزعماء المسلمون يفضلون اليهود على النصارى لأنهم رأوا اليهود أقل تنافساً

في توسيع تأثيرهم السياسي والديني. وقد طرح الرئيس أنور السادات هذه النقاط مراراً في أثناء قيامه بالتفاوض مع رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن ومعي في كامب ديفيد.

وصارت القومية قوة قوية في أوروبة في القرن التاسع عشر، وأثرت على اليهود الذين كانوا يعيشون هناك لينشئوا الحركة الصهيونية. وفي أوروبة الغربية، تعرضت الهوية الفريدة للسكان اليهود للتهديد عن طريق استيعابهم في المسيحية وفي المجتمع العلماني. ولكن ثلاثة أرباع اليهود تقريباً كانوا يعيشون في أوروبة الشرقية، حيث استمر الاضطهاد، وأوروبة الشرقية هي المكان الذي تغذت فيه بذور الصهيونية. وعلى الرغم من أن أكثرية من المهاجرين اليهود ذهبت إلى الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن طلبات متزايدة كانت تسمع من أجل إنشاء دولة يهودية ـ وذلك لأمرين: للهرب من القمع وللوفاء بتفسير نبوءات تخص الكتاب المقدس.

وعلى الرغم من أن البيانات الدقيقة ليست متوفرة، يقدر أنه في العام 1880 لم يكن هناك إلا 30.000 يهودي فقط في فلسطين، مبعثرين بين 600.000 مسلم ومسيحي من العرب. ومع حلول العام 1930 نمت أعداد اليهود إلى أكثر من 150.000 نسمة.

وحارب العرب في فلسطين حرباً سياسية وعسكرية ضد هؤلاء المستوطنين الجدد، ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق إلا على القليل غير ذلك. وبددوا قوتهم وتأثيرهم في النزاع بين أنفسهم. وحاول البريطانيون، الذين خلفوا العثمانيين الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى بصفتهم حكاماً لفلسطين، أن يحتووا النزاعات الدموية عن طريق تحديد هجرة اليهود إلى الأرض المقدسة، وذلك على الرغم من النداءات اليائسة من أولئك الذين كانوا يواجهون تهديدات متزايدة وسوء معاملة عرقية. ثم جاء بعدئذ وعي العالم برعب المحرقة، وبالحاجة إلى الاعتراف بالحركة الصهيونية وبدولة إسرائيلية.

وكان هناك المزيد من موجات الهجرة اليهودية وغير اليهودية إلى فلسطين، وكما أوضحت البيانات الرسمية البريطانية: زاد السكان العرب من 760.000 نسمة في العام 1931 إلى 1.237.000 نسمة في العام 1945، ومعظمهم جذبته الفرصة

الاقتصادية، في حين زاد عدد اليهود في الفترة نفسها إلى 608.000 نسمة، وذلك بشكل رئيسي بسبب الاضطهاد في أوروبة.

انسحبت القوات البريطانية في شهر أيار/مايو من العام 1948، وأعلنت إسرائيل نفسها دولة مستقلة، واعترف بها فوراً تقريباً الرئيس هاري ترومان نيابة عن الولايات المتحدة. وعند تلك النقطة انضمت قوات عربية من مصر، ولبنان، وسورية، وشرقي الأردن، والعراق إلى الفلسطينيين في مهاجمة إسرائيل، ولكن قوات العرب الوطنية المنفصلة لم تكن منسقة تنسيقاً جيداً وكان هناك بعض الشكوك حول أهدافهم المحددة. وكان الإسرائيليون، على النقيض من ذلك، متماسكين، ومسلحين تسليحاً أفضل، وتحت قيادة أكفأ، ومحفزين تحفيزاً عالياً نظراً إلى أنهم كانوا يقاتلون عن حياتهم وعن أمتهم الجديدة. وانتهت الحرب في العام 1949 باتفاقيات هدنة موقعة بين إسرائيل والبلدان المحاذية لها، مستندة إلى قبول إسرائيل لفلسطين مقسمة (77 بالمائة إسرائيلي، و23 بالمائة عربي) وافتراض أن الأردن سوف يسيطر على ما يعرف الآن باسم القدس الشرقية والضفة الغربية. ولم يعط أي اهتمام جدي من الزعماء العرب أو من المجتمع الدولي لتأسيس دولة فلسطينية منفصلة في الوقت الذي كان وطن هذا الشعب القديم يقسم بين الأردن، وإسرائيل، ومصر.

وتسببت حالة الحرب المستمرة بين إسرائيل وجيرانها في هرب الكثيرين من اليهود من سورية، والعراق، ومن البلدان العربية الأخرى، في الوقت الذي تفرق الفلسطينيون تفرقاً أكثر اتساعاً. ومن جميع الجهات، قام الفلسطينيون وقوات من البلدان المضيفة لهم أحياناً بشن هجمات متفرقة ولكنها متواصلة على الإسرائيليين، الذين ردوا بغارات ثأرية. والحرب الكبيرة المحدِّدة كانت هي التي وقعت في العام 1967. فقد انتصرت إسرائيل بعد ستة أيام فقط من القتال واحتلت أراضي من مصر وسورية وأجزاء من فلسطين كانت تسيطر عليها الأردن.

وبحكم الضرورة، حافظت إسرائيل على قوة عسكرية هي واحدة من أقوى القوى العسكرية في العالم ونجحت في السيطرة على خصومها، ولكن ما من حرب من الحروب العديدة قد حل أي واحد من الأسباب الأساسية للنزاع. ووفقاً للأرقام الإسرائيلية الرسمية فإن حوالي 22.000 إسرائيلي قد ماتوا في المواجهات

العسكرية منذ أن تأسست الأمة. وفي أثناء معظم الاشتباكات، كان عدد الإصابات العربية أكثر بثلاثة أضعاف أو بأربعة أضعاف من الإصابات الإسرائيلية. وإضافة إلى ذلك، فإن أعداداً كبيرة من المسيحيين والمسلمين العرب إما أنهم قد طردوا إلى المنفى أو أنهم وضعوا تحت الحكم العسكري في كل مرة احتلت فيها إسرائيل المزيد من الأرض العربية واحتفظت بها. وهذا ما قوى شدة الخوف، والبغضاء، والاغتراب في الجانبين معاً، وجعل المصالحة النهائية أعسر وهي المصالحة التي يجب أن تأتي قبل أن يستطيع السلام، والعدالة، والأمن أن يسود في المنطقة.

حين أقوم أنا بالسفر في الشرق الأوسط، فإن الانطباع الواحد المستمر هو الاختلاف في المشاركة الشعبية في تشكيل السياسات الوطنية. فمن غير المثمر تقريباً أن تنشد التعابير الحرة عن الرأي من المواطنين الآحاد في البلدان العربية التي تخضع لقيادة أكثر توكيداً للسلطة الفردية، ولا في صفوف قادة رجال الأعمال، والصحفيين، والعلماء في الجامعات. في صفوف الإسرائيليين فقط، في ديمقراطية تتمتع بحرية على التعبير غير مقيدة تقريباً، يستطيع المرء أن يسمع سلسلة واسعة من الآراء المتصلة بالنزاعات بينهم هم أنفسهم ومع الفلسطينيين، ومع العرب الآخرين وفي الغالب مع الرؤساء السابقين والضيوف المتميزين الآخرين.

حين قمت بزيارة رئاسية إلى إسرائيل في شهر آذار/مارس من العام1979، دعيت إلى مخاطبة الكنيست (البرلمان). وقد صدمت من درجة الحرية المسموح بها لأعضاء البرلمان في محاوراتهم الساخنة. وعلى الرغم من أني كنت قادراً على الانتهاء من ملاحظاتي مع مقاطعات قليلة فقط، فقد كان من المستحيل تقريباً لرئيس الوزراء بيغن أو للآخرين أن يتحدثوا. وبدلاً من أن يكون بيغن محرجاً من المقاطعات المستمرة والتي وصلت إلى حد الإبعاد الفعلي لعضو مسيء على نحو خاص من الحجرة، فإن بيغن بدا مستمتعاً بالقتال اللفظي وعبّر عن اعتزازه بالمناقشات غير المقيدة. وفي أثناء محاورة ساخنة اتسمت بالقدح، مال إلى نحوي وقال لي باعتزاز: "هذه هي الديمقراطية وهي في القتال".

وباستثناء الرقابة العسكرية المفرطة أحياناً، فإن حرية التعبير هذه تسود في الأخبار في وسائل الإعلام، وفي المناقشات الخاصة في إسرائيل توجد رغبة ملحوظة

في استكشاف كل مظهر من الحياة السياسية المحلية والدولية. وفي صفوف بعض العرب الإسرائيليين فقط يوجد تردد واضح في التحدث بحرية.

وعلى الرغم من وجود اختلافات مهمة بين الزعماء السياسيين المعارضين في الحوارات الإسرائيلية، فإن الاختلافات تتناقص في الأهمية حين تكون مسائل أمن إسرائيل موضع الاهتمام. وحينئذ يتوحد السكان معاً. إن الدِّين العام، والتاريخ المشترك، وذكريات المعاناة الرهيبة تضمهم معاً في قوة وتماسك ليس لها مثيل في الشرق الأوسط أو ربما في أي مكان في العالم.

والمفتاح لمستقبل إسرائيل لن يوجد خارج البلد ولكن داخلها. وليس من المحتمل أن تستطيع أي قوات عربية مشتركة أو التأثير القوي للولايات المتحدة، في الواقع، أن يفرض القرارات على إسرائيل بخصوص القدس الشرقية، أو الضفة الغربية، أو حقوق الفلسطينيين، أو الأراضي المحتلة من سورية. إن هذه الأحكام سوف تصنع في القدس، ومن خلال عمليات ديمقراطية تشمل كل الإسرائيليين الذين يستطيعون التعبير عن آرائهم وينتخبون زعماءهم. ويجري الآن مناقشة القضايا الحرجة هناك مناقشة أكثر عنفاً من أي مكان آخر في العالم الخارجي، ولم يتم اتخاذ قرار نهائي. ونتيجة هذه المناقشة سوف تشكل مستقبل إسرائيل، وقد تقرر الفرص أيضا من أجل سلام في الشرق الأوسط وربما في العالم.

الفصل الخامس

جيران آخرون

باستثناء اتصالات مصر مع الفلسطينيين، فإن الأمم العربية المحيطة بإسرائيل لا تلعب الآن دوراً بناء في أي عملية سلام محتملة، ولكن تأثير العرب التراكمي سيكون حيوياً في المساعدة على استكمال تحقيق اتفاقية يمكن قبولها وفي طمأنة الإسرائيليين المتشككين في أن مثل هذا السلام يمكن أن يكون سلاماً يعتمد عليه ودائماً. وسيكون من المساعد أن نلخص المشاركة في الماضي وتقويمات زعماء سورية، والأردن، ومصر، ولبنان، والمملكة العربية السعودية بخصوص مشاركاتهم الممكنة في الحلول المحتملة. وقد قمت أنا بزيارة هذه البلدان بقدر ما أمكن من المرات المتكررة ورتبت للمزيد من الاجتماعات الإضافية مع زعمائها إما في الولايات المتحدة أو في مكان آخر.

سورية:

لقد تخلت إسرائيل عن سيطرتها على الأجزاء المحتلة سابقاً من مصر وعن كل ما كان للبنان تقريباً ولكنها ما تزال تحتل منطقة من سورية تضم مرتفعات الجولان. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن "مرتفعات الجولان" حين أدخلت في غوغل، كان واحداً من ردود الفعل الأولى هو دعوة موجهة إلى السياح الدوليين للمجيء إلى المرتفعات وزيارة المستوطنين الإسرائيليين الذين يسكنون هناك. وقد زرت هذه الهضبة العالية لأول مرة في العام 1973 ورجعت إلى المنطقة العامة مرات عديدة في رحلات قمت بها إلى إسرائيل، وإلى الأردن، وإلى سورية. لقد استولت إسرائيل على المرتفعات من سورية في حرب الأيام الستة في العام 1967، وفي العام 1981 سنت إسرائيل قانوناً يتضمن على ما يبدو فرض اختصاص إسرائيل القضائي الدائم على المنطقة. وهذا مصدر إزعاج شديد للغاية في دمشق وتسبب في أن يكون الزعماء السوريون في مقدمة العرب الذين قاوموا التسوية مع إسرائيل في أي قضية أخرى.

حين صرت رئيساً، كانت واحدة من غاياتي الأولى هي إقناع الرئيس السوري حافظ الأسد أن يغير هذه السياسة السلبية ويتعاون معي في بذل جهد شامل للسلام. وكان المعروف عن حياته الشخصية أو الأسرية قليلاً، ولكن وزير الخارجية السابق هنري كيسنغر وآخرين من الذين سبق أن عرفوه وصفوه لي بأنه ذكي جداً، وفصيح، وصريح في مناقشة أكثر القضايا حساسية. ودعوت الزعيم السوري للمجيء لرؤيتي في واشنطون، ولكنه رد بأنه لم يكن لديه أي رغبة في وقت من الأوقات لزيارة الولايات المتحدة. وعلى الرغم من هذا الصد الحازم ولكن المؤدب، علمت عنه وعن أمته كل ما استطعت قبل مقابلته.

وكان إخفاق الدول العربية في تدمير دولة إسرائيل الجديدة في العام 1949 قد أثار موجة من النقد الذاتي في صفوف الدول العربية وفيما بينها، وفي العام 1958 أدى بحث الدول العربية عن مدخل جديد إلى قيام اتحاد بين سورية ومصر لتشكل الجمهورية العربية المتحدة. وبعد ثلاث سنوات ونصف كان من الواضح أن مصر جمال عبد الناصر كانت تسيطر على الأمة الجديدة، وقام الزعماء السوريون المستاؤون بحل الاتحاد. وبصفته وزيراً للدفاع وجه حافظ الأسد والقادة العسكريون الآخرون اللوم إلى السياسيين عن الهزيمة المذلة في حرب العام 1967، ورفض الأسد بعد ذلك أن يطيع أوامر رئيسه في العام 1970 لمساندة المقاتلين الفلسطينيين الذين كانوا يقاتلون في الأردن ضد الملك حسين. وحين أدين بسبب عمله هذا، استولى على السلطة في انقلاب بلا دماء.

وكان للأسد سمعة اشتهر فيها بالحزم نحو أي شخص يقاوم سلطته وكان متحمساً في حماية منطقته من التدخل الخارجي وفي توسيع دور سورية بصفتها قوة مسيطرة في قضايا الشرق الأوسط. وكان مستعداً لمواجهة مجابهات سياسية وعسكرية جدية بدلاً من الاستسلام في هذا المبدأ.

تقابلنا لأول مرة في سويسرا في شهر حزيران/يونيو من العام 1977، وقد وجدت الأسد مثلما وصف لي - وهو إلى أقصى درجة أفصح زعيم في التعبير عن أساس معتقدات العرب بخصوص إسرائيل وفرص السلام. وبدا لي في البداية متعجرفاً ولكنه مهتم بجهودي لترتيب مفاوضات السلام. وأصر على أن محادثات السلام كان يجب أن تراعي قراري الأمم المتحدة رقم 242 و338 (الملحقان 1، 2) ويجب أن

تضم السوفيت، واعترض بقوة على المناقشات الثنائية بين إسرائيل وأي دولة عربية أخرى وعلى استبعاد الاتحاد السوفيتي. لقد اعتمدت سورية اعتماداً كثيفاً على العون السوفيتي، ولكن الأسد لم يكن دمية تابعاً، وكنت آمل في أنه قد يظهر استقلاله بالعمل معي للتغلب على بعض العقبات التي واجهناها. وكانت خططي من أجل محادثات السلام في ذلك الوقت مستندة إلى قراري الأمم المتحدة نفسيهما اللذين أكدهما.

ولكي نفهم المواقف التي ما زالت مسيطرة في العالم العربي، ومن جملتها في الواقع أكثر وجهات النظر اعتدالاً في مصر، والأردن، ولبنان، فإن من المفيد تلخيص آراء الأسد المتحمسة، والتي نادراً ما تسمع في العالم الغربي. وكنا روزالين وأنا، بالإضافة إلى المترجمين الرسميين، قد احتفظنا بملاحظات حريصة عن محادثاتنا.

أكد لي الأسد أن إسرائيل كانت قد أدخلت إلى الأمم المتحدة في العام 1949 بشرط واضح وهو أن اللاجئين الفلسطينيين سيسمح لهم بالعودة إلى أرض وطنهم أو أن يعوضوا تعويضاً كاملاً عن ممتلكاتهم المفقودة. وقال لي، إن إسرائيل، قبل العام 1967، كانت تقوم بشكل مضطرد بإجبار المزيد من السكان العرب على ترك القليل المتبقي لهم من أرضهم في خرق لاتفاقيات الأمم المتحدة التي كانت إسرائيل قد أقسمت على احترامها، وادعى أن الإسرائيليين هم الذين بدؤوا بحرب 1967 كي يأخذوا المزيد من الأرض العربية فعلاً.

واقتبس الأسد من الزعماء الإسرائيليين الرئيسيين الذين أعلنوا أن هذا كان مجرد خطوة متوسطة نحو "إسرائيل الكبرى" في نهاية المطاف، وقال الأسد، إن كل عمل منذ ذلك الوقت قد بين عملياً التزاماتهم التوسعية. وكان الأسد مقتنعاً أن الإسرائيليين لم يريدوا السلام وكانوا سيحبطون المفاوضات دائماً في الوقت الذي كانوا يتوسعون جغرافياً. وأكد أنه ما من زعيم عربي، وهي قضية مبدأ، يستطيع أن يوافق مطلقاً على أي مد للحدود القانونية لإسرائيل بغض النظر عن مقدار ما لديه من رغبة عظيمة في السلام.

حاولت أن أقنع الأسد أن الإسرائيليين كانوا جاهزين للسلام إذا كان الزعماء العرب مستعدين للتفاوض معهم مباشرة وبحسن نية. ووصفت الالتزام الكاسح من

الإسرائيليين بأمن أمتهم الصغيرة وحاجتهم إلى أن يكونوا مقبولين بصفتهم كياناً دائماً في المنطقة. وأشار الأسد إلى أن الضفة الغربية شكلت 22 بالمائة فقط من الانتداب البريطاني، وحوالي ربع ما حصل عليه الإسرائيليون، وأدان توسعهم في مرتفعات الجولان السورية.

"إنه لغريب أن يصروا على تأمين حدودهم على أرض شعب آخر. لماذا يجب أن تكون حدودهم الآمنة في الساحة الخلفية لدمشق ولكن بعيداً نوعاً ما عن تل أبيب؟"

وأضاف، وكأن ذلك تقريباً فكرة مستدركة، "ونحن طوال الوقت نتحدث عن الدين. وإذا أخذت منا القدس، فسنكون، نحن المسلمين، بلا روح. فليس من المتصور أننا سنكون مطالبين بصخب بالعودة إلى حدود العام 1967 ونستثني القدس فقط".

وسألته: "هل سيجعل الأمر أسهل إلى حد ما إذا عملنا استثناءات أخرى كذلك؟"

ضحك مع مستشارينا حول طاولة المؤتمر. وأجاب: "إذا أصر الإسرائيليون على الاحتفاظ بالقدس الشرقية. فإن هذا يظهر أنهم لا يريدون السلام، وذلك لأننا متعلقون بها مثلهم".

وأجبت: إن المسيحيين الآخرين وأنا كنا ملتزمين التزاماً عميقاً بالقدس وكنا نأمل أن جميع المؤمنين سيكون لهم حق الوصول من دون عائق إلى الأماكن المقدسة والحق بالعبادة هناك من دون تقييد. وقبل أن نؤجل اجتماعنا، وعد الأسد بأن يدلي ببعض التصريحات الإيجابية حول جهود السلام، مضيفاً أنه قبل سنة أو سنتين كان الحديث عن السلام مع الإسرائيليين سيعني الانتحار السياسي في سورية.

وسألته لماذا لم تعترف سورية أبداً بلبنان بوصفه دولة منفصلة ومستقلة وبدت كأنها اعتبرته جزءاً من سورية. وأنكر الأسد أي مخططات على جاره الغربي، مصراً على أنه هو وشعبه اعترفوا باستقلال لبنان من دون لبس. وادعى أنه كان يفضل لبناناً حراً ومستقلاً، وتعهد بأن يسحب قواته "حين يطلب منه فعل ذلك من

الجامعة العربية والحكومة اللبنانية"، ولكن بدا واضحاً أنه لم يتوقع أبداً لهذا الطلب أن يطلب.

وشكا الأسد من أن الإسرائيليين يعتبرون أن من حق كل يهودي في العالم، محتاجاً أو غير محتاج، أن يستوطن في الأراضي العربية التي يسيطرون عليها بالقوة في حين يرفضون السماح لعرب بلا بيوت ويعانون وطردوا من بلدهم بالعودة إلى البيوت والأراضي التي مازالوا يملكون حجج التمليك القانونية فيها. وحاجّ بأن إسرائيل، في الوقت الذي ادعت فيه الحق بكيان دولتها في فلسطين في العام 1948 لأنها كانت تعيد فقط إنشاء أمة دمرت في الأزمنة الماضية، رفضت الاعتراف بدولة فلسطينية في المساحة نفسها والمكان نفسه الذي عاشت فيه أجيال من الفلسطينيين، من المسيحيين أو المسلمين وسكنتها طوال آلاف السنين سكنى متصلة، وأضاف، وزيادة على ما تقدم، فما من أمة أخرى على الأرض، ومن جملتها الولايات المتحدة، تعترف بمزاعم إسرائيل الحالية في الأراضي التي صادرتها منذ العام 1949.

وقال الزعيم السوري أيضاً إن الإسرائيليين شددوا على أن يهود العالم يشكلون شعباً واحداً، بغض النظر عن الاختلافات الواضحة في هوياتهم، ولغاتهم، وأعرافهم، ومواطنيتهم، ولكنهم ينكرون أن الفلسطينيين يشكلون شعباً متماسكاً مع أن الفلسطينيين يمتلكون هوية وطنية واحدة، ولغة واحدة، وثقافة واحدة، وتاريخاً واحداً. إن كثيرين من العرب يعتبرون هذه التمايزات شكلاً من العنصرية ينظر بها الإسرائيليون إلى الفلسطينيين بوصفهم أقل من الإسرائيليين ولا يستحقون حقوق الإنسان الأساسية، ويصمونهم في الغالب بصفة الإرهابيين إذا قاوموا تعديات إسرائيل. وهزئ من زعم إسرائيل بأنها ديمقراطية حقيقة، مؤكداً أن مساواتها السياسية والاجتماعية هي فقط لليهود.

وبشأن البحث عن السلام، حاجّ الأسد بأن الإسرائيليين يخلقون، من أجل ضمان أمن أنفسهم، أعذاراً للتوسع، ولاحتلال أراضي جديدة، ولبناء مراكز عسكرية متقدمة دائمة، وتتطور هذه المراكز لتصير مستوطنات مدنية. وقال، ومرتفعات الجولان في ذهنه كما هو واضح: إن الإسرائيليين بعدئذ يخلقون الظروف

للدفاع عن المستوطنات الجديدة بالمزيد من التوسع، وبالقوات العسكرية المعززة القوة، وإجلاء السكان العرب.

وزعم أن خسارة الأرواح العربية، هي خسارة غير مهمة نسبياً عند اليهود وعند مسانديهم الأمريكيين، الذين يربطون كل الفلسطينيين بالإرهاب في محاولة لتبرير هذا الموقف العنصري. إن التفسير لمثل هذه السياسة المشتركة هو طموح أمريكي إسرائيلي للهيمنة على الشرق الأوسط على حساب شعبه المحلي، الذي يريد الحرية فقط والحق في أن يعيش بشكل سلمي في أوطانه الخاصة. وشرح الأسد أن الولايات المتحدة وإسرائيل، برفضهما لمناقشة السلام مباشرة مع الفلسطينيين فإنهما يمنعان المفاوضات، إلا حين يُفردان مجموعة عربية في كل مرة ويغريانها بالتهديدات أو بالمداهنات الاقتصادية لتعمل مع إسرائيل والولايات المتحدة فقط.

وتابع الأسد: إن سورية قد برهنت على استعدادها للعمل من أجل السلام بالطرق التالية التي لم تتم المشاركة فيها لا من إسرائيل ولا من الولايات المتحدة:

- باحترام كل قرارات الأمم المتحدة المتصلة بالنزاع العربي الإسرائيلي،
- وبمساندة القرار الدولي الكاسح بأن الفلسطينيين شعب يملك، مثل الآخرين على الأرض، حقاً في تقرير المصير،
- وبمراعاة القوانين الدولية التي تحرم الاحتلال وإلحاق الأراضي التي تخص الآخرين،
- وبتحديد حدودها الخاصة واحترام الحدود المعترف بها دولياً للآخرين،
- وبعرض انسحاب قوات سورية من لبنان حين يطلب منها ذلك من الحكومة اللبنانية.

وعلى الرغم من أن الأسد لم يعط أي إشارة عن كونه مستعداً للتخلي عن أي من أهدافه الطويلة الأمد، فقد رجعت من مقابلتنا الأولى مقتنعاً بأنه قد يكون مستقلاً ومرناً بما فيه الكفاية ليعدل تكتيكاته السياسية لتتلاءم مع الأزمنة والظروف المتغيرة. لا بل إنه في مرارته نحو إسرائيل استبقى فكاهة ساخرة عن

آرائهم المتضاربة، وهو يستمد الصبر على ما يبدو من اعتقاد بأن التاريخ، مثلما حدث في أثناء الحروب الصليبية، سوف يتكرر في نصر عربي نهائي.

في أثناء رحلات تالية إلى سورية، قضيت ساعات أتحاور مع الأسد وأستمع إلى تحليلاته للأحداث في الشرق الأوسط. لقد كان غاضباً للغاية حين أخبره السادات لأول مرة عن زيارته التي خطط للقيام بها إلى القدس، ولم يغفر له أبداً "خيانته" للقضية العربية. لقد رأى أن السادات قد أغرته إسرائيل للدخول إلى عمل أحادي الجانب كان سيعيد إلى مصر أراضيها على حساب العرب الآخرين. لقد فعل السوريون كل شيء ممكن لمنع المحادثات المباشرة بين إسرائيل ومصر أو أي جار آخر من جيرانها ثم قادوا بعد ذلك جهوداً لعزل مصر ولمقاطعتها. لا بل إن الموت لم يغفر للسادات. وقد امتلأت شوارع دمشق بالجماهير المتهللة بالفرح حين أعلن اغتياله.

لام الأسد السادات ومعاهدة السلام مع إسرائيل بسبب الهجمات التالية على لبنان. ورأى أن الإسرائيليين ما كانوا ليقدموا على المخاطرة بالقيام بالثأر المنسق ضد منظمة التحرير الفلسطينية لو أن مصر كانت حرة لتنضم بقواتها إلى العرب الآخرين. وكان بيننا مناقشات متبادلة ساخنة. وكنت أذكر الأسد أن مصر قد استرجعت أرضها وأن شعبها كان يعيش بسلام. واقتبست مقاطع من اتفاقات كامب ديفيد لأبرهن على أن إطار العمل يأمر بالانسحاب من طرف إسرائيل من الأراضي المحتلة، وبتقرير المصير للفلسطينيين، وبحل سلمي للاختلافات البارزة بين إسرائيل وجيرانها العرب الآخرين.

وبعد أحد الاجتماعات الطويلة، وقف الأسد في مكتبه أمام رسم ضخم يصور معركة حطين في العام 1187. في ذلك الاشتباك التاريخي، هزم القائد المسلم صلاح الدين الغزاة الصليبيين، وأسقط مملكة القدس الصليبية. وكان العرب هم المنتصرين على الغرب. وحين كان الأسد يناقش الحملات الصليبية والصراعات الأخرى من أجل الأرض المقدسة، بدا لي أنه يتكلم مثل "صلاح دين" حديث، وكأنما كان واجبه أن يخلص المنطقة من الحضور الأجنبي في الوقت الذي يحفظ فيه دمشق بصفتها نقطة التركيز للوحدة العربية الحديثة.

حين اجتمعت مع حافظ الأسد للمرة الأخيرة في العام 1999، في جنازة الملك حسين، كان قد امتلك نجاحات مختلطة. كانت القوات الإسرائيلية قد خرجت من لبنان خروجاً كاملاً تقريباً، ولكن الأردن وإسرائيل قد توصلتا إلى معاهدة سلام قبل خمس سنوات. كان واهناً جداً، ولم يكن قد بقي له إلا عام واحد فقط ليعيشه ولم يعش طويلاً طولاً كافياً ليرى ابنه، الرئيس بشار الأسد، وهو يسحب كل القوات السورية من لبنان في العام 2005.

قمت بزيارة إلى الشرق الأوسط في مطالع العام 2005 وخططت لزيارة الرئيس السوري الشاب في دمشق. وكما جرت العادة، أحطت البيت الأبيض علماً مقدماً قبل وقت مناسب من جدول رحلتي وتلقيت فوراً دعوة من مستشار الأمن القومي، الذي أعلمني بأنني لن أتلقى موافقة على هذا الجزء من رحلتي. وذلك بسبب اختلافات قائمة مع سورية تخص سياسة الولايات المتحدة في العراق، وأن قراراً كان قد اتخذ لسحب سفيرنا ولعزل الرئيس الأسد عن طريق منع الزيارات التي يقوم بها أمريكيون بارزون. وحاولت أن أشرح أنني سبق لي أن عرفت بشاراً منذ أن كان طالباً جامعياً وأنني سأكون سعيداً باستخدام نفوذي لحل مشكلات بارزة، وذلك مثلما فعلت مع والده. وفي محادثة ساخنة نوعاً ما، عبرت أيضاً عن رأيي بأن رفض التواصل مع الزعماء الذين نختلف معهم كان عملاً يأتي بعكس الغرض المطلوب. وبشكل متردد، امتثلت للتوجيه. ولاحظت، لاحقاً، أن الرئيس الأسد لم يمنح تأشيرة لحضور اجتماع القمة في الاجتماع العام للأمم المتحدة في نيويورك.

وعلى الرغم من هذه الجهود التي بذلت لإحراج بشار الأسد ولإضعافه فقد بقي حياً طوال ست سنوات في واحد من أصعب المناصب السياسية في المنطقة. وإن من المحتمل تماماً أنه قد دُفع إلى الدخول في أحلاف أقوى مع القوى المناوئة للأمريكيين في العراق، وإيران، ولبنان. وحين تشن الجهود الدولية للسلام لإنهاء النزاع الحالي بين إسرائيل ولبنان، فإن سورية قد تلعب مرة أخرى دوراً كبيراً.

الأردن:

حين رأينا، روزالين وأنا، الأردن لأول مرة في الربيع من العام 1973، كنا ننظر من خلال أسلاك شائكة من الضفة الغربية إلى الحقول الخضراء عبر نهر الأردن.

وبوصفنا ضيفين على رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير، فقد جرى الترحيب بنا لنعبر جسر اللنبي، حيث لاحظنا تياراً كبيراً لا ينقطع من الناس الذين يسافرون جيئة وذهاباً بين البلدين. وكانت تفتيشات الحدود سطحية بلامبالاة، وكان هناك تقريباً جو احتفالي في ذلك المشهد المشغول.

في العام 1983، بعد أن كنت رئيساً، رجعنا إلى جسر اللنبي. كانت الأزياء العسكرية الموحدة الإسرائيلية في كل مكان، وكان تدفق قليل فقط من الناس يعبر الحدود. وامتدت الصفوف لمئات من الياردات، وصف غير متساو من المركبات ومواقع المخيمات بدت لنا وكأن بعض الناس ومحاصيلهم كانوا ينتظرون لعدة أيام. كان هناك إحساس من التوتر والعداوة في كلا الاتجاهين.

في هذه المرة كنا مسافرين من القدس إلى عمان، بعد أسابيع من المناوشات من العاملين معي مع المسؤولين الدبلوماسيين في كلا البلدين. وأخيراً، صرت أنا أول شخص يقوم بالعبور باستخدام جواز سفر واحد، لأن الوثائق إذا ختمت أولاً في أي من إسرائيل أو بلد عربي، فإنها لن تكون مقبولة من الطرف الآخر. وحين وصلنا إلى مركز الجسر، لم يكن هناك أي تبادل لروح الدعابة بين المسؤولين من البلدين بوجوههم المتحجرة.

قادونا، روزالين وأنا، إلى المجمّع الملكي، وهو قائم على تل قرب المدينة القديمة. ومن بيت الضيافة الذي كنا فيه كنا نستطيع أن نلقي نظرة عبر واد ضيق عميق في الشوارع التي تعج بالحركة من منطقة سكنية تم بناء الإسكان فيها حديثاً، وكان في معظمه للاجئين الفلسطينيين في السنوات الحديثة. وتذكر بعض أعضاء مرافقتنا أن جد الملك حسين، الملك عبدالله بن الحسين، كان يستمتع بممارسة الرماية طويلة المدى في التلال التي كانت آنئذ غير مأهولة عبر الوادي.

عبدالله سليل مباشر من النبي محمد (ص)، وسبق أن قاتل قتالاً جيداً ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، وأراد البريطانيون أن يكافئوه. في البداية رشح ليتولى عرش العراق، ولكن البريطانيين قرروا أن يعطوا ذلك الشرف إلى أخيه فيصل. وكانت الحاجة تدعو إلى عرش آخر، وهكذا أنشئت إمارة سميت إمارة شرق الأردن تكونت من بعض مناطق الصحراء البعيدة من فلسطين الانتداب، وامتلك عبد الله تاجه، مع انه كان بسلطة قليلة. ولم يعط شرق الأردن استقلاله

حتى العام 1946، وكان السفير البريطاني مازال يستبقي السيطرة على السياسة الخارجية ومعظم القضايا المالية والعسكرية.

وبعد الحرب العربية الإسرائيلية في العام 1948، طالب الملك عبد الله بالأرض التي كانت في الضفة الغربية ولم تكن جزءاً من إسرائيل، ومن جملتها مدينة القدس الشرقية القديمة المحاطة بجدار، مع العديد من أماكنها المقدسة. وقد قبل الفلسطينيون قرار الأردن، وأُكّد هذا العمل بهدنة في العام 1949 بين عبدالله والإسرائيليين. وتحولت شرق الأردن إلى مملكة الأردن وكافحت لتستوعب 400.000 لاجئ فلسطيني تقريباً كانوا قد فقدوا بيوتهم في ما صار الأمة الجديدة إسرائيل. كانت 6 بالمائة فقط من مساحة أرض الأردن في الضفة الغربية، ولكن ثلثي السكان تقريباً فلسطينيون وقسماً كبيراً من موارده الطبيعية والمالية كان الآن فلسطينياً.

وحوالي ثلث الفلسطينيين في الأردن كانوا في مخيمات، وعاش الآخرون حيثما استطاعوا أن يجدوا مأوى مؤقتاً في الكنائس، وفي المساجد، وفي الخيام، وفي الكهوف، وفي الأكواخ، وفي المباني العامة. ورفض بعضهم أن يقبلوا إسكاناً ثابتاً، زاعمين أن وطنهم الوحيد كان في فلسطين. وكثيرون من الأشخاص النازحين بقوا عاطلين عن العمل وعاشوا على مخصصات الطعام المقدمة من وكالات الإغاثة من الأمم المتحدة. ومع ذلك، فإن الحياة في الضفة الغربية كانت مزدهرة نسبياً، وهكذا فالفلسطيني المتوسط كان أفضل تعليماً، وأفضل غذاء، وأكثر نشاطاً سياسياً من جاره في الضفة الشرقية. وحين تمت الموافقة على الاندماج الرسمي للضفة الغربية مع الأردن من قبل البرلمان الأردني في شهر نيسان/إبريل من العام 1950، قدمت المواطنة إلى جميع الفلسطينيين. وكثيرون منهم شاركوا في القضايا السياسية للأردن، ولكنهم مازالوا مع ذلك يحتفظون بهويتهم بصفتهم فلسطينيين.

وعلى الرغم من أنه كان هناك اعتراضات قوية في صفوف العرب ضد قبول دولة إسرائيل، فقد كان يروى أن الملك عبدالله كان يتقابل مع الإسرائيليين سراً. وقد اغتيل في شهر تموز/يوليو من العام 1951 على يد متطرف فلسطيني في المسجد الأقصى في القدس بحضور حفيده حسين بن طلال، وبعد ذلك بأكثر من سنتين

قليلاً صار ذلك الشاب ملكاً حين بلغ من العمر الثامنة عشرة. ومع حلول ذلك الوقت، كان قد خصص للفلسطينيين نصف مقاعد البرلمان والقسم نفسه من المناصب العليا في الحكومة. واستمر الملك الشاب بالضغط من أجل استقلال الأردن، وفي العام 1956 أمر الملك المسؤولين البريطانيين والعاملين العسكريين بأن يغادروا الأردن. وكان مقدراً لذلك القرار أن يكون هو أكثر قرارات حكمه شعبية.

جاءت أكبر كارثة سياسية للملك حسين في حرب الأيام الستة من العام 1967، حين احتلت القوات الإسرائيلية القدس الشرقية وكل الضفة الغربية. ففقد الأردن بذلك نصف شعبه، ومصدراً كبيراً من الدخل السياحي من الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم، ومساحات واسعة من الأرض الإنتاجية. وفي الوقت نفسه، فإن 250.000 لاجيء إضافي تقريباً من الضفة الغربية استقروا في الأردن على الجانب الشرقي من النهر.

وعلى الرغم من جهود حسين للسيطرة على الفلسطينيين، استخدم الفلسطينيون الأقوياء في أثناء أواخر الستينيات من 1960 على نحو متزايد بعض مخيمات اللاجئين بصفة قواعد للفدائيين من أجل هجماتهم المستمرة تقريباً على إسرائيل. وكثيرون من هؤلاء المقاتلين رحبوا بالغارات الانتقامية على الأردن لأن أحد أهدافهم كان هو إضعاف حسين واستبدال الجمهورية بالملكية، جمهورية مثل جمهورية ناصر في مصر. وبحلول شهر أيلول/سبتمبر من العام 1970 كانت تثور حرب مدنية على نطاق كامل في الأردن بين قوات حسين المسلحة وبين جماعات حرب العصابات. وكان ذلك هو الوقت الذي رفض فيه وزير الدفاع السوري الأسد أن يهاجم قوات الأردن وكان حسين قادراً على أن يسيطر. وانسحب السوريون، وهرب كثيرون من الفلسطينيين إلى لبنان، وتم استعادة النظام. وكان حسين موضع إعجاب لأمانته وإحسانه، ولذلك استطاع أن يجتذب الدعم المالي القوي من المجتمع الدولي، وهو الدعم الذي وجه الكثير منه إلى الفلسطينيين.

لقد ارتقى الملك حسين على عرش الأردن في العام 1953، وبهذا صار هو أقدم حاكم وطني على ظهر الأرض حين زرناه، وهو يخدم في العام الثلاثين من حكمه. وزملاؤه من قادة العالم كانوا يحترمون آراءه لأنها كانت دائماً آراء معتدلة ومدروسة

دراسة حريصة. وكان حسين يمتلك من القوة الشخصية ومن التأثير أكثر بكثير مما سمحت له بإظهاره مملكته الضعيفة. لقد أدان السادات بعد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، ولكنني كنت آمل أنه سيعيد مجدداً العلاقات الدبلوماسية مع مصر ويتصالح مع الفلسطينيين.

وقد أوضح الملك حسين بجلاء أنه كان يعتبر الاضطراب المستمر، وعدم الاستقرار، والتوتر في المنطقة تهديداً لمملكته، وخصوصاً إذا لم يستطع الفلسطينيون أن يحققوا حياة من السلام والكرامة. وكان خائفاً من أن موجات جديدة من اللاجئين قد تتدفق إلى الأردن بسبب الجهود الإسرائيلية للاستحواذ على المناطق المحتلة.وكان يرى أن عدم قدرة الفلسطينيين على التعبير عن حقوقهم المشروعة هي السبب الأساسي للأمراض السياسية التي ابتليت بها المنطقة.

وبدا لي الملك حسين، مثل الأسد، فخوراً بأنه قد ساند المقترحات الدولية الرئيسية التي قصدت إلى إنهاء النزاع في المنطقة. وكان هو وكل الزعماء العرب الآخرين تقريباً يساوون باستمرار بين محنة الفلسطينيين ومحنة اليهود بعد الحرب العالمية الثانية من دون حقوق وطنية أو فردية، أخرجوا بالقوة من وطنهم، ومازالوا يعانون من اضطهاد قوة عسكرية بعد أكثر من جيل. وفي عروض منسقة تنسيقاً متبصراً يعرضها الأردنيون للزوار، يدعي الأردنيون أن السياسة الثابتة لإسرائيل هي تشديد قبضتها العسكرية على الضفة الغربية وغزة، والتنافس مع الفلسطينيين على أفضل المواقع، وجعل الحياة بالنسبة إليهم أشق ما يمكن لكي تطرد السكان العرب من أرضهم الخاصة. وقد أكد حسين لنا أن 12.000 فلسطيني في العام يغرون أو يجبرون بالقوة على مغادرة منازل أسلافهم والتحرك شرقاً، إما إلى الأردن أو للانضمام إلى الكثيرين من اللاجئين المتجولين في البلدان الأخرى.

ومع إقرار الأردنيين بأن المعاهدة الإسرائيلية المصرية قد أعطت زخماً جديداً لعملية السلام، فإنهم قد رأوا أن الميزات قد أبطلت بتحييد مصر وبالدور الإسرائيلي المستبد بسيطرته سيطرة متزايدة في الأراضي المحتلة. وفي إحدى زياراتي الأخيرة، أعلمني الأردنيون أن رونالد ريغان، حين كان رئيساً، أعطاهم ضمانات مباشرة لا لبس فيها أن النشاط الإسرائيلي في الاستيطان سوف يجمد، وذلك شرطاً للشروع

في أي محادثات موسعة للسلام. وأضافوا أن الإسرائيليين رفضوا أي قرار سياسي لوقف نشاط الاستيطان.

وكان الملك وأخوه ولي عهده الأمير حسن يستطيعان أن يقتبسا آخر أرقام إسرائيلية عن مقدار من مساحات أراضي العائلات الفلسطينية التي كانت تجري مصادرتها من السلطات العسكرية الإسرائيلية، ورأيا أن البنية المجتمعية لغير اليهود كان يجري تغييرها منهجياً من الزراعة العائلية والمشروع الحر إلى العمل اليومي، ونتيجة لذلك يصير الفلسطينيون معتمدين اعتماداً متزايداً على الأعمال المنزلية الخدمية الوضيعة والأعمال الأخرى للإسرائيليين. وعرضا علي إحصاءات ليبرهنا على أن مصادر الماء من وادي نهر الأردن الأعلى كان يجري توجيهها إلى الإسرائيليين حصراً تقريباً وأن العرب كانوا ممنوعين ولو من حفر أي بئر جديدة أو تعميق بئر قديمة جفت بسبب الآبار المجاورة التي يجري حفرها من طرف المستوطنين اليهود. وأدانا سياسة إسرائيل التي تمنع تسليم العون الأجنبي من خلال عمان إلى الضفة الغربية وغزة من أجل مشاريع مثل التعليم، والإسكان، والزراعة.

وكان قد سبق لنا أن سمعنا معظم هذه الشكاوي من أولئك الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة، ولكننا الآن كنا نرى ما يعرض علينا من الصور الملونة، والرسوم البيانية، وصفحات الإحصاءات، والوثائق الرسمية. لقد كان واضحاً أن العائلة الملكية الأردنية كانت تعمل العرض نفسه للزوار الآخرين ولجماهير المستمعين في المنتديات الدولية. لقد كان زعماء الأردن مقتنعين أن حركة إسرائيل "لاستعمار" وفي النهاية "لإلحاق" أجزاء جوهرية من الأراضي المحتلة لن تغير فقط الشخصية الأساسية لإسرائيل ولكنها ستخاطر بمعاهدة سلامها مع مصر وبعلاقات الصداقة مع كل جيرانها الآخرين. وهذا هو ما سينهي كل المحاولات القابلة للحياة للوصول إلى تسوية سلمية للخلافات العربية الإسرائيلية ويقود في نهاية المطاف إلى حرب مقدسة أخرى أوسع وأكثر إهلاكا، مع قوات إسلامية ملتزمة من خلال معتقداتها الدينية باستعادة حقوق أشقائهم العرب الذين يعيشون غرب نهر الأردن أو الذين يدعون الحق في العيش هناك.

لا بل، ومن دون مثل هذا النزاع، فإن كثيرين من الأردنيين يشعرون أن الإخفاق في حل القضية الفلسطينية قد يؤدي إلى تدمير أمتهم الخاصة بهم، وهم

يستمعون بغضب وقلق إلى بعض المتحدثين الإسرائيليين المتطرفين الذين يقولون: "الأردن هو فلسطين". وهذا تهديد حقيقي وحيوي لزعماء الأردن.

بعد وفاة الملك حسين في العام 1999، تولى عرش الأردن ابنه عبدالله الثاني، وبدا أنه يتابع موقف والده من المثالية الحذرة. وعلى الرغم من الحدود الموجودة على تأثيره، فإن نزاهته الشخصية والتزامه بسلام الشرق الأوسط أمران معترف بهما.

مصر:

كانت عائلتنا تستمتع دائماً بزيارة مصر لتبحر في النيل، ولتسافر في الأرياف، ولتتفحص المواقع القديمة، ولتجتمع مع الزعماء السياسيين. ومازلنا نتلقى أحر الترحيب، ولكن كل ذلك لم يكن هو نفسه بالنسبة إلينا منذ السادات. فمن بين مائة رئيس دولة تقريباً اجتمعت معهم في الوقت الذي كنت فيه رئيساً، كان هو صديقي الشخصي المفضل، وصديقي الحميم. وفي الحقيقة، فإن زوجتي وزوجته وجيلين آخرين من عائليتنا أيضاً شكلوا علاقات حميمة. وقد قمنا برحلة خاصة إلى مسقط رأس السادات في قريته بعد موته، لنرد زيارة كان قد قام هو بها إلى مسقط رأسنا في بلدنا بلينز.

في صباح أحد الأيام في مطالع الثمانينيات من 1980، حين كنا نقترب من مدخل مقبرة توت عنخ آمون، رأتني مجموعة من الإسرائيليين وبدأت تغني بالعبرية ما ترجمته "السلام يكون معك" ووقفنا لنستمع، ولاحظت أن عيني لم تكن العيون الوحيدة التي التمعت. وذهبت إلى تلك المجموعة للتحدث إليهم، وشكروني "على إعطائنا الفرصة لنزور أصدقاءنا الجدد في مصر". وعلمت أن 50.000 فلسطيني من الأراضي المحتلة كانوا يعبرون الحدود من غزة إلى مصر من دون حوادث، بالإضافة إلى 33.000 سائح إسرائيلي يقدمون إلى القاهرة والإسكندرية في كل عام. تلك كانت أياماً ذهبية نسبياً، وكان السياح الإسرائيليون والمصريون الذين قابلناهم في بيوتهم وفي الأسواق مسرورين وشاكرين لما كانوا يعتقدون أنه سيكون عصر سلام وصداقة.

في إحدى الرحلات حول مصر، في طائرة خاصة، تلقيت سماحاً في أن أبتعد عن مسارات الطيران العادية، وهبطنا قرب جبل سيناء، في المكان الذي يصف فيه

الكتاب المقدس الوصايا العشر وهي تسلم إلى موسى (ع). وتجولنا صاعدين إلى دير القديسة كاترين الذي انزوى في مقابل الوجه الشمالي للجبل الوعر طوال أكثر من 1450 سنة وهو أقدم دير مسيحي مشغول باستمرار على وجه الأرض. وقد رأى السادات في هذا الجبل، "جبل اللّه"، رمزاً للسلام وأراد أن يبني هناك مكاناً مقدساً لجميع الأديان الثلاثة. ولكن حلمه لم يتحقق أبداً.

وفي أثناء محادثاتي العديدة مع السادات، عبرت مراراً عن مخاوفي بشأن عزلة مصر المتنامية عن بقية الأمم العربية الأخرى، ولكنه كان يسخر عادة من قلقي، فقد كان على يقين من أن مبادرته الجريئة مثلت طموحات شعبه الخاص للسلام، وأنه كان مقتنعاً على الدرجة نفسها من اليقين أن معظم جيران إسرائيل العرب الآخرين لديهم الطموح نفسه، وذلك بين الناس أنفسهم على الأقل. وقد أدان بقوة وعلناً زعماء تلك الأمم على خوفهم القصير النظر حين فشلوا في اتباع نموذجه.

وقد برهن السادات أنه على حق بشأن عدم جدوى المحاولات الرامية إلى معاقبة مصر. فالعرب الآخرون لم يستطيعوا أن يستبعدوا مصر أو أن يتجاهلوها لمدة طويلة، مع قواتها العسكرية المخيفة، وموقعها المركزي، وتراثها الثقافي القديم، والسكان المتنوعين البالغ عددهم 47 مليون نسمة، وقوة عمل خارجية كبيرة، واستعداد زعمائها لاستكشاف مفاهيم جسورة جديدة. وقد أخبرني أستاذ دكتور في جامعة تل أبيب أن موقف العرب نحو مصر في أثناء محاولتهم مقاطعتها ذكّره بعنوان رئيسي قديم في جريدة التايمز في لندن، "الضباب على القناة. أوروبة معزولة".

كانت هناك دعوات متكررة لقتل السادات، ولكن الزعيم المصري لم يضطرب وتقدم بهدوء في متابعة غاية السلام. وبعد استلامه لجائزة نوبل للسلام ومع كونه قد كرم في أمريكا بوصفه رجل العام في مجلة التايمز اغتيل في 6 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1981. وكان الرئيس حسني مبارك متبصراً في احترام اتفاقيات السلام التي عقدها سلفه ولكنه ركز على القضايا السياسية والاقتصادية الداخلية لبلاده تركيزاً أكبر في الوقت الذي يعمل فيه مع الزعماء الآخرين لاستعادة دور مصر بوصفها أمة عربية قائدة.

وحين يُضغط على المصريين ليستمروا في التعامل مع جارتهم تعاملاً ملائماً، يسأل كثيرون منهم، "أي إسرائيل؟" وهم قلقون قلقاً متزايداً، ويصفون الأراضي

المحتلة الآن بكونها يجري ملؤها "بأحياء يهودية (غيتو) جديدة من الإسرائيليين المسلحين الذين ينظرون إلى العرب من حولهم بوصفهم أعداء". وهم يرون المستوطنات الممتدة بصفتها تعمل على تفاقم البغضاء وإدامتها وهي التي اعتقد السادات أنها ستنتهي بالتزامه بالسلام. وبالنسبة إلى الرئيس مبارك والزعماء المصريين الآخرين، فإن معاهدة السلام الحيوية تعتبر دائماً مجرد جزء واحد من اتفاقية كامب ديفيد للسلام، وفيها تعهدت مصر أن تحترم الرزمة بكاملها طالما كان من المتوقع من إسرائيل أن تحترم الاتفاقيات الخاصة بحقوق الفلسطينيين، وانسحاب القوات العسكرية والسياسية من الضفة الغربية، والشروط المحددة الأخرى لاتفاقات كامب ديفيد.

إن قراراً نهائياً يتخذه الزعماء الإسرائيليون لاستبقاء الأرض المحتلة وإلغاء معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية في العام 1979 سيكون ضربة قاتلة للسلام المستدام في المنطقة. وهذا ما سيعيد قضايا الشرق الأوسط إلى الخلف دورة كاملة إلى إسرائيل معزولة محاطة بأعداء عرب متحدين ولا يمكن تهدئتهم، ينتظرون بصبر وهم يعدون لفرصة ثانية لتوجيه ضربة قاتلة يوماً ما.

لبنان:

كانت الظروف في لبنان عاملاً صغيراً في النزاع المستمر بين الإسرائيليين والفلسطينيين حتى جاء أحدث اندلاع للعنف بين لبنان وإسرائيل، ولكن من المفيد أن نستعرض الأحداث السابقة كي نفهم أسباب النزاع والإمكانية الموجودة للسلام.

كان على لبنان منذ مدة طويلة أن يسوي الانقسامات الدينية والسياسية، بوجود أكثرية مسيحية في زمن تشكيله تحت السيطرة الفرنسية في نهاية الحرب العالمية الأولى ومع نفوذ إسلامي متنام. وقد سمحت الأرض الجبلية للمجتمعات الدينية المختلفة بأن تعيش في عزلة نسبية وبأن تحفظ هويتها واستقلالها الذاتي عبر القرون، بما في ذلك في فترة وجودها تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. وقد تطور دستور في العام 1926 تحت الانتداب الفرنسي والذي اشترط للرئيس أن ينتخب بثلثي أصوات الجمعية الوطنية وأن يكون مارونيا بموجب عرف غير مكتوب، وأن يكون رئيس الوزراء مسلماً سنياً وأن يكون المتحدث باسم البرلمان مسلماً شيعياً،

وقسمت مناصب حكومية أخرى بين الدروز، واليونان الأرثوذكس، واليونان الكاثوليك. وعلى الرغم من الحروب الرهيبة، والزعازع السياسية الجياشة، وأكثرية مسلمة متنامية في السكان الموجودين فإن هذه الترتيبات السياسية التي جاءت مثل "الاعترافات، العامة" قد انتصرت.

إن الولاء للعائلة وللجماعات الدينية يتجاوز أي التزام بالوحدة الوطنية، وذكريات الظلم والنزاعات الماضية تتغذى من قبل الأطراف التي وقع عليها الظلم لمدد طويلة من الزمان وقد دفعت بتهور إلى أعمال من الثأر والانتقام. وقد أسست الفئات السياسية والدينية قوات مقاتلة مستقلة، وهذه اعتمدت في مرات كثيرة على القوى الأجنبية لتتدخل نيابة عنها. فالمسلمون الأتراك فضلوا الدروز، وجاء الفرنسيون ليحموا المسيحيين الموارنة، والروس يدعمون الروس الأرثوذكس، واصطف السوريون في مناسبات مختلفة مع أطراف متنوعة، وعمل الإسرائيليون والموارنة عن قرب معاً بصفة حلفاء عسكريين. ويمتلك أعضاء من حزب الله الأكثر عسكرية روابط قوية مع كل من إيران وسورية. إن شعوباً قليلة في الأزمنة المعاصرة قد عانت بقدر ما عانى اللبنانيون على أيدي مثل هذا التنوع من القوى الأجنبية.

لقد كان من المستحيل علي تقريباً أن أتذكر الاصطفافات المختلفة في لبنان حين كنت رئيساً، ولذلك وجهت وكالة الاستخبارات المركزية أخيراً أن تضمن في إيجازات أسبوعية وصفاً موجزاً كالخلاصة عن المنظمات السياسية والدينية، وزعمائها الحاليين وحجم وفاعلية كل قوة عسكرية، وأي ارتباطات أجنبية، وآخر التغيرات في مكانتها. وحينئذ فقط استطعت أن أفهم التقارير الإخبارية عن البلد المضطرب.

لقد ادعى زعماء لبنان لوقت طويل أنهم اتبعوا سياسة خارجية حيادية بين الشرق والغرب وبين إسرائيل وسورية. ولم ينجحوا دائماً، ولكن الحكومة اللبنانية الجماعية على الأقل لم تشن أبداً أي تهديد على أي من جارتيها.

في العام 1975 انفجرت حرب أهلية، وكانت القوات المسيحية فيها تقاتل ضد الفلسطينيين والمسلمين الآخرين لأنهم تنازعوا من أجل عوامل اقتصادية وسياسية. وأرسل الرئيس السوري الأسد قواته إلى ذلك البلد الذي مزقته الحرب ليستعيد

النظام. وكانت هذه الحركة بموافقة مسؤولين في الحكومة اللبنانية كانوا يمثلون كل الفئات الكبيرة، وبموافقة إسرائيل كذلك، والولايات المتحدة، ثم لاحقاً بموافقة الجامعة العربية. وعلى الرغم من أن البلدين كانا مستقلين رسمياً، فإن الزعماء السوريين كانوا يعتبرون البلدين "بلداً واحداً وشعباً واحداً". وحين تفحصت الخرائط السورية في أثناء زياراتي إلى دمشق، لم يكن هناك أي خط حدود دولي، لا بل لم تكن الأعراف الدبلوماسية الثنائية المعتادة مرعية بين الحكومتين. وقد استاء الأسد من أي مفهوم يعني ضمناً أن قواته كانت قوات "غزاة" أو "قوات أجنبية" وأصر لي على أنه هو وقواته كانوا يعتبرون وجودها في لبنان وجوداً مؤقتاً.

وبوجود عرفات زعيماً لمنظمة التحرير الفلسطينية، ظلت المنظمة قوة قوية في لبنان واستمرت بالهجمات عبر الحدود ضد إسرائيل. وفي شهر حزيران/يونيو من العام 1982، غزت إسرائيل لبنان بحشد ضخم من القوات العسكرية الإسرائيلية واندفعت في مسارها على كل المسافة إلى بيروت لتطوقها، وكانت غايتها من ذلك هي أن تخرج منظمة التحرير الفلسطينية من البلد. وكان التفسير المحدد هو أن منظمة التحرير الفلسطينية قد اغتالت السفير الإسرائيلي في لندن، على الرغم من أن جماعة مختلفة هي التي ادعت لاحقاً مسؤوليتها عن الجريمة. وكنت وأنا مواطن عادي منزعجاً انزعاجاً عميقاً من هذا الغزو، وعبرت عن قلقي لبعض الزعماء الإسرائيليين الكبار الذين شاركوا في مفاوضات كامب ديفيد من أن ذلك الهجوم كان خرقاً للاتفاقات. ورجع لي جواب مقلق من مصدر فوق مستوى الشبهات في القدس يقول: "كان لدينا ضوء أخضر من واشنطون". وقد أنكر مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان أي موافقة رسمية على الغزو، ولكن مباركة ضمنية غير رسمية كانت هي كل ما دعت الحاجة إليها؟.

لقد تسبب قصف إسرائيل للمدن اللبنانية في وقوع خسائر مدنية عالية وأثار معارضة شديدة، وصلت إلى إسرائيل نفسها. وكان بشير جميل الحليف المسيحي الماروني لإسرائيل قد انتخب رئيساً للبنان، وتحت الضغط من واشنطون، قامت إسرائيل بانسحاب جزئي إلى الجنوب في حين دخلت قوات أمريكية وأوروبية إلى بيروت لتشرف على الرحيل القسري بالقوة لعرفات ولآلاف عدة من قواته، قوات

منظمة التحرير الفلسطينية. وبعدئذ، وبتتابع سريع، غادرت قوات حفظ السلام الغربية بيروت معتبرة أن الأزمة قد حُلت. واغتيل الرئيس جميل، وعادت القوات العسكرية الإسرائيلية إلى المدينة وضواحيها. وبعد بضعة أيام، ذبح أكثر من ألف من الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين من غير المقاتلين في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين اللذين كان يسيطر عليهما حلفاء إسرائيل، واللذين اعتبر وزير الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون مسؤولاً عنهما. وتحركت القوات الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية، والإيطالية عائدة إلى بيروت.

وكانت القوات الإسرائيلية الموجودة حول بيروت واقعة تحت الهجوم المستمر تقريباً من اللبنانيين الذين كانوا مدعومين من سورية، وكانت الخسائر عالية. وفي أيلول/سبتمبر من العام 1983 انسحب الإسرائيليون مرة ثانية إلى جنوب لبنان بعد أن تحقق أحد أهدافهم: وهو أن قوات منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت وفي جنوب لبنان كانت قد أجبرت بالقوة على الخروج من المنطقة، تاركة حدود إسرائيل الشمالية أكثر أمناً. ووقعت قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) المنتشرة حول مطار بيروت تحت نيران متزايدة من المقاتلين اللبنانيين الموجودين في التلال المحيطة، وردت القوات الأمريكية بمدفعية الأسطول من السفن الحربية وبالقصف الجوي من حاملة الطائرات الموجودة قبالة الشاطئ.

لقد كان في هذا الوقت أن قمت بواحدة من زياراتي إلى لبنان، لمقابلة الرئيس أمين جميل، خليفة أخيه بشير. وجلسنا في غرفة استقبال في الطابق العلوي من قصر الرئاسة، الذي كان قد قصف بالقنابل حديثاً، وكنت أسمع ارتجاجات الانفجارات البعيدة وأحياناً أشعر بها. ولم يظهر مضيفي أي قلق، وتظاهرت أنا كذلك أنني هادئ. وحين سألت عن موقع المعركة، مشى إلى خارج الشرفة ورأى أنها كانت متركزة في منطقة المطار على بعد عدة أميال. وكان الأمل الرئيسي الذي يراود الجميل هو أن يوضع موضع التنفيذ أي نوع ما من وقف إطلاق النار الواقع تحت المراقبة الدولية. وسألته عن زعم الأسد بأنه سيسحب القوات السورية إذا طلب منه ذلك، وكان رده الهادئ "تلك هي الطريقة التي أفهمها بها". وبعد تردد قليل، أضاف بأنهم سيحتاجون إلى بعض الوقت للإعداد لمثل هذا التغيير.

أما الجماعة المقاتلة حزب الله فكانت قد تشكلت في لبنان في العام 1982 لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وأعضاء الحزب في معظمهم مسلمون شيعة، وتتلقى المنظمة دعماً من كل من سورية وإيران. ويقود حزب الله حسن نصر الله، وهو تلميذ لآية الله الخميني زعيم إيران الذي قاد الثورة الإيرانية ضد الشاه. ويوجد حوالي 700 من القوات المقاتلة الموالية بصلابة التي يمكن توسيعها إلى عدد يصل إلى 20.000 في أثناء أوقات الطوارئ. إنها قوة مترابطة ترابطاً وثيقاً وقوة مقاتلة فعالة تسيطر على أقسام من لبنان، وهي أقوى بكثير من أن تكون تحت سيطرة القوات العسكرية النظامية للأمة. والجناح المدني من الحزب محترم على نطاق واسع في لبنان لأنه يوفر الخدمات الإنسانية، ومرشحوه السياسيون يشغلون 14 مقعداً من 128 مقعداً في البرلمان، وأمل، وهي مجموعة شيعية شقيقة، تملك 15 مقعداً. وفي انتخابات العام 2005، كسبت هاتان المجموعتان 80 بالمائة من الأصوات التي اقترعت في جنوب لبنان.

في شهر نيسان/ إبريل من العام 1983، بعد شهر من زيارتي إلى بيروت، قتل 63 شخصاً من قنبلة ألقيت على السفارة الأمريكية، وأدى لاحقاً انفجار رهيب إلى إزهاق أرواح 241 جندياً أمريكياً من جنود المشاة في ثكنتهم. وهذه الهجمات، مجتمعة مع إسقاط طائرات الأسطول الأمريكي من المقاتلين المتمركزين في التلال المحيطة ببيروت، أثارت معارضة سياسية أمريكية قوية لوجودنا في لبنان، وانسحبت القوات الأمريكية انسحاباً سريعاً. وهذا على ما يبدو ترك الأسد "ملكاً للجبل". وقد أعلن أن العرب قد كسبوا بذلك أهم نصر لهم على الولايات المتحدة. وكان يتعين على كل المجموعات اللبنانية الآن أن تتحول إلى سورية.

وبموافقة أمريكية أبقت إسرائيل وجوداً عسكرياً قوياً في جنوب لبنان في محاولة غير مثمرة على ما يبدو لتدمير القدرة العسكرية لحزب الله. في شهر نيسان/إبريل من العام 1996 هاجمت إسرائيل مخفراً أمامياً معروفاً جداً للأمم المتحدة في قانا، التي كانت تؤوي مجموعة من 800 لبناني كانوا قد اتخذوا لهم غطاء هناك. فقتل أكثر من 100 مدني، وكان الاحتجاج الدولي القوي حول الضحايا اللبنانية إضافة إلى استنزاف قواتها المسلحة هما العاملين الكبيرين في

قرار إسرائيل في شهر أيار/مايو من العام 2000 أن تنسحب انسحاباً كاملاً تقريباً من لبنان بعد ثمانية عشر عاماً من الاحتلال، وأبقت وجودها في مزارع شبعا فقط.

وعلى الرغم من أن اللبنانيين لم يكونوا أقوياء قوة كافية للدفاع عن أنفسهم، فقد برهنت أمتهم على أنها مرنة. لقد كان حلمهم أن يصيروا شيئاً ما مثل سويسرا في الشرق الأوسط، ، لا هم بالمنخرطين بالنزاع ولا هم بمنطقة المراحل لمتقاتلين آخرين، ويستفيدون من علاقاتهم الجيدة مع كل الدول الأخرى. وكانت الشكوى الأولى لحكومتهم هي أن إسرائيل تتمسك بعدد من السجناء اللبنانيين ومازالت تحتل منطقة بالقرب من حدود إسرائيل، ولبنان، وسورية تعرف باسم مزارع شبعا، والتي يدعي لبنان أنها أراضيه. وتصر إسرائيل على أنها جزء من سورية وهو الذي يبرر للإسرائيليين احتلالها.

هذه قضية رئيسية وتحتاج إلى الفهم. فمنذ العام 1924، عوملت مزارع شبعا بوصفها أراضي لبنانية، ولكن سورية استولت على المنطقة في الخمسينيات من 1950 واستبقت السيطرة عليها حتى احتلت إسرائيل المزارع إلى جانب مرتفعات الجولان - في العام 1967. السكان كانوا لبنانيين والممتلكات كانت لبنانية، ولبنان لم يقبل أبداً سيطرة سورية على المزارع. وعلى الرغم من أن سورية طالبت بالمنطقة في الماضي، فإن المسؤولين السوريين الآن يقرون بأنها جزء من لبنان. وهذا الموقف يدعم ادعاء العرب بأن إسرائيل مازالت تحتل أرضاً لبنانية.

انسحاب كل القوات الأجنبية الأخرى زاد من الضغط الدولي لتقوم سورية بالعمل نفسه، وفي العام 2004 أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة القرار رقم 1559 يساند هذا الهدف ويدعو حزب الله والجماعات المقاتلة الأخرى لنزع سلاحها. وهذا ما شجع الضغوط المحلية ضد سورية، وهو ما قد يكون قد عجل باغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، وهو مسلم سني، مع عشرين آخرين في شهر شباط/فبراير من العام 2005. وعلى الرغم من أن سورية أنكرت المسؤولية عن الجريمة، فقد كان يعرف عن الحريري بأنه ناقد قوي لقرارات سورية المتصلة بالحكومة اللبنانية. وتبعت ذلك تظاهرات ضخمة، وسحبت سورية بقية قواتها العسكرية. وانتخب سعد ابن رئيس الوزراء القتيل ليرأس التيار الذي يدعم الحكومة. وأحس كثيرون بالراحة، لأن لبنان لم يبق بعد ذلك في مركز عظيم

البروز على مركز المسرح، وأن أضواء انتباه العالم يمكن أن تركز على مكان آخر في الشرق الأوسط. وقدر لهذه الأحلام أن تتحطم في شهر تموز/يوليو من العام 2006، كما سيوصف ذلك في الفصل 16.

المملكة العربية السعودية:

على الرغم من أن المملكة العربية السعودية ليست متاخمة لإسرائيل، فإن المملكة ستلعب دوراً مهماً في أي اتفاقية سلام دائمة في المنطقة. وذلك لأنها أمة غنية باحتياطيات نفطية كبيرة، وهي المحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية، ولها علاقات دبلوماسية مع كل الأمم الأخرى تقريباً وتلعب دوراً بارزاً في الجامعة العربية، وكان تأثيرها الموطد للاستقرار تأثيراً حاسماً دائماً. وحين كنت رئيساً، تلقيت تشجيعاً قوياً خاصاً من الزعماء السعوديين من أجل مبادراتي للسلام.

والمملكة العربية السعودية بلد غريب بالنسبة إلى كثيرين من الغربيين، وهي معزولة جغرافياً، ومحكومة من العائلة المالكة السعودية، وقد أقامت علاقات سياسية قوية مع الولايات المتحدة منذ زمن الملك عبدالعزيز والرئيس فرانكلين دي. روزفلت.

وعلى الرغم من أننا وجدنا، روزالين وأنا، المدن الكبيرة مثيرة للاهتمام، فإننا حصلنا على زيارتنا التي كانت أحفل ما تكون بالمعلومات مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز في العام 1983 في الوقت الذي كان يعقد فيه إحدى جلساته الملكية المعتادة مع مواطنيه، وفي هذه المرة في منطقة صحراوية نائية تبعد حوالي مائتي كيلو متر شمالي الرياض. في مخيم نصب لهذا الغرض، جاء زعماء القبائل ليجتمعوا مع عاهلهم، وليرفعوا له عن قضاياهم القبلية وليطلبوا السلع والخدمات لجماعتهم. وفي الوقت الذي كنت فيه مع الرجال ذهبت روزالين مسرعة لزيارة النساء السعوديات، اللواتي كن في مخيم مختلف اختلافاً كاملاً، على كثبان الرمل وخارج مرمى النظر. لقد كنت أعرف الملك فهد طوال سنوات عديدة، وحين كنت رئيساً، تشاورت معه في واشنطون وفي المملكة العربية السعودية معاً. وكان آنئذ أقوى ولي عهد، وله واجبات دولية كثيرة خصه بها أخوه غير الشقيق الملك خالد.

وقد حافظ الملوك على الاستقرار السياسي داخل المملكة وعززوا دور قيادتهم تعزيزاً كبيراً عن طريق تقليل الخلافات الداخلية إلى أدنى حد من خلال التشاور المباشر القريب، وعن طريق التوزيع المتبصر لقسم من دخل الأمة من النفط، وعن طريق الاستفادة من تفوقهم البارز بصفتهم القائمين على خدمة الأماكن المقدسة للإسلام. ووازنوا سلطتهم بالاقتراب اقترباً مؤثراً من مواطنيهم. وقد أخبرني الملك فهد في زيارتي الأولى إلى المملكة العربية السعودية أنه في كل يوم يفتح أبوابه لأعداد كبيرة غير محددة من الرجال الذين يرغبون في رؤيته، وفي كل أسبوع يسمح لنساء العائلات أن يعرضن مشكلاتهن عليه ويطلبن منه مباشرة. وقد سافر على نطاق واسع في المملكة الصحراء مع أسطول من المقطورات الجرارة التي تحمل مستشفى متنقلاً كاملاً وكان يرحب هو شخصياً بالمواطنين الذين كانوا يحتاجون إلى العلاج الطبي. وحين عبرت عن القلق بشأن مدى استهلاك الوقت في هذه الأعمال الطفيفة الإدارية، أجاب أن المملكة لا تستطيع أن تبقى إذا أهمل قادتها هذا الالتزام من الخدمة الشخصية لشعبهم.

والرغبة البارزة لدى السعوديين هي رغبتهم في استقرار المنطقة. وأحد التزاماتهم الأولى هو إدامة إحساس الأخوة بين العرب، وعلى وجه الخصوص مع الفلسطينيين، الذين يرى السعوديون أنهم وقعوا ضحايا على نحو قاس، والسعوديون ينظرون إلى النزاع الفلسطيني الإسرائيلي بوصفه واحداً من أخطر العوائق للسلام الدائم في المنطقة. وليس هناك أدنى شك في أن الزعماء السعوديين يشاطرون العرب مشاعر السخط نحو تعدي إسرائيل على الأرض التي كانت في السابق مأهولة ومحكومة من إخوتهم المسلمين، ولكن الملوك السعوديين عبروا عن مساندتهم لحل النزاع المستمر من خلال المفاوضات السلمية إذا كانت النتائج لا تعرض للخطر الحقوق الأساسية للفلسطينيين. ويرى السعوديون أن المبادرة المقترحة من ولي العهد (وهو الآن خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز) والتي تبنتها الجامعة العربية في شهر آذار/مارس من العام 2002 (الملحق 6) لتكون متوافقة تماماً مع خريطة الطريق الدولية للسلام؟، التي وضعتها اللجنة الرباعية، وهي تعترف بإسرائيل داخل حدودها السابقة لحرب العام 1967.

وكثيرون منا يخفقون في إدراك أن الحذر السعودي في التعامل مع القضايا الخلافية، مع كل ثروتهم ومكانتهم، هو حذر له ما يبرره. فعدد السكان المواطنين قليل نسبياً، وقدرتهم العسكرية محدودة، وهم محاطون بجيران خطرون على وجه الاحتمال. وقيادتهم مستندة إلى الحل الوسط وتشكيل إجماع بين قادة مستقلين سريعي التقلب في عالم عربي منقسم. وأنا قد أضيف أن السعوديين وكثيرين آخرين غيرهم يبالغون في تقدير تأثير الولايات المتحدة مبالغة كبيرة، وهم لا يدركون أبداً لماذا لا نستطيع نحن أن "نخلص" أصدقاءنا الخاصين في الشرق الأوسط حين يتلاءم ذلك مع أهدافنا.

إن زعماء المملكة العربية السعودية يستطيعون أن يكونوا قوة حاسمة ومفيدة في الشرق الأوسط كلما كان ممكناً لنفوذهم أن يصنع الفرق في جلب السلام والاستقرار إلى المنطقة ليكون بديلاً للحرب وللاضطراب السياسي المستمر. وكان هناك استعداد، بين الزعماء الأمريكيين على الأقل، لتفهّم بعض القضايا في المملكة العربية السعودية كنا سندينها في بلاد أخرى.

الفصل السادس

سنوات ريغان

1989 – 1981

إضافة إلى انهماكي في المشاركة وأنا رئيس، راقبت التطورات في الشرق الأوسط مراقبة متبصرة جداً في أثناء السنوات التالية، وزرت المنطقة مرات متعددة للتشاور مع الزعماء السياسيين، ورجال العلم (الأكاديميين)، والمواطنين العاديين. وكانت هذه النشاطات جزءاً من برامج مركز كارتر، وهو منظمة أسسناها، زوجتي وأنا، لمعالجة القضايا التي اعتبرنا أنها مهمة لبلدنا الخاص وللبلدان الأخرى. ولمركزنا الآن مشاريع في خمس وستين أمة. ومن جملتها خمس وثلاثون في إفريقية، نتعامل فيها مع الصحة، والزراعة، وتعزيز الديمقراطية، وترويج السلام.

وفي الأرض المقدسة، وجدت أن الموقف كان يتغير تغيراً مؤثراً (دراماتيكيا)، ففي غضون بضعة أشهر بعد مغادرتي للبيت الأبيض، شن الإسرائيليون ضربة جوية دمرت مفاعلاً نووياً عراقياً، وأعلنوا "إلحاق" مرتفعات الجولان، وصعدوا جهودهم لبناء مستوطنات إسرائيلية في كل أنحاء الضفة الغربية وغزة. وكانت كل هذه الأعمال قد أدينت على نطاق واسع في العالم العربي، وانقسم الشعب الإسرائيلي حول الحكمة من هذه السياسة العسكرية.

وغزا الإسرائيليون لبنان في العام 1982، وفي غضون عام أجبرت منظمة التحرير الفلسطينية وقادتها على مغادرة البلد. وطوال العقد الزمني اللاحق، كان أعضاء المنظمة مشتتين في العديد من الأمم العربية، في الوقت الذي استمرت فيه المنظمة تبني الروابط الدبلوماسية في كل أنحاء العالم، وبرزت مرة أخرى بوصفها الرمز السياسي الوحيد الباقي لتقرير المصير الفلسطيني.

وكان هناك جهود قليلة من طرف الولايات المتحدة لترويج اتفاقية سلام إجمالية، ولكن الرئيس ريغان، الذي أراد أن يدلي بتصريح واضح لسياسته في الشرق الأوسط، زارني ليسأل إن كنت سأعمل مع مساعديه في ذلك. وكان بيانه

سيتضمن دعمه الكامل لتنفيذ اتفاقات كامب ديفيد ، وقد كنت سعيداً في المساعدة بالقسم التالي من الخطاب:

نحن نقيم مقترحنا بأمانة على مبدأ أن النزاع العربي الإسرائيلي يجب أن يحل من خلال المفاوضات التي تتضمن تبادلاً للأرض في مقابل السلام. وهذا التبادل محفوظ في القرار رقم 242 من مجلس الأمن في الأمم المتحدة، الذي، هو بدوره، مندمج في كل أجزائه في اتفاقيات كامب ديفيد. ويبقى قرار الأمم المتحدة رقم 242 ساري المفعول بشكل كامل بوصفه حجر الأساس لجهد أمريكا لسلام الشرق الأوسط.

وأن موقف الولايات المتحدة هو أنه في مقابل السلام فإن حكم الانسحاب المنصوص عليه في القرار 242 ينطبق على جميع الجبهات، ومن جملتها الضفة الغربية وغزة.

كان الرئيس ريغان يعرف أن الشرق الأوسط لا يمكن أن يكون مستقراً إلا إذا كانت إسرائيل تستطيع أن تعيش بسلام دائم فقط مع جيرانها ، وأن هذا لن يكون ممكناً إذا بقيت الأراضي المحتلة محتجزة ومستعمرة.

واستمر فريقنا في مركز كارتر في مراقبة الأحداث المتداخلة في الشرق الأوسط، وكانت الغاية دائماً هي المحافظة على العملية السلمية المتعثرة حية. ووقعت حادثتان ثبطتا أي جهود قوية ومستمرة للسلام في الشرق الأوسط تقوم بها الولايات المتحدة. ففي العام 1986 ، أصيب زعماء في واشنطون بالإحراج حين كشف عن أن وسطاء إسرائيليين كانوا قد ساعدوا الولايات المتحدة في تبادل الأسلحة مع إيران من أجل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين الذين كانوا محتجزين في لبنان، والعوائد الناتجة عن مبيعات الأسلحة استخدمت لدعم حرب الكونترا في نيكاراغوا. وفي أواخر العام 1987 زادت سياسة الاستيطان الليكودية في الأراضي المحتلة المواجهاتِ بين اليهود والعرب، وقادت المعاملة الخشنة من المنشقين إلى اندلاع عنف مدني منظم. وهذا العمل المستمر، والمستقل، والقوي من الشبان الفلسطينيين، الذي عرف باسم الانتفاضة، أدهش الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية معاً.

وتوضح زيارتي الأولى لإسرائيل بعد مغادرتي البيت الأبيض كيف كانت الظروف والمواقف قد تغيرت منذ أن ذهبت هناك وأنا حاكم قبل عشر سنوات خلت وكذلك وأنا رئيس في أواخر السبعينيات من 1970. ولدى الوصول إلى القدس في

ربيع العام 1983، قمنا، روزالين وأنا، بثالث زيارة لنا إلى تذكار المحرقة ياد فاشيم، وهناك سمعنا تعابير الشكر عن المفاوضات في كامب ديفيد التي قادت إلى السلام مع مصر. وبعد دقائق قليلة، كنت في طريقي إلى مكتب رئيس الوزراء بيغن في مبنى برلمان إسرائيل.

وبصفتي مواطناً من غير منصب، فقد توقعت أن علاقتي الشخصية مع الزعماء الإسرائيليين، وخصوصاً مع رئيس الوزراء بيغن، ستكون مختلفة. وعلى الرغم من أن أمته وأمتي تشتركان في العديد من المعتقدات والغايات السياسية، فقد كنا، هو وأنا، في مرات متكررة متعارضين عبر طاولة المفاوضات. ولم يكن سراً أن بيغن وأنا كان لنا اختلافات علنية قوية بشأن تفسير اتفاقات كامب ديفيد وغزو إسرائيل حديثاً للبنان. ومن سوء الحظ، فإن هذه النزاعات أدت إلى بعض الاختلافات الشخصية كذلك.

ونحن الآن معاً ثانية، وكما كان من عادتي دائماً، عبرت عن نفسي بصراحة بشأن بعض أكثر القضايا إثارة للخلاف من غيرها. وهنأت بيغن أولاً بالطريقة التي احترم فيها الشروط الصعبة من معاهدة السلام بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية وفك المستوطنات في سيناء مصر. وبعد ذلك، حين جلس من دون أن ينظر إلي، شرحت مرة ثانية لماذا كنا نعتقد أنه لم يحترم التزاماً كان قد وضع في أثناء مفاوضات السلام، وهو أن يسحب القوات الإسرائيلية وأن يمتنع عن بناء مستوطنات إسرائيلية جديدة في الضفة الغربية. ووصفت إحباطي من أنه لم يكن راغباً في منح الفلسطينيين أي درجة مقبولة من الاستقلال أو المسؤولية في الأراضي المحتلة، وحثثته على أن يوضح بجلاء للمصريين وللأردنيين أن إسرائيل ستلتزم بالعناصر الأساسية لقرار الأمم المتحدة رقم 242 ـ وهي الالتزامات الحاسمة التي قطعناها هو وأنا لشعبنا.

وصمتُّ، متوقعاً من رئيس الوزراء أن يعطي شرحه القوي المعتاد للسياسة الإسرائيلية. ورد بمجرد كلمات قليلة بطريقة سطحية على نحو مثير للدهشة وأوضح بجلاء أن محادثتنا يجب أن تنتهي. ولم أعرف إن كنت قد أزعجته أكثر من المعتاد، أو إن كان قد أراد الاحتفاظ بحججه للمسؤولين الأمريكيين الحالين،

أو إن كان مشغولاً من قبل بأشياء أخرى.الاحتمال الأرجح، هو أنه كان مزيجاً من كل الأسباب الثلاثة.

كنا نجلس في غرفة صغيرة، مزينة بشكل متناثر في الطابق الأسفل من مبنى الكنيست. وكانت الحوارات المتبادلة باردة، وبعيدة، وغير مثمرة. وحين غادرت، لاحظت أن الغرفة المجاورة كانت واسعة، ومضاءة إضاءة ساطعة، وجذابة وفارغة. والمفارقة الساخرة، هي أن الرقم الذي كان مكتوباً على الباب هو 242.

قضينا، روزالين وأنا، عدة أيام في إسرائيل وفي الأراضي المحتلة، نجتمع مع القادة ومع المواطنين العاديين. لقد كان المكان مختلفاً جداً عن المكان الذي عرفناه لأول مرة قبل عشرة أعوام. الإحساس بالإجماع بين المواطنين اليهود والثقة المسترخية التي كانت في العام 1973 قد ذهبت. وعلى الرغم من نصرهم العسكري في لبنان، فإن الكثيرين من الإسرائيليين كانوا قلقين من أن شعلة النصر قد تحولت إلى رماد. والتفوق العسكري الذي كان حاسماً من أجل الدفاع عن الأمة كان غير كاف لإسرائيل لإخضاع جيرانها. وكانت النجاحات مكلفة جداً من الناحيتين المالية والبشرية، وبعد كل حرب وفاصل قصير من السلام، غاص كلا الطرفين في جولة عنف جديدة.

كان الرجال والنساء في اللباس العسكري يُرَون في كل مكان، وكان التوتر بين مختلف أنواع الناس واضحاً. والتيار السابق من الزوار المتدفق من الأردن قد جف حتى تحول إلى نقطة، والزيارات من مصر كانت غير موجودة تقريباً على الرغم من معاهدة السلام التي أسست حدوداً مفتوحة وتجارة حرة. وليس هذا وحسب، فقد بدا أيضاً لدى أكثر المسؤولين تفاؤلاً أنه لا يوجد إلا أمل قليل لأي اتفاقية دائمة تستطيع أن تجلب السلام والاستقرار. وفي الحقيقة، فمع بعض التبريرات، كان الإسرائيليون شكاكين بشكل متزايد بشأن مواقف كل الحكومات الأجنبية. وكانت هناك اختلافات حادة بين سياسات الولايات المتحدة وإسرائيل، تمثلت، عملياً بشكل حيوي، برفض إسرائيل القطعي لمقترحات السلام التي قدمها وزير الخارجية جورج شولتز وللخطاب الحديث للرئيس ريغان الذي يصادق على سياسة أمتنا التي لا تحيد في الشرق الأوسط والتي افترضت انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة.

وعلى سبيل المثال، حين تحدث وزير الخارجية إسحق شامير حديثاً رسمياً نيابة عن تحالف الليكود، عبر عن اعتقاده أن جذور نزاع الشرق الأوسط لا علاقة لها بإسرائيل وأن حل النزاع العربي الإسرائيلي لا يحتمل أن يؤثر على الاستقرار الإقليمي. وقلل من أهمية المشكلة الفلسطينية واعتبر أن اليهود هم الحكام الطبيعيون لإسرائيل، والضفة الغربية، وغزة، ولهم الحق والواجب أن يستمروا في السكن في المنطقة. والوطن المناسب للفلسطينيين العرب كان يجب إيجاده في الأردن، والحدود السابقة للعام 1967 لإسرائيل لم تكن ذات أهمية. وذهب أرييل شارون إلى أبعد من هذا، فبعد أن دعا إلى إطاحة الملك حسين لصالح نظام حكم فلسطيني في الأردن، ولو كان مرؤوساً من ياسر عرفات، أضاف أن الضفة الشرقية من الأردن هي "لنا ولكنها ليست في أيدينا، مثلما كانت القدس الشرقية تماماً حتى حرب الأيام الستة".

وعلى الرغم من أنهم استمروا في التصريح رسمياً بأن أي محادثات سلام يجب أن تتم ضمن إطار كامب ديفيد، فإن معظم أعضاء حزب بيغن، حزب الليكود الحاكم، ، لم يوافقوا قطعياً على التنازلات التي قدموها في أثناء المحادثات المكثفة مع الرئيس السادات ومعي. وقد احترمت إسرائيل ومصر كلاهما شروط معاهدة السلام التي تتضمن سيناء، ولكن المادة الأصلية للاتفاقات التي تتعلق بالأراضي المحتلة الأخرى أهملت أو عدلت بطرق مدمرة. وقد أوضح ذلك وزير خارجية إسرائيل السابق أبا إيبان بالقول: "من سوء الطالع، أن من الواضح أن السياسة الحكومية الإسرائيلية هي سياسة بعيدة جداً عن كامب ديفيد إلى درجة أن متحدثي الليكود حين يستشهدون بالاتفاقية، فإنهم إلى حد ما مثل كازانوفا؟ وهو يستشهد بالوصية السابعة".

كان اتصالي الرئيسي في إسرائيل هو إيزر وايزمان، وكنا نستمتع بالمحادثات الهاتفية المتكررة والزيارات الشخصية. وحين زرنا بيتهم الجميل المطل على خليج في مدينة رومانية قديمة قيسارية البحرية، دعا إيزر وزوجته روما، بعض جيرانهم لمقابلتنا، وكان ذلك في جزء منه ليبين إلى أي مدى نأى بعض الإسرائيليين المتعلمين تعليماً عالياً والإسرائيليين الأغنياء نسبياً بأنفسهم عن الموقف المتعلق بالفلسطينيين في الضفة الغربية. لقد طرد من حزب الليكود بسبب إدانته غير المقيدة لانتهاكات

الحزب لاتفاقات السلام التي كان قد ساعد للتفاوض عليها وكان يفكر في تشكيل حزب جديد يقوده هو، وموشيه دايان، وآخرون من الذين شاركوا معنا في كامب ديفيد. وويزمان، وهو المتحدث الصريح على نحو لافت للنظر والمستقل عن أي قيود سياسية، أثار عداوات قوية وإعجاباً شديداً، وانتخب في العام 1993 رئيساً لإسرائيل. وبقي، حتى موته، أقرب صديق شخصي لي في الأرض المقدسة ومصدراً لا يقدر بثمن للمعلومات والمشورة.

وبالإضافة إلى مائة ألف نسمة يقدر أنهم الذين ماتوا في الحروب المختلفة بين إسرائيل وجيرانها، فإن أعداداً ضخمة من المسيحيين والمسلمين العرب كانوا إما قد أخرجوا من بيوتهم أو وضعوا تحت الحكم العسكري حين تم احتلال المزيد والمزيد من أراضيهم واحتجازها. وإعادة التوطين هذا للسكان في موقع جديد بالقوة زاد من شدة الخوف، والبغضاء، والاغتراب على كلا الجانبين وجعل أي مصالحة أصعب من ذي قبل. وما من حرب من الحروب حلت أياً من السببين الأساسين للنزاع المستمر: الأرض وحقوق الفلسطينيين.

وحين كنت في هذه الزيارة وذهبت إلى القدس، كان لي أيضاً إحساس شخصي بالكيفية التي كانت قد تغيرت بها العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية منذ رحلاتي السابقة، وكما هو معتاد، نهضت مبكراً تماماً وبدأت هرولة حول المدينة القديمة في القدس الشرقية وما وراءها وهو مسار مثير للاهتمام من المواقع القديمة والتلال المنحدرة. وكان يرافقني عميل أمريكي للخدمة السرية واثنان من الجنود الإسرائيليين الشباب، أصرا على التقدم أمامي. وتقدمنا من فندقنا إلى بوابة يافا، ثم استدرنا شمالاً حول خارج الأسوار القديمة. وحين كنا نركض باتجاه الشرق على طول طريق أريحا، رأيت مجموعة من الرجال العرب المسنين يجلسون عند حاجز، وهم يقرؤون صحفهم. كان رصيف المشاة في الشارع فارغاً تقريباً وواسعاً سعة كافية لنا لنمر بسهولة، ولكن واحداً من الجنديين قطع الطريق إلى اليمين وضرب كل الصحف إلى الخلف على وجوه القراء المجفلين. بعض الصحف طارت إلى الأرض. وقفت لأعتذر من الرجال المسنين، ولكنهم لم يستطيعوا فهمي. ثم قلت للجنديين إما أن يتركاني لأركض وحيداً أو لا يعاملا أي شخص آخر بأسلوب

عدواني. ووافقا موافقة مترددة، مصرين على أن أحداً لا يستطيع أبداً أن يخبر بما يجري تخبئته خلف الصحف. كان هذا بياناً عملياً حاداً عن منظورينا المختلفين.

كانت الحوارات المحلية السياسية في صفوف اليهود لاذعة أكثر مما سبق لي أن لاحظت قبل ذلك، وكانت غير متيقنة أي نوع من الحكومة كان الشعب يفضل. وليس هذا وحسب، ولكن أولئك الذين كانوا أكثر استعداداً لإنهاء الاحتلال العسكري، ولمنح الفلسطينيين الحقوق الأساسية للمواطنة، ولاحترام شروط قرار الأمم المتحدة رقم 242 واتفاقات كامب ديفيد، وأن يبدؤوا بالمفاوضات من دون شروط غير مقبولة بشكل صريح، كان من الصعب عليهم أن يتبينوا أي إشارات موثوقة من التشجيع من زعماء في المعسكر العربي الفلسطيني. بعض الزعماء في إسرائيل وفي البلدان العربية عبروا عن القلق من أن سياسة أمريكا في السنوات الحديثة في الشرق الأوسط قد تكونت من سلسلة من الضجيج والضربات غير المنطقية، مع نقص في العزم على تنفيذ الاتفاقات التي كان قد تم استكمالها.

لقد صار واضحاً وضوحاً متزايداً انه كان هناك إسرائيلان. واحدة اشتملت على الثقافة القديمة والقيم الأخلاقية للشعب اليهودي، محددة بالكتب المقدسة العبرانية والتي كنت عارفاً بها منذ طفولتي وتمثل أمة فتية تصورها معظم الأمريكيين، وإسرائيل الأخرى وجدت داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، ولها سياسات تشكلت عن طريق رفض الاعتراف والاحترام للحقوق الإنسانية الأساسية للمواطنين. وليس هذا وحسب، بل إن المتفائلين تفاؤلاً أكبر اعتقدوا أن المقاتلين سيصيرون لا محالة أكبر نشاطاً في كلا الجانبين، وذلك حين تتوسع المستوطنات ويتصارع اليهود والعرب من أجل قمم التلال نفسها، والمراعي نفسها، والحقول نفسها، والماء نفسه.

الفصل السابع

زياراتي مع الفلسطينيين

في أثناء زياراتي المنتظمة إلى حد ما للشرق الأوسط في السنوات العشر الأولى بعد مغادرة البيت الأبيض، كنت أريد على وجه الخصوص أن أتعلم المزيد عن الشعب الفلسطيني كيف كان الفلسطينيون يعيشون، وما الذي كان يهمهم، وكيف كان رد فعلهم على وجودهم تحت الاحتلال السياسي والعسكري الطويل، وماذا قد يقترحون من علاقة سلمية مع إسرائيل. وبحثت عن نموذج ممثل من الأصوات المتنوعة. واستمعت في القاهرة، وعمان، والرياض، وبيروت، ودمشق، والرباط، وفي صفوف العلماء في أمريكا، استمعت إلى منظوراتهم عن نزاع الشرق الأوسط حسبما يتعلق بهم وباللاجئين الذين تحملوا المسؤولية من أجلهم.

وعلى الرغم من أنني دعوت علناً إلى أن يمتلك الفلسطينيون وطنهم الخاص بهم بعد أن صرت رئيساً ببضعة أسابيع فقط وعززت الوضع القانوني والسياسي للفلسطينيين في أثناء مفاوضات كامب ديفيد، فإننا لأول مرة نقوم في أثناء هذه الرحلات الأخيرة، روزالين وأنا، بزيارات على نطاق موسع في صفوف الزعماء السياسيين الفلسطينيين والعائلات العادية في الأراضي المحتلة. وكان تواصلي الرئيسي من خلال بيت الشرق، وهو المكتب الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية في القدس، حيث تلقيت المعلومات والمشورة من فيصل الحسيني، وحنان عشراوي، ومبارك عوض، وكان هذا الأخير مسيحياً كرس جهوده من أجل اللاعنف. وتعاون معي أيضاً الدبلوماسيون الأمريكيون في التخطيط للمقابلات وتنظيم جدول رحلاتنا. وفي الضفة الغربية وغزة، أمضينا أكثر ما أمكن من الوقت مع فلسطينيين من مختلف المهن والبيئات ونواحي الحياة في المجتمعات الواسعة والصغيرة في المناطق الريفية. وبعض من قابلناهم كانوا من بين أفصح الفصحاء وكانوا محامين من الذين نشطوا في الدفاع عن حقوق جيرانهم في المحاكم العسكرية الإسرائيلية، وبعضهم كانوا أساتذة في الجامعة، وعدد لا بأس به

كانوا من الفلاحين أو القرويين. وكلهم أرادوا أن يصفوا حياتهم المحاصرة في الأراضي المحتلة.

معظم الفلسطينيين كانوا مسلمين ولكن عدداً مثيراً للدهشة كان من المسيحيين، وقد تحدثت مع كثيرين من الرهبان والكهنة حول واجباتهم الدينية. لقد كانوا منزعجين من العنف الجاري حولهم ومن الضغوط السياسية والاقتصادية التي يمارسها زعماء الحكومة، وهي الحكومة التي تمثل الأحزاب الدينية الإسرائيلية المحافظة جداً، وهي الأحزاب التي مُنحت السيطرة الحصرية تقريباً على كل أشكال العبادة.

وكانت لقاءاتنا تتم في بيوت خاصة، وفي مكاتب البلدية، أو في المستشفيات، أو في فصول الدراسة الفارغة، أو في مؤخرات المحلات التجارية أو المستودعات، والكنائس والمساجد. وفي كل حالة تقريباً، رتب أولئك الذين وافقوا على الاجتماع معنا بأن يحضر معهم بضعة أفراد من أعضاء العائلة أو الأصدقاء. وقبل الدخول في مناقشات أكثر جدية، ارتشفنا القهوة السوداء، أو الشاي، أو الكوكا وقضمنا بعض الحلوى السكرية أو الكعك الخفيف، وتحدثنا عن الطقس أو عن انطباعاتي العامة عن المنطقة. وكان من العادة في البداية أن يكون هناك تحفظ كبير في فتح باب الكلام في أي موضوع مركز بحدة أو موضوع خلافي، ولكن سرعان ما كانت القيود تسقط ويتطور نقاش أكثر حيوية، وكثيراً ما كان يشارك فيه الحاضرون المتفرجون حتى الأطفال. وفي الاجتماعات الموسعة، كان يستطيع عدة أشخاص عادة أن يتحدثوا بالإنجليزية وبالعربية وأن يتنافسوا في بعض الأحيان في العمل مترجمين.

وبناء على مشورة المسؤولين الأمريكيين، دعونا بعض الجماعات الخاصة من الذين كانوا موضع اعتراف بوصفهم قادة فلسطينيين للاجتماع معي في القدس في القنصلية الأمريكية، وهي المكان الذي كانت تدار فيه علاقات أمتنا مع الضفة الغربية. وكانت هذه الجلسات رسمية أكثر من غيرها ولكنها لم تكن أقل كشفاً. وقدم المشاركون آراءهم مثلما يكتب المحامون موجزاً: بشكل متبصر، وبناء، وكامل ويقدمونها في الغالب مع وثائق لإثبات قضيتهم.

في كل الاجتماعات، حاولت أن أقدم آرائي حول الحاجة إلى نهاية للعنف وإلى اتصال أفضل في صفوف الفلسطينيين، والإسرائيليين، وشعب الولايات المتحدة. وبدا وصفي لاتفاقيات كامب ديفيد وللسياسة الأمريكية الأساسية المتعلقة بالفلسطينيين وكأنه أخبار جديدة بالنسبة إلى الكثيرين منهم، وكان واضحاً أن قبولهم لأي اقتراح من هذه المقترحات سوف يتوقف بشكل مكثف على تفسير منظمة التحرير الفلسطينية. وعبر بعضهم عن الأمل بأن عرفات سيوافق.

هذه الأنواع من القضايا التي تخص اتفاقية سلام عامة كانت جزءاً صغيراً من المناقشات. وكان ما أراده الفلسطينيون هو تسجيل قائمة بمظالمهم الحالية. وفي إحدى الزيارات إلى غزة، كنا ضيوفاً على عائلة بارزة كانت تعمل في الزراعة، والأعمال، والتجارة الدولية. وقد علمنا ذلك بعد أن كان أحد أبناء العائلة حديثاً قد أدلى ببيان ناقداً للاحتلال الإسرائيلي، فأدى ذلك إلى حجز حمولة خمس شاحنات لوالده محملة بالبرتقال عند عبور جسر اللنبي إلى الأردن لعدة أيام إلى أن فسدت الفاكهة. وكان هذا قسماً كبيراً من محصولهم الإجمالي للعام كله. وقد أرانا الأب الشاحنات غير المفرغة جزئياً وقال إنه كان يحاول أن يتخلص من البرتقال الفاسد بتقديمه طعاماً لحيوانات المزرعة.

وبعضهم أرانا حطام بيوتهم السابقة، التي كانت قد دمرت بفعل جرافات اليهود وديناميتهم، ويترافق التدمير مع ادعاءات إسرائيل بأن تلك البيوت كانت قد بنيت على مسافة قريبة جداً من المستوطنات الإسرائيلية، أو أنها بنيت على ممتلكات كانت تحتاج إليها الحكومة الإسرائيلية، أو أن أحد أفراد الأسرة كان تهديداً أمنياً.

ولدى تقويم هذه الادعاءات من المنظمة الإسرائيلية لحقوق الإنسان بيت سيليم، شرحت هذه المنظمة أن اثنتي عشرة أسرة بريئة، في المتوسط، فقدت بيوتها في مقابل كل شخص متهم بالمشاركة في هجمات ضد الإسرائيليين، ويتبين أن نصف البيوت المدمرة تقريباً لم يسبق أبداً أن سكنه أي شخص متهم بالمشاركة في أي عمل عنيف ضد إسرائيل، ولو في قذف الحجارة.

وعلى النقيض من حجة قوات الدفاع الإسرائيلية أمام المحكمة العليا التي تقول إن الإنذار المسبق كان قد أعطي لأصحاب البيوت إلا في الحالات الاستثنائية، فإن

أرقام بيت سيليم أشارت إلى أن هذا الإنذار كان قد أعطي في نسبة أقل من 3 بالمائة من الحالات. وبالإضافة إلى التدميرات العقابية، فإن إسرائيل قد دمرت حتى سوّت بالأرض من البيوت الفلسطينية أعداداً أكبر بكثير في عمليات "تطهير"، ويضاف إلى ذلك البيوت التي ادعت أنها كانت قد بنيت من دون ترخيص. وكل هذا التدمير كان على أرض الفلسطينيين. وتوصلت بيت سيليم إلى القول: "إن سياسة إسرائيل من التدميرات العقابية تشكل خرقاً خطيراً للقانون الإنساني الدولي، ولذلك فهي جريمة حرب. ومن خلال تنويعة من البهلوانيات القانونية، تجنبت محكمة العدل الإسرائيلية العليا التدقيق القضائي في القضية، وهي بذلك خدمت بصفة ختم مطاطي، هيئة توافق بدون مبالاة، وتختم على السياسة غير القانونية لإسرائيل".

وزارت روزالين أكبر مستشفى في غزة، وقال لها الأطباء إن لديهم صعوبة كبيرة في توفير النقل لمرضى في حالات حرجة. وقد أروها صفاً من سيارات الإسعاف كانت قد قدمت لهم من أمة أوروبية وقالوا إنهم لا يستطيعون أن يستخدموها. وادعوا أن المسؤولين الإسرائيليين رفضوا أن يصدروا لوحات مرخصة لأن الهيكل المعدني لسيارة الإسعاف كان أطول باثني عشر إنشاً. وحين روت لي روزالين هذا، وعدت أن أتوسط مع المسؤولين اليهود حين أعود إلى القدس. ورفضوا مخاوفي بشرح قال إنه كانت هناك تهديدات أمنية خطيرة من عبور البضائع المحظورة من غزة وإليها، وإن السيطرة المتشددة كانت مطلوبة على أبعاد قياسات كل المركبات. وما كان يمكن أن يعطى الفلسطينيون تراخيص خاصة للتشغيل ولو لسيارات الإسعاف التي ابتعدت عن المعايير الموضوعة من قبل الضباط العسكريين المحليين.

لقد أكد كثيرون من الفلسطينيين أنهم قد حرموا من معظم حقوقهم الإنسانية الأساسية. فهم لا يستطيعون أن يجتمعوا اجتماعاً سلمياً، ولا أن يسافروا من دون قيود، أو أن يتملكوا ملكية من دون خوف من مصادرتها تحت حشد من الخدع القانونية. وبصفتهم شعباً، فإنهم قد وصموا من المسؤولين الإسرائيليين بصفة الإرهابيين، وليس هذا فحسب، ولكن التعبيرات الصغيرة أيضاً عن الانزعاج جلبت أقسى العقاب من السلطات العسكرية. وادعوا أن أهلهم كانوا معتقلين ومحجوزين من دون محاكمة طوال مدد ممتدة طويلاً، وبعضهم تعرض للتعذيب في محاولات

لإجبارهم على تقديم الاعترافات، وعدد منهم أعدم، وعقدت محاكماتهم في الغالب ومتهموهم هم الذين يعملون قضاة لهم. ومحاموهم الخاصون لم يسمح لهم بالدفاع عنهم في المحاكم الإسرائيلية، وكانت الاستئنافات مكلفة الثمن، وتؤخر تأخيراً طويلاً، وهي في العادة عقيمة بلا ثمرة.

وادعوا أن أي تظاهرة ضد إساءات الإسرائيليين كانت تؤدي إلى اعتقالات جماعية للفلسطينيين، ومن جملتهم الأطفال الذين يرمون الحجارة، والمتفرجون الذين لم يشاركوا، وعائلات المحتجين، والذين يعرفون بالإدلاء بتصريحات تنتقد الاحتلال. وبعد أن يسجنوا، لا يبقى لهم غير أمل ضئيل في محاكمة عادلة وهم في الغالب لا يملكون أي اتصال مع عائلاتهم أو مع مشورة قانونية. وإذا عرضت عليهم التهم، فإن الجرائم المزعومة توصف عادة بتعابير عامة جداً مساوية للقول "تعكير السلام" وتكون الأحكام غالباً مدداً غير محددة. ومعظم القضايا جرت محاكماتها في محاكم عسكرية، ولكن 90 بالمائة من المحتجزين كان يجري حجزهم في سجون مدنية. وقد أشاروا إلى أن هذه السياسة التي تقبض على آلاف السجناء مست كل عائلة فلسطينية تقريباً وكانت مصدراً كبيراً لتوليد آلام السخط الحارقة.

وحثثتهم على رفع أقوى حالات الاختبار إلى المحكمة الإسرائيلية العليا وحاولت أن أؤكد لهم أنهم سيحصلون على محاكمة عادلة وربما يشكلون سوابق ستكون مفيدة في قضايا مشابهة. ورد واحد من المحامين بقوة: "لقد جربنا هذا بتكلفة كبيرة. إنها ببساطة لم تعمل. ليس النظام مثل النظام الأمريكي، حيث يتم اتباع الحكم الصادر في المحاكم العليا اتباعاً دقيقاً من كل المحاكم التابعة. هنا يوجد نظام واحد تحت قضاة مدنيين ونظام آخر تحت العسكريين. ومعظم قضايانا، ولا يهم ما قد يكون الموضوع، تأتي تحت العسكريين، إنهم متهمونا، وقضاتنا، ومحلفونا، وكلهم يظهرون على نفس الشاكلة لنا. وحين يتخذ قرار محكمة مدنية نادر لصالحنا، لحماية قطعة صغيرة من الأرض، على سبيل المثال، لا ينظر إلى القرار بصفته سابقة. وبقرار إداري أو بأمر إداري تولد إجراءات جديدة لتحقيق الغايات الإسرائيلية نفسها بطراز مختلف"، وأضاف يقول: " ونحن لا نستطيع أن

نرفع قضية موكلنا إلى خارج الضفة الغربية إلى محكمة إسرائيلية. فنحن غير مصرح لنا أن نمارس ذلك".

وسألت: "فلماذا، إذاً، لا تستخدمون محامياً إسرائيلياً؟"

وأجاب: "أحياناً نفعل ذلك، ولكن قلة منهم ستأخذ قضايانا. والمحامون الذين سيفعلون ذلك مشغولون بشكل مفرط ثقيل مع موكليهم العرب الذين يعيشون في إسرائيل. وحاول واحد أو اثنان من أعضاء الكنيست اليهود أن يكون مساعداً وهم في الأغلب أكثر الأعضاء ليبرالية".

وباستثناء العرب الذين اختيروا من الإسرائيليين لمعالجة الواجبات المكتبية (البيروقراطية) وتوزيع الرعاية السياسية، فإن الفلسطينيين الذين قابلناهم كانوا مساندين أقوياء لمنظمة التحرير الفلسطينية. ونادراً ما قام أي شخص بنقد مباشر لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولكن محامياً فلسطينياً واحداً اشتكى من أن عرفات وهم يسمونه دائماً أبو عمار وقادة آخرين لمنظمة التحرير الفلسطينية "أكثر اهتماماً بالصراعات من أجل السلطة السياسية والمال من اهتمامهم بمحنة الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري". وكانت إدانتهم الرئيسية مقسمة بالتساوي تقريباً بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وقد نددوا ببلدنا بسبب تمويل المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة وبسبب دعم العمليات العسكرية ضد البلدان العربية.

وكانت هناك شكوى بالإجماع في صفوف القادة السياسيين الفلسطينيين وآخرين غيرهم من أن أسوأ حالة من إساءة المعاملة وأشدها استمراراً كانت في الخليل، التي تقع على بعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القدس، وهي البلدة التي يدفن فيها الآباء المذكورون في الكتاب المقدس إبراهيم، وإسحق، ويعقوب. إن حوالي 450 يهودياً مقاتلاً متطرفاً للغاية قد تحركوا إلى قلب الجزء القديم من المدينة، وهم محميون من عدة آلاف من القوات الإسرائيلية. وهؤلاء المستوطنون المسلحون تسليحاً ثقيلاً يحاولون أن يطردوا الفلسطينيين بعيداً عن المواقع المقدسة، وهم في الغالب يضربون الذين يعتبرون أنهم "متعدون" ويوسعون منطقتهم بمصادرة البيوت المجاورة ويخلقون المواجهات المادية عامدين. وحين يحدث هذا، تفرض القوات العسكرية منع التجول مرات طويلة على 150.000 مواطن فلسطيني في

الخليل، وتمنعهم من مغادرة بيوتهم الخاصة ليذهبوا إلى المدرسة أو الحوانيت أو للمشاركة في الحياة العادية لمجتمع حضري. وادعى الفلسطينيون أن الغرض الواضح للنظر من التحرش هو طرد غير اليهود من المنطقة. لقد رفعت الأمم المتحدة التقارير عن أن أكثر من 150 نقطة تفتيش إسرائيلية قد تأسست في المدينة وما حولها.

كان الفلسطينيون مقتنعين أن بعض الزعماء السياسيين الإسرائيليين كانوا يحاولون من خلال التحرش أن يجبروا المواطنين على رحيل أوسع بكثير للمسلمين وللمسيحيين من الأراضي المحتلة. وادعوا أن أي سلع مصنعة أو منتجات مزارع لم يكن يسمح لها أن تباع في إسرائيل إذا كانت منافسة للمنتجات الإسرائيلية، ولذلك فإن أي فائض يهدى، أو يكدس، أو يصدر إلى الأردن. وأما الفواكه، والزهور، والخضروات القابلة للتلف التي تملكها العائلات النشيطة سياسياً فقد كانت تستبقى عند جسر اللنبي حتى تتلف، وفي بعض المناطق لم يكن يسمح للمزارعين أن يزرعوا بدلاً من أشجار الفاكهة التي تموت في بساتينهم. وكانت أشد شكاواهم ألماً تتعلق بآلاف عديدة من أشجار الزيتون القديمة التي كان يجري قطعها على أيدي الإسرائيليين. وكان الوصول إلى الماء قضية دائمة. فكل مستوطن إسرائيلي يستخدم خمسة أضعاف الماء الذي يستخدمه جاره الفلسطيني، الذي يجب أن يدفع أربعة أضعاف الثمن لكل غالون. وقد أرونا صوراً لبرك السباحة الإسرائيلية المجاورة للقرى الفلسطينية التي يجب أن ينقل فيها ماء الشرب في سيارات صهاريج ويوزع بملء السطل. ومعظم المستوطنات الموجودة على قمم التلال تقع على مساحات صغيرة من الأرض، ولذلك فإن صرف المجاري يفرغ إلى داخل الحقول والقرى المحيطة.

والمعلمون والآباء يرون أن مدارسهم وجامعاتهم كانت تغلق مراراً وتكراراً، ويعتقل رجال التربية، وتقفل مخازن الكتب بالأقفال، وتخضع المكتبات للرقابة، ويترك الطلاب في الشوارع أو في البيت لمدد طويلة من الزمن من دون أعمال. وادعوا أن أي نقاش حاد بين هؤلاء الشباب العاطلين عن العمل، والغاضبين وبين السلطات العسكرية يمكن أن يؤدي إلى إرسال الجرافات إلى المجتمع لتدمير البيوت. وكما هو متوقع اعترف الفلسطينيون باستهجان كل أعمال العنف وادعوا أن المستوطنين

المقاتلين الإسرائيليين مذنبون مثل أي عرب في المبادرة بالهجمات ولكنهم نادراً ما يقبض عليهم أو يعاقبون، أولا يحدث لهم ذلك مطلقاً.

وكانت واحدة من أشد مظالمهم مرارة هي أن العون الأجنبي المرسل من البلدان العربية لا بل الأموال المرسلة من الحكومة الأمريكية لأغراض إنسانية كان يجري اعتراضها من السلطات واستخدامها لمصلحة الإسرائيليين، ومن جملة ذلك إنشاء المستوطنات في المجتمعات الفلسطينية. وادعوا أن الحكومة استولت على أموال الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية المعدة لأجل مركز للأطفال المعاقين في غزة، وأن الأموال الأردنية والعربية الأخرى المعدة للتعليم ولتنمية صناعة تربية الدواجن في بعض أفقر المجتمعات في الضفة الغربية كان يجري إمساكها ومنعها.

وقد انزعجت من هذه التقارير وأردت أن أقرر إن كانت دقيقة، وإذا كانت كذلك، أردت أن أسمع تفسيراً لها من السلطات الإسرائيلية. وقبل مغادرة إسرائيل، اجتمعت مطولاً مع مسؤولينا الدبلوماسيين في تل أبيب والقدس ومع الإسرائيليين الذين يديرون الأمور في الأراضي المحتلة. من وجهة نظر الإسرائيليين، فإن الحياة تحت احتلال عسكري ستكون لا محالة مختلفة عن الحياة في ديمقراطية حرة، وكانت القيود القاسية تعتبر ضرورية للمنع المسبق لأعمال العنف.

وفي ما يخص مضايقة النشيطين سياسياً، فقد قيل لي إن هناك تأخيرات طويلة أحياناً على جسر اللنبي دخولاً إلى الأردن، ولكن هذه التأخيرات لم تكن مصممة لمعاقبة أي عائلات محددة. وهذه الحالة كانت هي النتيجة المحتومة للقيود الموجودة على المرور التجاري بين بلدين لم يكن لهما علاقات تجارية أو دبلوماسية طبيعية. وكان يحتفظ بقوائم بأسماء مثيري المتاعب، وتتلقى الشحنات المرسلة من عائلاتهم تفتيشاً أشد كان يؤدي أحياناً إلى تلف الشحنات. وكذلك، كان صحيحاً أن المنتجات الإسرائيلية من كل الأنواع كان لها الأسبقية في المبيعات في كل أنحاء الأراضي. وقال المسؤولون الإسرائيليون إن تدمير بيت العربي بالديناميت أو بالجرافات كان نادراً، وعمداً، وحادثة تحظى بالدعاية على نطاق عال، ومصممة لتخدم بوصفها رادعاً فعالاً للكبار الذين قد يسمحون بالأعمال غير القانونية أو يشجعون عليها الأعضاء الفتيان من عائلاتهم.

معظم ردود الإسرائيليين كانت مباشرة، ولكن أحد الاستثناءات كان اعتراض مال العون الأجنبي من قبل الإسرائيليين، الذين ادعوا أن بعض الأموال المصادرة قد يكون اتجاهها قد تحول إلى تمويل أعمال الإرهاب العربي وأن السيطرة الإسرائيلية يجب أن تكون كافية لمنع مساوئ الاستعمال التي يمكن لها أن تهدد السلام. واعترفوا أيضاً بقلق حول فائض الدجاج، أو البرتقال، أو الزهور، أو العنب، أو الزيتون، أو السلع الزراعية الأخرى التي يجري إنتاجها في الضفة الغربية وغزة وأنها قد تهدد اقتصاد المزرعة الإسرائيلية. ولم يكن معقولاً بالنسبة إلى المال الأجنبي أن يستخدم لزيادة مثل هذا الإنتاج الزراعي. وقيل لي أن بعض أموال العون الأمريكي التي خصصها مجلس الشيوخ، ولو من أجل المشاريع الخيرية، قد احتفظت بها الحكومة الإسرائيلية حين يكون ضرورياً لمنع سوء الصرف ولكن ذلك المال المحجوز لم يستخدم لبناء مستوطنات إسرائيلية في الأراضي المحتلة.

وقال لي الإسرائيليون إنه في كل حالة من الحالات كان هناك أساس قانوني لأخذ الأرض - أو أنها كانت تلزم لأغراض الأمن. وفي بعض الحالات الهامة، خدمت "التعاريف الإدارية" في التحايل على القرارات القانونية أو في تعديلها. وتلقيت لاحقاً إيجازاً من ميرون بينفينيستي، وهو إسرائيلي كان قد خدم نائباً لرئيس بلدية القدس وكان يكرس كامل وقته لتحليل محدد لسياسات إسرائيل في الأراضي المحتلة. وشرح لي، باستخدام الخرائط واللوحات، أن الإسرائيليين حصلوا على الأراضي الفلسطينية بعدد من الطرق المختلفة: بالشراء المباشر، ومن خلال الاستيلاء "لأغراض الأمن طوال مدة الاحتلال، " وبادعاء سيطرة الدولة على مساحات كانت تمسك بها سابقاً الحكومة الأردنية، و"بالأخذ" بموجب بعض الأعراف العربية المختارة بعناية أو بموجب قوانين قديمة، وبالادعاء أن كل الأرض التي لم تكن تفلح أو لم تكن مسجلة بشكل خاص بأنها مملوكة من عائلة فلسطينية، هي أرض الدولة. ونظراً إلى أن عدم الفلاحة أو الاستخدام من أجل الزراعة هو واحد من المعايير اللازمة لادعاء ملكية الدولة للأرض، فقد صارت السياسة الرسمية في العام 1983 هي أن تحرم، تحت طائلة عقوبة السجن، أي رعي أو زراعة للشجر أو المحاصيل في هذه المساحات يقوم به الفلسطينيون. وتحولت

مساحات واسعة أخذت لأسباب "أمنية" إلى مستوطنات مدنية. هذه كانت على ما يظهر مصادر بعض الشكاوي التي سمعتها.

ولم يكن مسموحاً لأي قضايا قانونية تخص قضايا الأرض هذه أن تنظر في المحاكم الفلسطينية، ويجب أن تتقرر هذه القضايا الآن من الحاكم الإسرائيلي المدني. ومنذ العام 1980، سيطر حزب الليكود على الحكومة، وكان أخذ أرض العرب قد تسارع تسارعاً عظيماً، وصار بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية إحدى الأسبقيات العالية للحكومة. وأضاف بينفينيستي أن عدد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية كان محدوداً في السابق ولكن تلك السياسات الجديدة والاتجاهات الحاضرة عنت أن المزيد من الإلحاق لمساحات محتلة ضخمة كانت على وجه الاحتمال نتيجة معروفة مقدماً. وكان صحيحاً أن المحامين الفلسطينيين لم يكن يسمح لهم أن يمارسوا المهنة في المحاكم الإسرائيلية، وهي المكان الذي كانت تحل فيه معظم قضايا الأرض، ولكنه أكد لي أن المحامين الإسرائيليين كانوا متوافرين لتمثيل بعض الفلسطينيين. وفي معظم المرات، ذكر واحد من أكثر أعضاء الكنيست راديكالية بصفته مثالاً على ذلك.

رتبت للاجتماع مع آهارون باراك، الذي كان واحداً من الأبطال في كامب ديفيد وصار لاحقاً رئيس المحكمة العليا الإسرائيلية. وتقابلنا في حانة (بار) الفندق، وبدأت بقراءة قائمة من المخاوف حول سوء معاملة الفلسطينيين، مشيراً إلى شاحنات البرتقال وسيارات الإسعاف، وبسرعة أشار باراك إلى أنه لم يكن من المناسب له قانونياً أن يناقش قضايا محددة، ولكنه شرح بأنه كان على هيئة القضاة أن تمشي في خط ضيق بين ما كان مناسباً تحت الظروف الخاصة من الاحتلال العسكري وبين حماية حقوق الشعب في الضفة الغربية وغزة. وكذلك، فإن المحاكم لا تستطيع أن تتعامل إلا مع القضايا التي عرضت أمامها فقط. واعترف أنه لم يكن من السهل للفلسطينيين المظلومين أن يجدوا طريقهم عبر هذا المسار القانوني المعذّب ولكنه قال إن المحكمة العليا حاولت دائماً أن توفر العدالة في القضايا المدنية تحت نطاق نظرها.

وسألت رئيس المحكمة العليا: هل تعتبر معاملة الفلسطينيين عادلة؟ وأجاب بأنه هو تعامل بعدل مع كل قضية عرضت أمامه في المحكمة العليا ولكنه لم

يكن يملك السلطة للمبادرة بالعمل القانوني. وسألته إن كان يشعر بالمسؤولية ليقوم بالتحقيق بالموقف الكلي، وأجاب بأنه كان يملك كل ما كان يستطيع أن يعمله في اتخاذ القرار في المسائل الفردية التي عرضت أمام المحكمة. وقال باراك إنه كان هناك أحكام قانونية خاصة تتعلق بالأراضي المحتلة وأقر بأن الكثير من أكثر القضايا حساسية كان يحول إلى المحاكم العسكرية. وحين طلبت تقويمه الشخصي للموقف في الضفة الغربية وغزة، قال إنه لم يكن في المنطقة لعدة سنوات وليس لديه خطط ليزور المنطقة. وعلقت بالقول إنه إذا كان يتعين عليه أن يتخذ قرارات تؤثر على حياة الشعب في المناطق المحتلة، يجب عليه أن يعرف المزيد عن الكيفية التي كانوا يعيشون فيها. وأجاب بابتسامة، "أنا قاض، ولست محققاً".

وفي إحدى زياراتي اللاحقة إلى القدس، في العام 1990، طلب بعض القادة المسيحيين عقد اجتماع عاجل معي، ولكني رفضت لأن كل وقتي المتبقي كان محدداً بالمواعيد. وحين ألحوا، وافقت أخيراً على أنني كنت أستطيع أن أجتمع معهم في إحدى الأمسيات، ولكن فقط بعد أن أكون قد أنهيت ارتباطي الأخير. في هذه الساعة المتأخرة، بعد منتصف الليل، فوجئت باستقبال سدنة الأماكن المسيحية المقدسة إضافة إلى كاردينالات، ورؤساء الأساقفة، وبطارقة، وقادة آخرين من اليونان الأرثوذكس، والرومان الكاثوليك، والأرمن، والأقباط. والإثيوبيين الأرثوذكس، والموارنة، والأنغليكان، واللوثريين، والمعمدانيين، والعقائد الأخرى. كانوا محزونين لما اعتبروه إساءة متزايدة وقيوداً لا داعي لها تفرض عليهم من الحكومة الإسرائيلية، وروى كل واحد منهم الحوادث التي سببت خوفه.

بعد ذلك، حين اجتمعت مع رئيس الوزراء إسحق شامير، أكد لي أنه لم يكن هناك أي ميل رسمي للتفرقة ضد المسيحيين. وتابع ليشرح أن تشكيل تحالف حكم أكثرية تطلب دعم أحزاب دينية صغيرة متدينة بعمق، وأن مطالبهم الأولى كانت بأن يعفوا من الخدمة العسكرية، وأن يتلقوا التمويل الخاص لقضاياهم الخيرية، وأن يمتلكوا السلطة على كل القضايا الدينية. وبدا لي أنه كان يعتبر هذه القضايا خارجة عن يديه، وفهمت أنا لأول مرة لماذا كان هناك مثل هذا الرحيل المفاجئ للمسيحيين من الأراضي المقدسة.

الفصل الثامن

سنوات جورج اتش. دبليو. بوش

بدت فرص السلام وكأنها تتحسن في شهر تموز/يوليو من العام 1988، حين قرر الملك حسين أن يخفض دور الأردن الإداري في الضفة الغربية، وأعلن ياسر عرفات أن منظمة التحرير الفلسطينية ستقبل عدة قرارات للأمم المتحدة وهي قرارات تعترف بحق إسرائيل بالوجود ضمن حدودها في العام 1967. ونبذ ياسر عرفات علناً الإرهاب وسيلة لتحقيق غايات منظمة التحرير الفلسطينية، ووافق على أنه مع تشكيل دولة فلسطينية مستقلة، ستكون العلاقات العادية مع إسرائيل مقبولة. واستناداً إلى هذه التصريحات، بدأ دبلوماسيو الولايات المتحدة محادثات استطلاعية مع مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية.

وساعدت سياسات الشفافية التي جاء بها الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف على إنهاء الحرب الباردة، وهو ما جعل من الممكن للقوتين الكبريين أن تتعاونا، وفي الوقت نفسه، فقدت سورية والأمم العربية الأخرى دعمها السياسي والعسكري القوي من موسكو وصارت أكثر استعداداً لتخفيف التوتر في المنطقة. وقبل الزعماء العرب أن تعود مصر إلى الجامعة العربية في شهر أيار/مايو من العام 1989، وفي ذلك العام نفسه سمح الاتحاد السوفيتي لمئات الآلاف من اليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل.

وقد فهم وزير الخارجية جيمس بيكر الحاجة إلى تخفيف التوتر في الشرق الأوسط، وفي شهر أيار/مايو من العام 1990 بين للمؤتمر السنوي لمنظمة جماعة الضغط القوية الموالية لإسرائيل إيباك المتطلبات الأساسية للسلام: "الآن هو الوقت لتوضع جانباً بشكل دائم نهائي رؤية إسرائيل الكبرى غير الواقعية... نبذ الإلحاق، ووقف النشاط الاستيطاني، ومحاولة التواصل مع الفلسطينيين بوصفهم الجيران الذين يستحقون حقوقاً سياسية".

وكان لهذه البيانات أثر مفيد في الشرق الأوسط. وعلى سبيل المثال، حين زرت دمشق في العام 1990، أعلمني الرئيس الأسد أنه كان مستعداً للتفاوض مع إسرائيل عن وضع مرتفعات الجولان. وكان اقتراحه أن يقوم الطرفان كلاهما بالانسحاب من الحدود الدولية، مع وجود قوة صغيرة من المراقبين الأجانب والوسائط الإليكترونية لمراقبة المنطقة المحايدة. وحين سألته إن كان سيتعين على كل أمة أن ترجع إلى مسافة متساوية، أجاب إن سورية قد تحرك قواتها إلى مسافة أبعد عن الحدود بسبب الأرض. وأعطاني الإذن أيضاً بأن أبلغ مقترحه إلى واشنطون وإلى الإسرائيليين، وهو ما فعلته في القدس بعد ثلاثة أيام. وفي الشهر التالي اجتمعت مع ياسر عرفات وقادة آخرين من منظمة التحرير الفلسطينية في باريس، وقد وافقوا جميعهم على أن يقبلوا اتفاقات كامب ديفيد أساساً للمفاوضات المستقبلية مع الإسرائيليين.

وكالمعتاد، أبلغت هذه المحادثات إلى البيت الأبيض وإلى وزارة الخارجية، ولكن واشنطون كانت مشغولة بشكل كامل تقريباً بالاحتلال العراقي للكويت.

ولم يكن هناك قيادة أمريكية مستمرة في عملية السلام في الشرق الأوسط إلى ما بعد حرب الخليج ضد العراق في ربيع العام 1991، حين قام بيكر بعدة رحلات إلى المنطقة. وهذه العودة ثانية جعلت من الممكن عقد مؤتمر سلام في مدريد في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1991، وقد عقد بشكل مشترك من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحضرته إسرائيل، وعدة بلدان عربية تشمل الأردن، ولبنان، وسورية والفلسطينيون من الأراضي المحتلة. وبعد ذلك، استضافت الولايات المتحدة عشرات الجولات الرسمية من المحادثات الثنائية، وهدفت إلى الوصول إلى اتفاقيات سلام بين إسرائيل وبين جيرانها المباشرين. وعالجت النقاشات التي دارت بين إسرائيل والفلسطينيين اتفاقية مؤقتة لخمس سنوات مع الآمال في مفاوضات على قضايا الوضع الدائم. وعلى الرغم من أن جهود مدريد لم تجلب حلاً محدداً للقضايا، فإن استعداد المشاركين لتواصل أحدهم مع الآخر خفض التوترات الإقليمية وجدد الأمل بتقدم مستقبلي نحو السلام.

ومع ذلك، وضعت إسرائيل مصادرة أرض الفلسطينيين قبل السلام، واستفزت بذلك بياناً رسمياً صدر عن البيت الأبيض: "إن الولايات المتحدة عارضت النشاط

الاستيطاني، وسوف تستمر في معارضته في الأراضي المحتلة في العام 1967، وهو نشاط يبقى عقبة في طريق السلام". ومن وزارة الخارجية أضاف وزير الخارجية بيكر: "لا أعتقد أن هناك أي عقبة في طريق السلام أكبر من النشاط الاستيطاني الذي لا يستمر بكامل قوته فقط بل بخطوة متقدمة". وطلب الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش، وكان ذلك برهاناً آخر على جديته، تجميداً للإسكان الذي كان يجري بناؤه أو خطط لبنائه، وخصوصاً المجمع الضخم الواقع بين القدس وبيت لحم. وحين هدد أخيراً باحتجاز قسم من 10 ملايين دولار يومياً من حزمة إعانة، زائداً ضمانات القروض، من الولايات المتحدة، امتثلت الحكومة الإسرائيلية وتمت الموافقة على المنح والقروض الأمريكية - ولكن مع خصم مبلغ 400 مليون دولار، وهو المبلغ الذي كان قد سبق لإسرائيل أن صرفته على النشاط الاستيطاني. بعد ذلك، بعد أن لم يبق الرئيس بوش في المنصب، لاحظت أن هذا الاستيطان الكبير كان يجري استكماله على نحو سريع.

وتغيرت القيادة السياسية في إسرائيل عدة مرات في أثناء هذه المدة، ومنها تشكيل حكومة وحدة وطنية حولت السلطة جيئة وذهاباً بين زعماء العمل والليكود. وبعد نصر انتخابي في شهر حزيران/يونيو من العام 1992، كان حزب العمل قادراً على تشكيل تحالف تحت قيادة رئيس الوزراء إسحق رابين، من دون مشاركة الليكود. وأوضحت إسرائيل حينئذ بجلاء رغبتها في تسوية الخلافات مع الفلسطينيين ومع سورية، وجيرانها الآخرين، وكان رد فعل العرب إيجابياً على نحو يبعث على الدهشة.

الفصل التاسع

اتفاقية أوسلو

لقد كان في أثناء هذه الفترة من الشعور الودي النسبي تحت قيادة رابين، ومن دون اشتراك أمريكا، أن قام وزير خارجية النرويج يوهان هولست، والأستاذ تيري لارسون، وزوجتاهما بتنسيق محادثات سلام سرية لدرجة عالية بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكان وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز ووكيل وزارة الخارجية يوسي بيلين قد عقدا سلسلة من عشرات الجلسات، ومعظمها في أوسلو، مع فريق ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، الذي رأسه محمود عباس (أبو مازن) وأحمد قريع (أبو علاء). وفي أثناء الشهور الأولى من العام 1993، أبقاني كل من بيريز وعرفات على اطلاع على هذه الجهود.

كنت في القسم الشمالي من اليمن في شهر آب/أغسطس من العام 1993 حين تلقيت طلباً مستعجلاً من عرفات لمقابلته في صنعاء. وعدت إلى المدينة العاصمة بالطائرة العمودية ووجدت زعيم منظمة التحرير الفلسطينية بحالة لا يتمالك فيها نفسه من التأثر تقريباً. وأخبرني أن محادثات السلام كانت ناجحة وأن الإسرائيليين كانوا يطيرون إلى الولايات المتحدة لإعلام إدارة كلينتون حول الإنجاز. وفوق كل شيء آخر، أكد عرفات الحكم الموجود في الاتفاقية الذي كان يدعو إلى تشكيل سلطة وطنية فلسطينية مع انتخاب رئيس وأعضاء المجلس الوطني.

بعد بضعة أسابيع، دعينا، روزالين وأنا، إلى حفل توقيع في البيت الأبيض، حيث رأس الرئيس كلينتون الاجتماع وكان رئيس الوزراء رابين والرئيس عرفات يعتزمان الإدلاء بتصريح علني عام عن السلام. وقد أوصلني الدليل إلى مقعد بارز بين المراقبين، إلى جانب المسؤولين العامين الآخرين، وكانت زوجتي خلفي بصف أو صفين. وقد دهشت وأحسست بالحرج لرؤية النرويجيين هولست ولارسون، بعيدين في الخلف بين الجمهور وللملاحظة أن دورهما الأساسي في جهود السلام لم يذكر.

وباختصار، كفلت اتفاقية أوسلو انسحاباً على مراحل للقوات العسكرية الإسرائيلية من الضفة الغربية، وتأسيس سلطة حاكمة فلسطينية من مسؤولين يتعين أن يكونوا منتخبين، وفترة فاصلة من خمس سنوات سيتم التفاوض في أثنائها على أصعب القضايا وأكثرها تحديداً. وعلى الرغم من أن رابين، وبيريز، وعرفات جميعهم تسلموا جائزة نوبل للسلام في مقابل إنجازهم التاريخي، فقد كانت هناك معارضة شديدة من عناصر راديكالية في كلا الجانبين.

وفي شهر أيلول/سبتمبر من العام 1993، أرسل الرئيس عرفات رسالة، هي جزء من الاتفاقية، إلى رئيس الوزراء رابين أكد فيها عرفات تأكيداً واضحاً لا لبس فيه أن منظمة التحرير الفلسطينية اعترفت بحق إسرائيل بالوجود في سلام وأمن، وقبلت قراري مجلس الأمن في الأمم المتحدة اللذين يحملان الرقم 242 والرقم 338، وألزمت نفسها بحل سلمي للنزاع، ونبذت استخدام الإرهاب والأعمال الأخرى من العنف، وأكدت أن تلك المواد من ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية التي تنكر حق إسرائيل في الوجود لم تبق صحيحة بعد ذلك، ووعدت بأن تقدم هذه الالتزامات إلى المجلس الوطني الفلسطيني من أجل التغييرات الرسمية للميثاق.

وعلى الرغم من أن إسرائيل اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الوحيد للفلسطينيين في مفاوضات السلام ووعدت بخمس سنوات أخرى من التقدم الإضافي، فإن عرفات فشل في الحصول على تنازلات محددة أخرى تخص جدولاً زمنياً لانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. وفي الواقع، فإن ما حصل عليه من اتفاقية أوسلو كان ضمان تنظيم شكل من الحكومة الفلسطينية والبقاء في السلطة كي يستطيع إدارة القضايا الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. لقد أراد الإسرائيليون أكثر بكثير وحققوا ذلك.

يجب أن يذكر أن وضع الإسرائيليين في الضفة الغربية وغزة كان تغير تغيراً مؤثراً (دراماتيكياً) في العام 1987 مع الانتفاضة الأولى. فقبل ذلك، كان اليهود الإسرائيليون في الضفة الغربية قد امتلكوا الحرية الكاملة تقريباً للحركة الآمنة واحتاجوا إلى الحد الأدنى من الحماية العسكرية حوالي 10.000 جندي في كل الأراضي المحتلة. والإدارة المنسجمة نسبياً للشؤون المحلية على أيدي الوجهاء الفلسطينيين المحترمين كانت قد استبدل بها من قبل في العام 1981، على يد آرييل

شارون، بعض "روابط القرى" وكانت مشكلة في الغالب من فلسطينيين منبوذين كانوا مستعدين ليكونوا مستأجرين من اليهود. وساد الانشقاق والخطر. ومع مجيء العام 1988، لم يكن أي إسرائيلي يستطيع أن يسافر في المنطقة من دون أدلاء فلسطينيين وبعض الضمان المسبق للمرور الآمن، وكان 180.000 جندي إسرائيلي قد نشروا لحماية المستوطنين وصون السلام. ومع اتفاقية أوسلو، كانت خطة إسرائيل هي أن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية سيتولى المسؤولية عن الإدارة المحلية، وهو حر في استلام وتوزيع (أو ربما استبقاء قسم من) الدعم المالي الدولي الذي سيكون متوافراً للفلسطينيين.

وبعد أوسلو، أكد رئيس الوزراء رابين أن الاتفاقية التي تم تكريمه من أجلها قد تجنبت القيود الشديدة التي قبلها مناحيم بيغن في كامب ديفيد:

"نحن أنفسنا حصلنا على هذا التنازل من الفلسطينيين ـ من أولئك الذين يجب على المرء أن يعقد معهم مثل هذه الصفقات من دون أي وعود أمريكية مثلما هو في اتفاقيات كامب ديفيد. والمستوطنات اليهودية سوف توضع تحت النظام القضائي الإسرائيلي الحصري، ومجلس الحكم الذاتي [الفلسطيني] لن يكون له أي سلطة على المستوطنات. وسوف يعاد نشر قوات الجيش الإسرائيلي في مواقع تتقرر منا نحن فقط، بخلاف اتفاقات كامب ديفيد التي تطلبت انسحاباً من قوات الجيش الإسرائيلي. في الاتفاقية التي توصلنا إليها لم نوافق على استخدام صيغة "انسحاب قوات الجيش الإسرائيلي" إلا حين كانت تنطبق على قطاع غزة. وفي الانطباق على كل الأماكن الأخرى فإن اللفظة الوحيدة المستخدمة هي "إعادة الانتشار".... أنا أفضل أن يكون الفلسطينيون قادرين على تدبير مشكلة فرض النظام في غزة. سيكون الفلسطينيون أفضل منا في ذلك لأنهم لن يسمحوا برفع استئنافات إلى المحكمة العليا، وسيمنعون رابطة حقوق الإنسان [الإسرائيلية] من نقد الظروف هناك عن طريق حرمانها من الوصول إلى المنطقة. وسيحكم الفلسطينيون هناك بأساليبهم الخاصة، ويحررون جنود الجيش الإسرائيلي وهذا هو الأهم من التزامهم بأن يفعلوا ما سيفعلونه هم".

وأعطت اتفاقية أوسلو لإسرائيل ميزة رئيسية وهي التخلص من المسؤولية عن الظروف المعيشية وعن رعاية سكان الأراضي الذين يتزايدون زيادة سريعة، وهم ما زالوا مع ذلك تحت السيطرة الكاملة للقوات الإسرائيلية.

وفي الحال استكمل رئيس الوزراء رابين اتفاقية سلام مع الأردن وأعلن استعداده للتفاوض مع السوريين، واستكمل هو وعرفات اتفاقية في شهر أيار/مايو من العام 1994 وهي التي تنطبق على قطاع غزة وعلى أريحا ومحيطها. وعالجت أربع قضايا رئيسية: الترتيبات الأمنية، والشؤون المدنية، والمسائل القانونية، والعلاقات الاقتصادية، وتعهدت بانسحاب القوات العسكرية الإسرائيلية من عدد من المجتمعات الفلسطينية، ومن جملتها غزة، وأريحا، وتحويل بعض السلطة المدنية من الإدارة المدنية الإسرائيلية إلى السلطة الفلسطينية. وكان هناك أيضاً التزام بالانتخابات لتشكيل هيكل حكومي للفلسطينيين. وأصيب الأمل في المزيد من الخطوات نحو السلام بعد اتفاقية أوسلو بضرر بالغ الشدة باغتيال رابين في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1995 على يد متعصب ديني إسرائيلي من الجناح اليميني، الذي صرح أن غايته كانت إعاقة سير عملية السلام.

كان ما زال هناك بعض حسن النية المتبقية من أوسلو بعد شهرين، مثلما أشير إليه في هذا الاقتباس من مذكرات الرئيس كلينتون، حياتي:

"جاء شيمون بيريز لرؤيتي لأول مرة بوصفه رئيس وزراء، ليؤكد ثانية نية إسرائيل أن تسلم غزة وأريحا، ومدناً كبيرة أخرى و450 قرية من الضفة الغربية إلى الفلسطينيين بحلول عيد الميلاد وإطلاق سراح ألف 1000 آخرين على الأقل من السجناء الفلسطينيين قبل الانتخابات الإسرائيلية القادمة".

الفصل العاشر

الانتخابات الفلسطينية

1996

إن أحد أهم التزامات مركز كارتر هو أن يروج الديمقراطية في الأمم التي تواجه خبرتها الأولى مع الانتخابات أو أنها تملك حزباً حاكماً قوياً جداً (أو فاسداً) وهو ما يجعل مرشحي المعارضة مترددين في السعي إلى الحصول على منصب. وعلى الرغم من أننا لا نملك أي سلطة على الناس المحليين، فإننا نستجيب لطلبات تقدم لنا من الحكومات، ومن الأحزاب السياسية، ومن مسؤولي الانتخابات الوطنية كي نشارك معهم. ونظراً إلى أن وقتنا وتمويلنا محدودان، فإننا نعرض خدماتنا فقط حين نعتقد أن حضورنا ضروري لضمان انتخابات حرة وعادلة. وقد قامت زمر مركز كارتر بمراقبة أكثر من ستين عملية انتخابات، ولكن ثلاثة من أكثرها إثارة للاهتمام، والتحدي والأهمية كانت للشعب الفلسطيني.

وعلى الرغم من أني اجتمعت مع قادة منظمة التحرير الفلسطينية الآخرين في مصر وسورية ابتداء من العام 1983، فإن أول اجتماع شخصي لي مع ياسر عرفات كان في أثناء زيارتي إلى باريس في شهر نيسان/إبريل من العام 1990. وكانت روزالين معي لتدون الملاحظات، وكانت مع عرفات حاشية كبيرة من قادته الكبار. وكان ودوداً بشكل يبعث على الدهشة، ومن الواضح أنه كان شاكراً لمناقشة قضايا فلسطينية مباشرة مع أمريكي بارز. وكان مرافقوه يعاملونه بتبجيل عظيم، ولكن عرفات كان متردداً في إعطاء أي إجابات واضحة للأسئلة الجوهرية والحساسة من دون أن يكون له فرصة ليصل إلى إجماع في صفوف الفئات المتنافسة العديدة داخل منظمته. وعبر عن أسفه عن أنه رفض اتفاقات كامب ديفيد، مقراً أنه لم يكن قد درس كل شروطها، ومن جملتها انسحاب القوات الإسرائيلية العسكرية والسياسية من الأراضي المحتلة. عرف أنني كنت قد دعوت إلى وطن للفلسطينيين، وأشار إلى أن العملية الديمقراطية سيتعين أن تكون أول خطوة، وحثني على أن أنظر في المساعدة لضمان أن يكون الفلسطينيون قادرين على أن

ينتخبوا حكومتهم الخاصة بهم. ووعدت بأن مركز كارتر وأنا، حين يأتي أي نوع من الانتخاب، سنكون منغمسين بذلك انغماساً عميقاً - على شرط أن نستطيع الحصول على موافقة من إسرائيل. ودفعته إلى الوفاء بوعده في أوسلو لتعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية لتقبل وجود إسرائيل، ولكنه كان ملتبساً غير قاطع في جوابه.

ولم يسبق للزعيم الفلسطيني أن كان له أي اتصال مباشر مع الزعماء الإسرائيليين ولكنه كان على معرفة تماماً بالفئات السياسية المختلفة التي كانت تتنافس من أجل القيادة في القدس. وتظهر ملاحظاتي أنه كان لديه أسئلة محددة عن رئيس الوزراء شامير وعن بعض السياسيين الذين هم أفتى منه، ومن جملتهم يوسي بيلين (الذي فاوض لاحقاً للوصول إلى مبادرة جنيف) وأسئلة عن أيهود أولمرت (الذي سيصير رئيساً للوزراء). وعلى الرغم من أنني كنت أملك موافقة غير رسمية من وزير الخارجية جيمس بيكر على ما كان يفترض أن يكون اجتماعاً خاصاً، فقد قررنا أن نقبل دعوة آخر دقيقة من الرئيس فرانسوا ميتران لنزوره في قصر الإليزيه. وهذه الزيارة تحولت إلى أن تكون حادثة معلنة إعلاناً واسعاً، وهو ما سبب لي بعض الانزعاج ولكنها كانت زيارة مرضية جداً بالنسبة إلى عرفات.

حافظت على التواصل مع القادة الفلسطينيين بعد هذا اللقاء التمهيدي، وحين وافقت إسرائيل على انتخابات للرئيس ولأعضاء المجلس التشريعي بوصفها جزءاً من اتفاقية أوسلو، كرر عرفات طلبه إلى مركز كارتر. وقبلنا المسؤولية إلى جانب منظمة نتعاون معها في الغالب، وهي معهد الديمقراطية الوطني، وهي منظمة غير ربحية مكرسة لتقوية الديمقراطية. وكانت هذه الخبرة مثيرة للاهتمام، وهي التي أوضحت العديد من المشكلات والتحديات في الأرض المقدسة. حين وصلنا هناك في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1996، كان من الواضح أن الإسرائيليين امتلكوا السيطرة الكاملة تقريباً على كل مظهر من الوجود السياسي، والعسكري، والاقتصادي للفلسطينيين داخل الضفة الغربية وغزة. والمستوطنات الإسرائيلية قد انتشرت في كل أنحاء الأراضي المحتلة، والطرق السريعة التي تصل المستوطنات الواحدة بالأخرى، والتي تصلها مع القدس كان يجري بناؤها على وجه السرعة، مع كون الفلسطينيين ممنوعين من استخدام بعض الطرق الرئيسية أو

عبورها. وإضافة إلى ذلك، فإن أكثر من مائة نقطة تفتيش إسرائيلية دائمة أعاقت المسارات التي مازالت مفتوحة لمرور الفلسطينيين، سواء أكانوا مشاة أم راكبي سيارات.

وبعد الاجتماع مع أعضاء آخرين من فريقنا المراقب، عقدت جلسات مع الدبلوماسيين الأمريكيين، ومستطلعي الرأي الفلسطينيين، والمرشحين السياسيين، وأعضاء لجنة الانتخابات. وعلمت أن اللجنة لم يمض على وجودها غير أربعة أسابيع فقط وأن المرشحين السياسيين لديهم ثلاثة أسابيع فقط للقيام بحملاتهم الانتخابية، ولكن سبع مائة كانوا قد تأهلوا من أجل ثمانية وثمانين مقعداً برلمانياً، وستة منها كانت قد وضعت جانباً للمسيحيين وواحد لسامري واحد. وعرفات فقط وامرأة غير معروفة نسبياً اسمها سميحة خليل تأهلا للرئاسة.

كانت هناك مشكلات عديدة، ناقشتها مع رئيس الوزراء شيمون بيريز والجنرال أوري دايان، الذي كان مسؤولاً عن الأمن في الضفة الغربية وغزة. وأكدا لي أن نقاط تفتيش أساسية سوف تكون مفتوحة، وأن الجنود الإسرائيليين لن يدخلوا أماكن التصويت، وأن المقترعين لن يتعرضوا للتخويف. وقد رأيت ملصقات كثيرة في القدس الشرقية كانت تهدد أي مقترعين عرب بفقدان بطاقات هوياتهم، وتراخيص الإسكان، والخدمات الاجتماعية. والزعماء الإسرائيليون، الذين أخبروني بأن جماعة دينية مقاتلة قد أعلنت ملصقات تحذيرات، وعدوا بإزالة أكبر عدد ممكن منها. وأكبر مشكلة كانت تتصل بالقدس الشرقية، التي يعتبرها الفلسطينيون (والمجتمع الدولي) أرضهم المحتلة ويدعيها الإسرائيليون بوصفها جزءاً لا يتجزأ من أمتهم.

وكان السؤال الأساسي المتعلق بالانتخاب هو إن كان الفلسطينيون الذين يسكنون في القدس الشرقية يصوتون بوصفهم مقيمين فيها أم بوصفهم غرباء يلقون ببطاقات غائبين يتعين أن تعد خارج المنطقة المتنازع عليها. وكان هناك حوالي 200.000 مقيم عربي، وسيعطى حوالي 4.000 منهم فقط تصاريح ليصوتوا وسيكون ذلك بعدئذ في خمسة مكاتب بريد فقط، أربعة منها مكاتب صغيرة تماماً. ومن حوالي 120.000 من الناخبين المسجلين، فإن الآخرين الذين كانوا يمتلكون العزم الكافي ووسائط النقل قد يجدون طريقهم خارج القدس إلى مواقع

الاقتراع المجاورة في قرى الضواحي، ومن جملتها جبل الزيتون، ورام الله، وبيت حنينا، وبيت لحم. كانت هذه قضية سياسية حساسة جداً، والفشل في حلها كان يهدد إدارة الانتخابات.

اجتمعنا، روزالين وأنا، مع ياسر عرفات في مدينة غزة، حيث كان يقيم مع زوجته، سها، وابنتهما الصغيرة. وجاءت الطفلة، وهي تلبس بدلة زهرية جميلة، مباشرة لتجلس في حضني، ولاعبتها بالحيل نفسها التي كانت ناجحة مع أطفالنا وأحفادنا. والتقطت لنا الكثير من الصور، ثم طلب المصورون أن يمسك عرفات بابنته لمدة. وحين أخذها، صرخت الطفلة بصوت عال ومدت يديها إلي، وهي بذلك تقدم تحذيرات مرحة تعاتب بها مرشح الرئاسة ليبقى في البيت وقتاً كافياً ليكون عارفاً بطفلته الخاصة. وفي أثناء وقتنا الأكثر جدية الذي كنا فيه معاً، انتقدت عرفات لاعتقاله أعضاء فلسطينيين من وسائل الأخبار ونشيطين في حقوق الإنسان، ولكنه لم يكن نادماً، وادعى أنهم أثاروا الصراع بين المسلمين والمسيحيين. وحثثته على تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني لنبذ العنف وللاعتراف بإسرائيل، ولكنه ادعى أن هذا كان قد أنجز في أثناء عملية السلام في أوسلو. وحثثته أيضاً على أن يعطي المجلس التشريعي المنتخب حديثاً أقصى استقلال ذاتي، ووعد أن يفعل ذلك، مبيناً أنهم سيجتمعون لأول مرة قريباً بعد رمضان (وهو شهر سنوي للصيام والصلاة للمسلمين الذي كان سيبدأ في نهاية ذلك الأسبوع نفسه).

وبناء على طلب عرفات، قابلت بعدئذ محمود الزهار والقادة الآخرين من حماس، وهي مجموعة إسلامية مقاتلة عارضت الاعتراف بإسرائيل، وترتكب أعمال عنف، وكانت متنافسة تنافساً متزايداً مع حزب فتح العلماني، حزب عرفات. وحثثتهم على أن يقبلوا نتائج الانتخابات وأن يمتنعوا عن العنف. ووعدوا بألا يعطلوا الانتخابات وأن ينبذوا العنف في المستقبل "إذا أوقف الإسرائيليون استمرارهم بالقمع". وأعلموني أنهم كانوا يعتزمون المشاركة في الانتخابات البلدية التي ستجري لاحقاً ولكنهم لن يكونوا جزءاً من المجلس التشريعي.

وصارت قضية التصويت في القدس الشرقية قضية حرجة قبل أن يبدأ التصويت، وأخيراً أنجزنا حلاً وسطاً: أن توضع الشقوق الصغيرة التي تسقط فيه البطاقات في قمة حواف صناديق الاقتراع! فالفلسطينيون كانوا يستطيعون الادعاء

أنهم كانوا يُسقطون فيها بطاقاتهم عمودياً بصفتها أصوات انتخابية تجري في الموقع، في الوقت الذي كان يستطيع الإسرائيليون القول إن ظروفهم كان يجري إدخالها أفقياً بصفتها رسائل لترسل بالبريد.

في يوم الانتخابات ذهبنا، روزالين وأنا، من محطة اقتراع إلى أخرى، وسمع مراقبونا شكاوى وحلوا منها العدد الذي استطاعوا أن يحلوه. في وقت مبكر تماماً كان هناك منتخبون قلة في القدس الشرقية، وحوالي خمسين شرطياً إسرائيلياً باللباس الرسمي الموحد، كانوا حول مداخل مكاتب البريد، لا بل داخلها، ويصورون بالفيديو بشكل متباه وجه كل فلسطيني كان يقف في الصف لإلقاء بطاقة الانتخاب. واعتقل مراقبان محليان ظهرا في أوسع مركز بريد مع أوراقهم الثبوتية المناسبة، وضرب واحد منهما في الطريق إلى السجن.

وانتشرت هذه الأخبار كالحريق الهائل في كل أنحاء القدس. وعند نقطة التفتيش الرئيسية التي كان الفلسطينيون يذهبون من خلالها إلى خارج المدينة ليدلوا بأصواتهم، قال لي نقيب شاب إن الأوامر لديه كانت تقضي بتسجيل كل اسم. واتصلت بالجنرال دايان لأبلغه هذه المشكلات، ففتحت نقاط التفتيش. ولكن الوقت كان قد قارب منتصف النهار قبل أن تخفف أعداد الشرطة في القدس وتبتعد آلات تصوير الفيديو الأخيرة. وكان تعليل دايان هو أنهم يكبحون الإسرائيليين من الجناح اليميني لمنع العنف، ولكن كان من الواضح أن المقترعين الفلسطينيين تعرضوا للتخويف، وحوالي 1600 مقترع فقط من مقترعي القدس ألقوا أخيراً بطاقاتهم (أو أرسلوها بالبريد) في المدينة.

في أثناء النهار جمع فريق مراقبينا وحلل التقارير من حوالي 250 مكان اقتراع. وفي الإجمال، فإن حوالي 75 بالمائة من كل المقترعين المسجلين ألقوا بطاقاتهم، وفي غزة اقترع أكثر من 85 بالمائة. ومن 1.696 مكان للاقتراع خارج القدس، كان هناك مشكلات في اثنين فقط. أطلقت النار على ثلاثة فلسطينيين وقتلوا على يد الشرطة الإسرائيلية عند نقطة تفتيش في جنين، ولكن 60 بالمائة من الناس اقترعوا في القرية. وكانت مشاركة النساء وحماستهن هي أكبر مفاجأة لنا. في غزة وفي معظم الأماكن الأخرى، حيث لم يسبق أن شوهدت إلا نساء قليلات في الأماكن العامة، اكتظت بهن مواقع الاقتراع.

ونال ياسر عرفات 88 بالمائة من الأصوات المعطاة للرئيس، وفاز أعضاء حزبه فتح والمستقلون التابعون بحوالي نسبة 75 بالمائة من مقاعد المجلس التشريعي. وبعد الانتخابات، حثثته مرة أخرى على أن يحترم استقلال المجلس المنتخب، وأن يقدم عرضاً قابلاً للتصديق إلى حماس وإلى الآخرين ليشاركوا في المستقبل، وأن يحدد تاريخاً مبكراً لإجراء الانتخابات البلدية، وأن يعجل في إجراء التعديلات لميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. وقد انتخب بعض المستقلين الأقوياء، ومن جملتهم حنان عشراوي، متحدثة رسمية مسيحية مؤثرة من رام الله. وضحك كل الأشخاص الحاضرين حين قال لي عرفات إنه سيكون هناك حوالي خمس عشرة امرأة في المجلس، مضيفاً أن "حنان تعد بعشرة".

وكان واضحاً أن إطلاق سراح 5.000 سجين فلسطيني تقريباً كانوا محتجزين لدى الإسرائيليين واحتمال التقدم في القضايا الدائمة سيكون متوقفاً على العمل الحسن النية من الطرفين معاً. وأعلن رئيس الوزراء بيريز أن جميع أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني (الهيئة التشريعية لمنظمة التحرير الفلسطينية) سيسمح لهم بالسفر إلى الضفة الغربية وغزة كي يعدلوا ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت هذه الأنباء موضع ترحيب، نظراً إلى أن الكثيرين من أنشط الأعضاء في حزب فتح كانوا متهمين منذ وقت طويل من الإسرائيليين بكونهم إرهابيين ولم يعطوا تصاريح سفر داخل أرضهم الخاصة بهم. وأسس الرئيس الجديد مكتبه في رام الله وتابع الكفاح ليحصل على سيطرة فلسطينية كاملة على الضفة الغربية وغزة، التي بقيت محتلة من إسرائيل.

جميعنا، نحن المراقبين الدوليين، كنا مسرورين بنوعية الانتخابات، التي لم تكن أي شيء أقل من تفويض كاسح، لا من أجل تشكيل حكومة فلسطينية فقط، بل من أجل المصالحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين أيضاً. وذكرتنا أيضاً بالحساسية وبالصعوبة الشديدتين للغاية اللتين تتسم بهما قضايا مازال يتعين أن تحل.

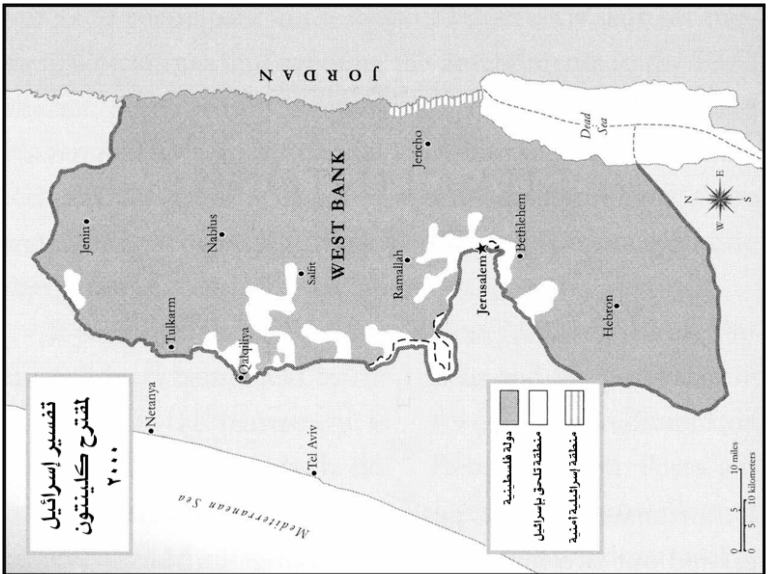
الفصل الحادي عشر

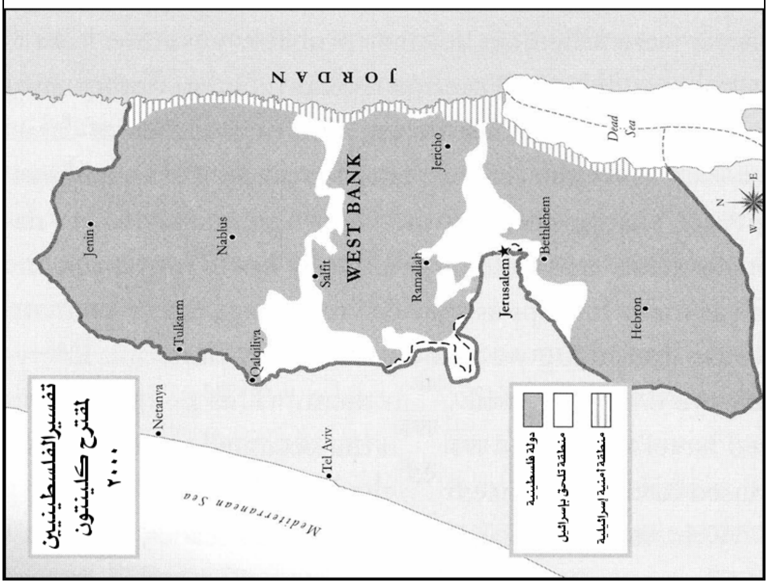
جهود بل كلينتون من أجل السلام

من سوء الطالع لعلمية السلام، نفذ الإرهابيون الفلسطينيون عمليتي تفجير انتحاريتين قاتلتين في شهر آذار/مارس من العام 1996. بعد بضعة أسابيع من الانتخابات الفلسطينية. وقتل في العملية اثنان وثلاثون مواطناً إسرائيلياً، وهو عمل ربما يكون أعطى مرشح الليكود الصقري، بنيامين نتنياهو، نصراً على رئيس الوزراء شيمون بيريز. ووعد الزعيم الجديد لإسرائيل ألا يبادل الأرض في مقابل السلام أبداً. وصرح وزير الخارجية أرييل شارون بأن اتفاقية أوسلو كانت "انتحاراً وطنياً" وبين أن على "كل واحد أن يتحرك، ويركض، ويختطف أكبر عدد يستطيعه من قمم التلال لتوسيع المستوطنات لأن كل شيء نأخذه الآن سيبقى لنا... وكل شيء لا نمسك به سيذهب إليهم". هذه السياسة عجلت بقبضة إسرائيل الشديدة على الأراضي المحتلة وأثارت المزيد من العنف من الفلسطينيين.

ومع وجود عرفات الآن زعيماً منتخباً انتخاباً رسمياً، فقد بذل الرئيس بل كلينتون جهوداً قوية مستمرة ليجد تسوية معقولة بين الإسرائيليين والفلسطينيين. فعقد مؤتمر قمة دام تسعة أيام في واي بلانتيشن في ماريلاند في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1998، وتم في أثناء المؤتمر الوصول إلى بعض الاتفاقيات التي تتصل بإعادة انتشار القوات الإسرائيلية، وبالترتيبات الأمنية، وبإطلاق سراح السجناء، وباستئناف مفاوضات الوضع الدائم، ولكن الوزارة الإسرائيلية صوتت في غضون أسابيع قليلة لصالح تأجيل تنفيذ مذكرة واي ريفر.

الخريطة 6


تفسير إسرائيل
لمقترح كلينتون
٢٠٠٠
دولة فلسطينية
منطقة تلحق بإسرائيل
منطقة إسرائيلية أمنية
JORDAN
WEST BANK
Jenin
Nablus
Tulkarm
Qalqiliya
Salfit
Ramallah
Jericho
Jerusalem
Bethlehem
Hebron
Dead Sea
Netanya
Tel Aviv
Mediterranean Sea
N
E
S
W
10 miles
10 kilometers


تفسير الفلسطينيين
لمقترح كلينتون
٢٠٠٠
دولة فلسطينية
منطقة تلحق بإسرائيل
منطقة أمنية إسرائيلية
JORDAN
WEST BANK
Jenin
Nablus
Tulkarm
Qalqiliya
Salfit
Ramallah
Jericho
Jerusalem
Bethlehem
Hebron
Dead Sea
Netanya
Tel Aviv
Mediterranean Sea
N
E
W

وليس هذا وحسب، فبعد أن انتخب إيهود باراك من حزب العمل رئيساً للوزراء في شهر أيار/مايو من العام 1993، كان هناك التزام مستمر من حكومة إسرائيل بتجنب الامتثال الكامل لاتفاقية أوسلو أو للقرارين الأساسيين للأمم المتحدة رقم 242 ورقم 338، في الوقت الذي كان الفلسطينيون مترددين في التخلي عن أي منهما بوصفهما الأساس للسلام الدائم. وعلى الرغم من هذه العوائق، رعت الولايات المتحدة سلسلة من محادثات السلام في شرم الشيخ، في قاعدة بولينغ للقوات جوية، ثم بعدئذ في كامب ديفيد في اجتماع دامت جلساته أربعة عشر يوماً في شهر تموز/يوليو من العام 2000.

في شهر أيلول/سبتمبر من العام 2000، ومع الموافقة المترددة من رئيس الوزراء باراك، ذهب آرييل شارون ومرافقون من عدة مئات من رجال الشرطة إلى مجمع معبد الجبل، موقع قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وهناك صرح أن الموقع الإسلامي المقدس سيبقى تحت السيطرة الإسرائيلية الدائمة. وقد اتهم القائد العسكري السابق من إسرائيليين كثيرين بقيامه عن قصد بإلهاب العواطف لاستفزاز رد فعل غاضب غضباً شديداً ولإعاقة أي نجاح محتمل في محادثات السلام التي كانت مستمرة. مزج الفلسطينيون رد فعلهم على هذه الحادثة مع إحباطهم من إخفاق إسرائيل في تنفيذ اتفاقية أوسلو، وردوا باندلاع إضافي للعنف، وهو ما سيعرف باسم الانتفاضة الثانية.

لاحقاً، في أثناء أشهر الرئيس كلينتون القليلة في واشنطون، قدم ما سماه الاقتراح الأخير. وبموجب هذا الاقتراح، سيبقى ثمانون بالمائة من المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية، وتستطيع إسرائيل أن تحتفظ بسيطرتها على وادي نهر الأردن وعلى قدرة إنذار مبكر داخل الضفة الغربية، مع الحيطة الإضافية من أجل انتشارات قواتها في الطوارئ للوفاء بالحاجات الأمنية. وستكون دولة فلسطين الجديدة مجردة من السلاح، مع وجود قوة دولية لأمن الحدود وللردع وسيادة فلسطينية فوق فضائهم الجوي باستثناء ترتيبات خاصة للوفاء بحاجات إسرائيل التدريبية والعملياتية.

وفي القدس، سوف تدار الأحياء العربية من الفلسطينيين وتدار الأحياء اليهودية من الإسرائيليين، مع السيادة الفلسطينية فوق جبل المعبد، موقع قبة الصخرة

والمسجد الأقصى، والسيادة الإسرائيلية فوق الجدار الغربي و"المكان المقدس" الذي يعتبر الجدار جزءاً منه. ويستطيع اللاجئون الفلسطينيون أن يعودوا إلى الضفة الغربية وغزة فقط. وكان منصوصاً على أن هذه الاتفاقية، إذا قبلت، فهي ستحل محل كل متطلبات قرارات الأمم المتحدة التي كانت تنطبق على الشرق الأوسط. ولم يكن هناك أي رد واضح من رئيس الوزراء باراك، ولكنه بين فيما بعد أن إسرائيل كان لديها عشرون صفحة من التحفظات. ورفض الرئيس عرفات، أيضاً، المقترح.

حين كان الرئيس كلينتون يبذل الجهود لتعزيز السلام، كان هناك نمو بنسبة 90 بالمائة في عدد المستوطنين في الأراضي المحتلة، وكانت أكبر زيادة في أثناء إدارة رئيس الوزراء إيهود باراك. ومع نهاية العام 2000، وصل عدد المستوطنين في الضفة الغربية وغزة إلى 225.000 نسمة. وأفضل عرض قدم إلى الفلسطينيين - من كلينتون، لا من باراك - كان يتضمن سحب 20 بالمائة من المستوطنين، وترك أكثر من 180.000 مستوطن في 209 مستوطنات، تغطي حوالي 10 بالمائة من الأرض المحتلة، ومنها أرض يجب "أن تؤجر" وأقسام من وادي نهر الأردن والقدس الشرقية.

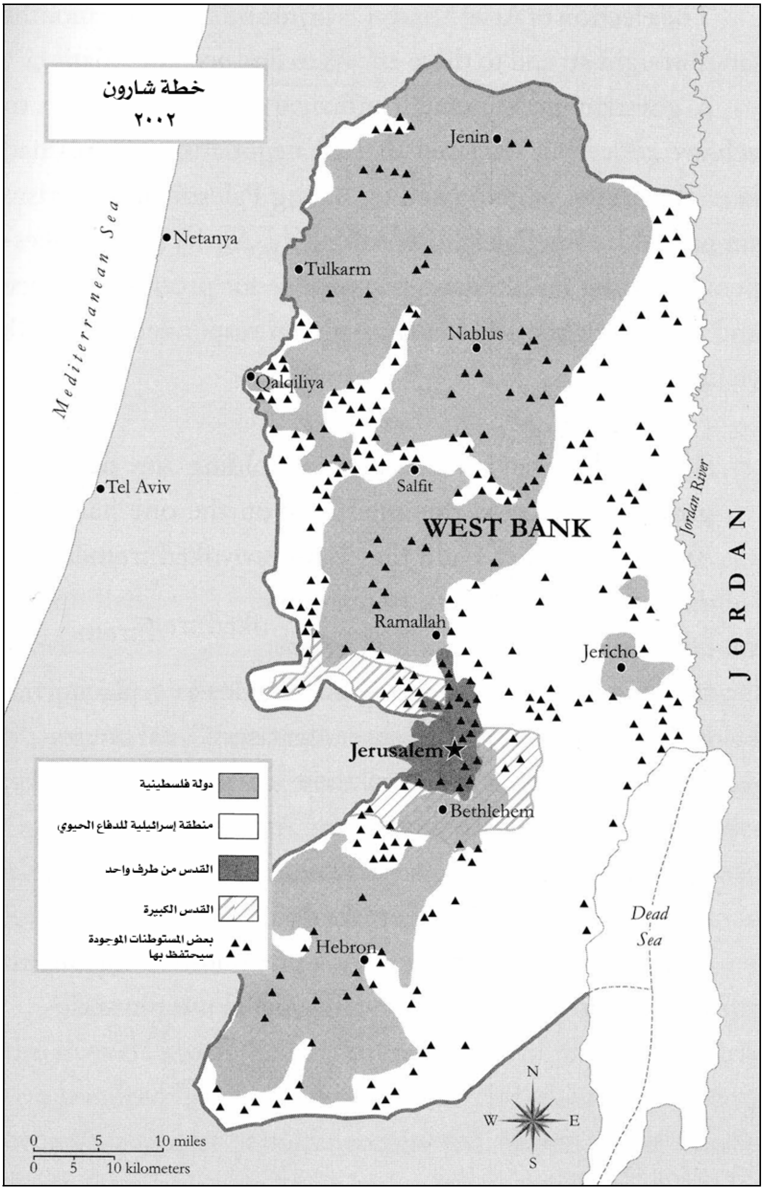
إن رقم النسبة المئوية مضلل، نظراً إلى أنه يتضمن عادة مواقع أقدام المستوطنين الفعلية فقط. فهناك منطقة يبلغ نصف قطرها أربعمائة متر حول كل مستوطنة لا يستطيع الفلسطينيون أن يدخلوها. وإضافة إلى ذلك، هناك مساحات كبيرة أخرى ستكون قد أخذت أو خصصت لتستخدم من إسرائيل بشكل مقتصر عليها، وطرق تصل المستوطنات الواحدة بالأخرى وتصلها بالقدس، و"شرايين الحياة" التي تزود المستوطنين بالماء، والصرف الصحي، والكهرباء، والاتصالات. وهذا المساحات تراوح في العرض بين خمسمائة متر وأربعة آلاف متر، ولا يستطيع الفلسطينيون أن يستخدموا الكثير من هذه الوصلات الرابطة أو أن يعبروها. هذا التكوين للمستوطنات الذي يشبه قرص شمع العسل ونخاريبه مع وصلات التواصل بينها يقسم الضفة الغربية فعلياً إلى منطقتين على الأقل غير متجاورتين وشظايا متعددة، وهي في الغالب غير قابلة للسكن أو من غير الممكن الوصول إليها فعلاً، وتحرم السيطرة على وادي نهر الأردن الفلسطينيين من أي وصول مباشر شرقاً إلى الأردن. وهناك حوالي مائة نقطة تفتيش عسكرية تحيط بفلسطين إحاطة كاملة

وتقطع الطرق الذاهبة إلى المجتمعات الفلسطينية وفيما بينها، ومعها عدد لا يحصى من الطرق الأخرى المغلقة بشكل دائم بمكعبات أسمنتية مسلحة ضخمة أو بأكوام من التراب والصخور.

لم يكن هناك أي إمكانية أن يستطيع أي زعيم فلسطيني أن يقبل مثل هذه الشروط ويبقى على قيد الحياة، ولكن البيانات الرسمية من واشنطون والقدس كانت ناجحة في وضع كامل عبء المسؤولية عن الفشل على ياسر عرفات. واستمر العنف في الأرض المقدسة.

كان مازال هناك بعض الالتزامات الشكلية المتبقية نحو محادثات سلام "الوضع النهائي" لاتفاقية أوسلو للتعامل مع القدس، واللاجئين، والمستوطنات، وترتيبات الأمن، والحدود، والعلاقات والتعاون مع البلدان المجاورة. وعقدت جولة جديدة في طابا في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2001، وذلك في أثناء الأيام القليلة الأخيرة من رئاسة كلينتون، بين الرئيس عرفات ووزير الخارجية الإسرائيلي، وجرى الادعاء لاحقاً أن الفلسطينيين رفضوا "عرضاً سخياً" قدمه لهم رئيس الوزراء باراك تحتفظ فيه إسرائيل بنسبة 5 بالمائة فقط من الضفة الغربية. والحقيقة هي أن مثل هذه العروض لم تقدم أبداً. وقال باراك لاحقاً: "لقد كان واضحاً لي أنه لم يكن هناك أي فرصة للوصول إلى تسوية في طابا. ولذلك قلت إنه لن يكون هناك أي مفاوضات ولن يكون هناك أي وفد ولن يكون هناك أي مناقشات رسمية ولا أي توثيق. ولن يكون الأمريكيون حاضرين في الغرفة كذلك. والشيء الوحيد الذي حدث في طابا كان اتصالات غير ملزمة بين كبار الإسرائيليين وكبار الفلسطينيين؟.

الخريطة 7


خطة شارون
٢٠٠٢
Jenin
Netanya
Mediterranean Sea
Tulkarm
Nablus
Qalqiliya
Salfit
Tel Aviv
WEST BANK
Jordan River
JORDAN
Ramallah
Jericho
Jerusalem
Bethlehem
دولة فلسطينية
منطقة إسرائيلية للدفاع الحيوي
القدس من طرف واحد
القدس الكبيرة
بعض المستوطنات الموجودة سيحتفظ بها
Hebron
Dead Sea
N
W
E
S
0 5 10 miles
0 5 10 kilometers

وقد جاء انتخاب آرييل شارون رئيساً للوزراء بعد شهرين بنهاية لهذه الجهود التي سعت لإيجاد تسوية.

وأكد بيان حكومي طموح إسرائيل إلى تحقيق السلام ولكنه صرح بأن كل الإخفاقات التفاوضية كانت بسبب الإرهاب الفلسطيني المستمر والمتصاعد المدعوم من السلطة الفلسطينية. وردت الدكتورة حنان عشراوي، بوصفها المتحدثة الرئيسية باسم الفلسطينيين، على ادعاءات إسرائيل بالقول:

لقد نجحوا حتى الآن، في القبض على عملية السلام رهينة لهذه العقلية من جهة. ومن الجهة الأخرى لقد استثاروا عنفاً ضخماً بأعمال الاستفزاز مثل القصف المدفعي، وإلقاء القنابل جواً، وتدمير البيوت، واقتلاع الأشجار، وتدمير المحاصيل، واغتيال الزعماء السياسيين، ووضع كل الفلسطينيين تحت الحصار في حالة مطلقة من عدم الحركة في سجن. ثم يتعجبون بعدئذ لماذا يتصرف بعض الفلسطينيين تصرفاً عنيفاً! ثم يريدون بعدئذ أن يكون لهم الحق في ممارسة العنف ضد السكان الواقعين في الأسر. ثم يحبون بعدئذ أن يجعلوا التزام اللاعنف من جانب الفلسطينيين شرطاً مسبقاً يفرض على الفلسطينيين ليكونوا مؤهلين للمحادثات، دع عنك أن يكونوا مؤهلين للدولة.

الفصل الثاني عشر

جورج دبليو. بوش

حدثت انتخابات وطنية في إسرائيل مباشرة بعد احتفال تنصيب جورج دبليو. بوش في شهر كانون الثاني/يناير في العام 2001. وكان آرييل شارون معروفاً جداً بعدوانيته في التعامل مع الفلسطينيين، ولذلك انتخب رئيساً للوزراء بسهولة في البيئة المضطربة للانتفاضة الجديدة. وعارض اتفاقية سلام أوسلو معارضة قوية وشدد على التزامه الكامل بمقاومة الهجمات التي توجه إلى المواطنين الإسرائيليين وإلى القوات المسلحة والتي كانت كلها تقريباً تحدث على الأرض الفلسطينية.

زاد العنف في أثناء الانتفاضة الثانية، وكلفت من الأرواح أكثر من ألف فلسطيني ومائتي إسرائيلي تقريباً، وفي وقت متأخر في شهر آذار/مارس حدثت ثلاثة أحداث حاسمة، في وقت واحد تقريباً. ففي 27 آذار/مارس أزهق مفجر انتحاري حياته هو في انفجار قتل معه ثلاثين إسرائيلياً في وسط احتفال عطلة عيد الفصح، تذكار خروج اليهود من مصر، في فندق بارك في نيتانيا، وهي مدينة ساحلية. وجاءت الإدانات الفورية للأعمال الإرهابية من زعماء حول العالم، ومنهم المسؤولون الأمريكيون والأمين العام للأمم المتحدة.

وفي اليوم التالي، وفي اجتماع في الجامعة العربية في بيروت، أنهت اثنتان وعشرون أمة حواراً طويلاً بالموافقة على حل قدمه ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبدالله (خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز). لقد قدم الحل إلى إسرائيل علاقات طبيعية مع كل الدول العربية إذا امتثلت إسرائيل لقراري الأمم المتحدة رقم 194، ورقم 242. وحين سئل السعوديون كيف تعرف "العلاقات العادية" أجابوا "نحن نتصور علاقة بين البلاد العربية وإسرائيل هي بالضبط مثل العلاقة بين البلاد العربية وأي دولة أخرى". وشرحوا زيادة على ذلك أن تعابير "كل الأراضي العربية المحتلة" و"عودة اللاجئين" قد كانت غامضة بشكل متعمد غموضاً كافياً للسماح للإسرائيليين بتسوية تلك المسائل من خلال المفاوضات مع الفلسطينيين، والسوريين، واللبنانيين.

وردّ البيت الأبيض بالقول: "إن الرئيس بوش يحث الزعماء الآخرين على البناء فوق أفكار ولي العهد للتعامل مع قضية السلام في المنطقة المضطربة".

وفي اليوم التالي، في 29 آذار/ مارس، طوقت قوة عسكرية إسرائيلية ضخمة مجمع مكتب ياسر عرفات في رام الله ودمرته، ولم تترك منه إلا بضع غرف سليمة قليلة فقط. وكان رئيس الوزراء شارون يدعي أن عرفات كان يساند الانتفاضة، وأخبر أعضاء وزارته أنه كان يريد أن يعتقل عرفات وأن يطرده من الأراضي الفلسطينية. وأعلن وزير الشرطة أوزي لاندو قوله إن "الالتزام الوحيد الذي قدمناه هو ألا نقتله". واتصل وزير الخارجية كولن باول بشارون ودعاه "للنظر في عواقب أعماله وتحديد الإصابات المدنية، وصوتت الولايات المتحدة لاحقاً لصالح قرار من مجلس الأمن في الأمم المتحدة يطلب من إسرائيل الانسحاب من رام الله، وهي المدينة التي سبق لإسرائيل أن أعلنت أنها تحت الحكم الذاتي الفلسطيني في العام 1995، ولكن إسرائيل تجاهلت القرار.

واتهم الدبلوماسيون العرب شارون بقيامه عن عمد بتخريب عرض السلام العربي، ودعا الأمير عبدالله ولي العهد هجوم رئيس الوزراء على عرفات "عملاً وحشياً، ودنيئاً، وهمجياً، وغير إنساني، وقاسياً". وباستثناء فترة فاصلة قصيرة، أجبر عرفات أن يبقى محجوزاً بشكل دائم في هذا الحيز الصغير إلى الأيام الأخيرة من حياته. ولم يكن يملك إلا اتصالات محدودة مع شعبه والحد الأدنى من السلطة المتبقية، وبقي الإسرائيليون يعتبرونه مع ذلك مسؤولاً عن كل فعل من أفعال العنف داخل الأراضي المحتلة.

واستجابة لضغط دولي قوي لكسر المأزق المكلف، أعلن الرئيس جورج دبليو. بوش في شهر حزيران/يونيو من العام 2002 حل الدولتين للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وكانت هذه هي أول مرة وصف فيها زعيم أمريكي الحكومة الفلسطينية المستقبلية بأنها ذات سيادة من ناحية الإمكان. ومع ذلك، فإن الرئيس قد منع أي اشتراك إضافي في العملية من زعيم الفلسطينيين المنتخب الوحيد، ياسر عرفات، وصرح بالقول: " إن السلام يتطلب قيادة فلسطينية جديدة مختلفة، لكي يكون بالإمكان ولادة دولة فلسطينية". ووضعت المسؤولية عن نقص التقدم نحو السلام على الفلسطينيين، وصرح الرئيس بوش ورئيس الوزراء شارون أن أي رد على

أي أعمال عنف من جانبهم كان يتعين أن يكون متساوياً مع الحرب الكونية ضد الإرهاب.

والطلبات الأمريكية الوحيدة التي طلبت من الإسرائيليين كانت أن يعودوا إلى المواقع العسكرية التي كنوا يشغلونها قبل شهر أيلول/سبتمبر من العام 2000، حين انفجر العنف بعد زيارة شارون إلى جبل المعبد، موقع قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وأن يمتنعوا عن أي نشاط استيطاني جديد في الأراضي المحتلة، وأن يتفاوضوا على الشروط في وقت ما في المستقبل من أجل الامتثال النهائي لقرار الأمم المتحدة رقم 242، بعد أن يظهر الفلسطينيون قدرتهم على وقف كل المقاومة العنيفة في الأراضي المحتلة. وقبل رئيس الوزراء شارون بسرعة عناصر الاقتراح التي خصت العنف الفلسطيني. ودافع الفلسطينيون بالقول إن 200.000 تقريباً من قوات الاحتلال الإسرائيلي لم تستطع أن تمنع كل فعل من العنف المحتمل، وسيكون من المستحيل لزعيمهم السجين والمعزول أن يضمن السلام الشامل، وخصوصاً بقلة فقط من قواتهم الأمنية المسموح لها بأن تمتلك أسلحة تحمل على الجانب أو أجهزة اتصالات.

ونظراً إلى أن عرفات لم يكن مقبولاً لدى بوش أو شارون ليكون محاوراً، فقد اختير محمود عباس (أبو مازن) ليكون أول رئيس وزراء للسلطة الفلسطينية وذلك في شهر آذار/مارس من العام 2003. وكان عباس يعرف بأنه "وجه الاعتدال الفلسطيني" والمهندس الرئيسي لاتفاقية أوسلو، وكان اختياره مدعوماً دعماً قوياً من إسرائيل ومن الولايات المتحدة. ورد عرفات أيضاً رداً محبذاً، زاعماً أن هذا التغيير كان بالضبط موافقة على جهوده الخاصة في الإصلاح. وفي الحقيقة، لم يؤد ذلك إلى أي محادثات سلام فعلية أصلية مع إسرائيل وأدت إلى صراع بين عباس وعرفات على السيطرة على إدارات الخدمات الأمنية.

وفي شهر نيسان/ابريل من العام 2003 أعلن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان "خريطة طريق" لحل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني وذلك نيابة عن الولايات المتحدة، والأمم المتحدة وروسيا، والاتحاد الأوروبي (وهي المعروفة باسم الرباعية)، وقد صرح عنان:

مثل هذه التسوية، المتفاوض عليها بين الطرفين، سوف تؤدي إلى ظهور دولة فلسطينية مستقلة، وديمقراطية تعيش جنباً إلى جانب في سلام وأمن مع إسرائيل

ومع جيرانها الآخرين. والتسوية سوف تنهي الاحتلال الذي بدأ في العام 1967، بالاستناد إلى شروط الوثائق المرجعية لمؤتمر مدريد ومبدأ الأرض في مقابل السلام، وقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم 242، ورقم 338، ورقم 1397، والاتفاقات التي توصل إليها الطرفان سابقاً، والمبادرة العربية المقترحة من ولي العهد السعودي الأمير عبدالله والتي وافقت عليها القمة العربية في بيروت.

وقد قبل الفلسطينيون خريطة الطريق في كليتها، ولكن الحكومة الإسرائيلية أعلنت أربعة عشر توضيحاً ومطلباً مسبقاً، وبعضها سوف يستعبد أي محادثات سلام نهائية (انظر الملحق 7 باللائحة الكاملة). وتضمنت الشروط الإسرائيلية:

1. الحل الكامل لكل المجموعات الفرعية الفلسطينية المقاتلة، وجمع كل الأسلحة غير القانونية، وتدميرها.
2. وقف الاستفزاز ضد إسرائيل، ولكن خريطة الطريق لا تستطيع أن تنص على أن إسرائيل يجب أن توقف العنف والاستفزاز ضد الفلسطينيين.
3. سيطرة إسرائيل على فلسطين، ومن جملة ذلك الدخول والخروج لجميع الأشخاص والشحنات، إضافة إلى الفضاء الجوي والطيف الإليكترو-مغناطيسي (الإذاعة، والتلفزة، والرادار، الخ).
4. التنازل عن أي حق لعودة اللاجئين إلى إسرائيل.
5. لا مناقشة للمستوطنات الإسرائيلية في اليهودية، والسامرة، وغزة أو وضع السلطة الفلسطينية ومؤسساتها في القدس.
6. لا إشارة إلى الشروط الأساسية من قرار الأمم المتحدة رقم 242.

والنتيجة العملية لكل هذا هو أن خريطة الطريق للسلام قد صارت لا معنى لها، ولهذا نتيجتان فقط: لقد كانت إسرائيل قادرة على أن تستخدمها بصفة تكتيك تأخير مع سلسلة لا نهاية لها من الشروط المسبقة التي لا يمكن أبداً الوفاء بها، هذا في الوقت الذي تتابع فيه التقدم بخطط لتنفيذ غايات أحادية الجانب،

وكانت الولايات المتحدة قادرة على أن تعطي الانطباع بالمشاركة الإيجابية في "عملية السلام"، التي أعلن الرئيس بوش أنها لن تتجز في أثناء فترة بقائه في المنصب.

وقد عقد اجتماع قمة للشرق الأوسط، استضافه الملك الأردني عبدالله الثاني وحضره الرئيس بوش، ورئيس الوزراء شارون، ورئيس الوزراء عباس، وكان ذلك في العقبة، في الأردن، في شهر حزيران/يونيو من العام 2003 من أجل مناقشة عامة لعملية خريطة الطريق خطوة خطوة. وبعض التعابير التي وردت في البيانات الختامية كانت تثير الاهتمام تماماً، ومثلما أبرزت هذه التعابير أدناه بخط مختلف، قال رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون:

ترحب حكومة إسرائيل وشعبها بالفرصة لتجديد المفاوضات المباشرة وفقاً لخطوات خريطة الطريق مثلما تبنتها الحكومة الإسرائيلية.... ونحن نستطيع أيضاً أن نعيد طمأنة شركائنا الفلسطينيين أننا نفهم أهمية التلاصق الأرضي في الضفة الغربية من أجل دولة فلسطينية قابلة للحياة. إن سياسة إسرائيل في الأراضي الخاضعة للمفاوضات المباشرة مع الفلسطينيين سوف تعكس هذه الحقيقة...

نحن نقبل مبدأ أن لا أعمال أحادية الجانب من أي طرف تستطيع أن تحكم مقدماً على نتيجة مفاوضاتنا.

ورد الرئيس جورج بوش بالقول: "أنا أيضاً مسرور أن أكون مع رئيس الوزراء عباس. وهو يمثل قضية الحرية والدولة للشعب الفلسطيني. وأنا أدعم بقوة تلك القضية... وإضافة إلى ذلك، فإن رئيس الوزراء شارون قد بين أن لا أعمال أحادية الجانب من أي طرف تستطيع أن تحكم أو يجب أن تحكم مسبقاً على نتيجة المفاوضات المستقبلية".

استقال عباس من منصبه في شهر تشرين الأول/أكتوبر، واستشهد باستثنائه من جهود السلام الأساسية من إسرائيل ومن الولايات المتحدة وببعض المعارضة لدوره من داخل منظمة التحرير الفلسطينية.

وعلى الرغم من أن المقترحات الأولية والجدول الزمني الموضوع لخريطة الطريق من أجل السلام قد تم تجاهلها إلى حد كبير أو التخلي عنها، فإن البيان المستند إلى العناصر الأساسية لحل الدولتين الدائم للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني كان قد

استبقي من طرف أعضاء الرباعية، ومن جملة ذلك نهاية الاحتلال الذي بدأ في العام 1967 والالتزام الكامل بقرارات الأمم المتحدة الأساسية.

إن الرباعية الدولية تدرك أن إسرائيل يجب أن يكون لها سلام دائم وشامل. وهذا لن يكون ممكناً ما لم تقبل إسرائيل شروط خريطة الطريق وتعكس اتجاه استعمارها للأراضي الفلسطينية المعترف بها دولياً، وما لم يرد الفلسطينيون بقبول حق إسرائيل في أن توجد، متحررة من العنف.

الفصل الثالث عشر

مبادرة جنيف

حين لم تكن محادثات السلام المنسقة متجهة إلى أي مكان بعد أن تولى آرييل شارون وجورج دبليو. بوش منصبيهما، استمرت مجموعة من الإسرائيليين والفلسطينيين في البناء فوق محادثات طابا التي سبق أن عقدت في أثناء الأيام الأخيرة من إدارة كلينتون. وكان زعماء هذه الجهود نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بيلين ووزير الإعلام والثقافة الفلسطيني السابق ياسر عبد ربه. وفي شهر تشرين أول/أكتوبر من العام 2001، تلقيت مكالمة من بيلين، وهو زعيم سياسي ذو خبرة كان في طليعة جهود السلام، ومن جملتها مفاوضات أوسلو والمفاوضات التي تمت في السنوات القريبة. لقد تشاور مع رفاقه في مصر وفي منظمة التحرير الفلسطينية، الذين اقترحوا أنني قد أكون مصدر مساعدة في حل بعض الاختلافات التي كانت قد ظهرت في المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

قابلت بيلين في الشهر نفسه، ووصف لي جهودهم المستمرة الجارية للوصول إلى اتفاقية على أصعب المسائل الثلاث وهي: المستوطنات، ومن جملتها الحدود الدائمة، وحق العودة للفلسطينيين، والقدس. وستكون الغاية النهائية لهم إصدار مقترح سلام، تطور من دون موافقة رسمية حكومية إسرائيلية أو حكومية فلسطينية، وسيكون مقترحاً عادلاً، ومتوازناً، ويحتمل أن يكون مقبولاً من الطرفين معاً. وفي مثل هذا الترتيب غير الرسمي، لم أشعر أنني مقيد بالحصول على الموافقة المعتادة من واشنطون من أجل مشاركتي.

وتواصلنا، بيلين وأنا، تواصلاً منتظماً، وبعد حوالي سنة شعر أنه سيكون هناك قريباً شيء ما ليبلغه إلى العالم. واعتقدنا أن غالبية من الإسرائيليين والفلسطينيين سترحب باتفاقية شاملة ولو أنها كانت تعني تقديم تنازلات جوهرية في المستوطنات والمسائل الكبيرة الأخرى. وقد أنتجت المحادثات المكثفة نقاطاً رئيسية من التسوية، ومن جملتها حدود محتملة مستندة إلى صور جوية تفصيلية سوف توسع مساحة إسرائيل المعترف بها دولياً إلى داخل الضفة الغربية توسيعاً يكفي ليضم حوالي نصف

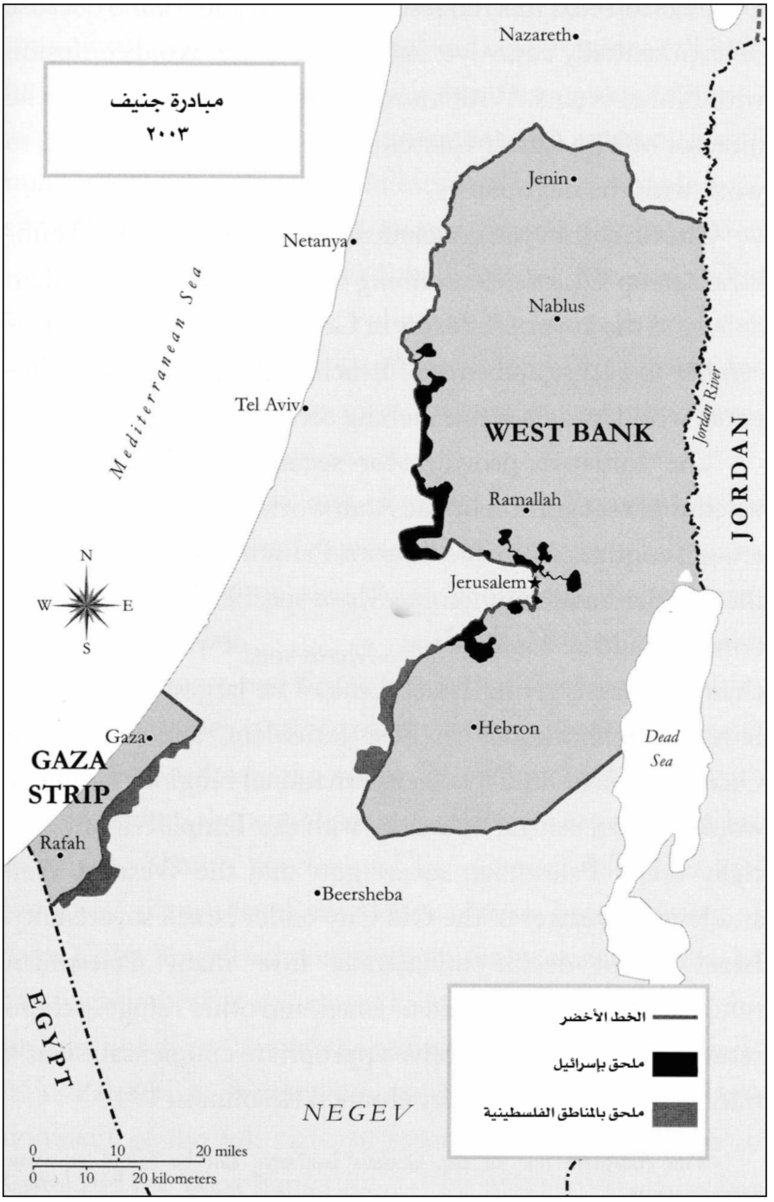
المستوطنين الإسرائيليين الذي يعيشون هناك. وتتضمن في الجملة مقترحات معقولة بخصوص الوصول المشترك إلى القدس والحق المحدود من عودة الفلسطينيين.

وعلى الرغم من أنه كان هناك الكثير من العمل الذي مازال يتعين أن يعمل، فقد وعدت بالمساعدة في الدعاية والترويج بعد أن يتم الوصول إلى اتفاقية نهائية. في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2002، علمت أنني قد منحت جائزة نوبل للسلام، واقترحت أن احتفالات الجوائز القادمة في أوسلو وستوكهولم سوف توفر فرصة للكشف عن مقترح السلام وجذب انتباه العالم إليه. ولكن الحكومة السويدية رفضت هذا الطلب من بيلين وعبد ربه بسبب طبيعته الجدلية المحتملة، ولتتجنب الاختلاط مع أحداث نوبل. ومع وجود الحاجة إلى المزيد من المناقشات، أرسلت مدير برنامج حل النزاع في مركز كارتر للعمل مع المتفاوضين.

وتم الوصول إلى المسودة النهائية في شهر تشرين الأول/أكتوبر للعام 2003، ونشرت مقالاً مقابل الافتتاحية وصفت فيها مقترح السلام ثم ألقيت خطاب الملاحظات الأساسية في جنيف، في سويسرا، في شهر كانون الأول/ديسمبر أمام جمهور كبير من الإسرائيليين، والفلسطينيين، وزعماء العالم المؤثرين في حفل انطلاق واحتفاء.

وتأخذ المبادرة بالاعتبار حدوداً آمنة لإسرائيل واعترافاً كاسحاً من العالم العربي بها ودولة ذات سيادة، ومتلاصقة، وقابلة للحياة للفلسطينيين معترفاً بها من المجتمع الدولي. وبشكل أكثر تحديداً، فإن الحد المقسّم سيكون مبنياً على خطوط العام 1967 ولكن مع تبادل للأرض متبادل، يعطي إسرائيل بعضاً من أوسع مستوطناتها، والأحياء اليهودية في القدس الشرقية، والحي اليهودي في المدينة القديمة. وستقوم سلطة دينية دولية بالسيطرة على الأماكن المقدسة المركزية،

الخريطة 8


مبادرة جنيف
٢٠٠٣
Nazareth
Jenin
Netanya
Nablus
Mediterranean Sea
Tel Aviv
WEST BANK
Jordan River
JORDAN
Ramallah
Jerusalem
N
W
E
S
Gaza
GAZA
STRIP
Hebron
Dead
Sea
Rafah
Beersheba
EGYPT
NEGEV
الخط الأخضر
ملحق بإسرائيل
ملحق بالمناطق الفلسطينية
0 10 20 miles
0 10 20 kilometers

وجبل المعبد، موقع قبة الصخرة والمسجد الأقصى، رسمياً تحت السيادة الفلسطينية والجدار الغربي والحي اليهودي من المدينة القديمة تحت السيادة الإسرائيلية. وسوف تقرر إسرائيل من جانب واحد كم عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين سيسمح لهم بالدخول إلى إسرائيل، واللاجئون الآخرون يستطيعون أن يعودوا إلى فلسطين أو أن يتسلموا التعويض المناسب تنفيذاً لقرار مجلس الأمن من الأمم المتحدة رقم 194؟.

وعلى الرغم من أنها وثيقة غير رسمية سوف تحتاج إلى تعديلات إذا عقدت وحين تعقد محادثات سلام رسمية ومخلصة، فإن مبادرة جنيف تتصور اتفاقية معقولة ومقبولة قبولاً متبادلاً. وإن عدداً كاسحاً من كل من الإسرائيليين والفلسطينيين يريدون حل دولتين قابلاً للبقاء، مستنداً إلى معايير معروفة معرفة جيدة كانت قد أوضحت في خريطة الطريق من اللجنة الرباعية وهي متوافقة مع مبادرة جنيف. وقد أظهر استطلاع للرأي أجراه معهد جيمس بيكر أن أكثرية من الإسرائيليين والفلسطينيين وافقت على مبادئ جنيف، وذلك على الرغم من المعارضة القوية من بعض كبار الزعماء السياسيين.

وكانت هناك موافقات علنية من رئيس الوزراء طوني بلير، ومن الرئيس جاك شيراك، ومن الرئيس بل كلينتون، ومن حوالي ثمانين آخرين من زعماء العالم وحملة جوائز نوبل ومن جملتهم نلسون مانديلا، وليخ فاليسا، وجون هيوم. وأهم حقيقة هي أن مبادرة جنيف تتغلب على ما يبدو أنه نقطة ضعف قاتلة (وربما عن عمد) في خريطة الطريق وهي: إجراء الخطوة خطوة الذي يؤخر بسهولة أو يجهض بسهولة والذي يستطيع تأجيل المفاوضات الحاسمة إلى أجل غير محدد. شارون أدان مبادرة جنيف وكان هناك صمت من البيت الأبيض، ولكن وزير الخارجية كولن باول ساند المبادرة واجتمع مع المفاوضين الأساسيين من أجل الحصول على إيجاز شخصي. ووافق عرفات على العملية ولكنه لم يوافق على النص النهائي، والفئات الفلسطينية التي تميل ميلاً أكثر إلى القتال أدانت تخلي المقترح عن حق العودة الكامل للفلسطينيين الذي أخرجوا من ديارهم، إلى إسرائيل وإلى الضفة الغربية.

لقد أحدثت مقترحات جنيف تأثيراً جوهرياً في إسرائيل وقد تكون أنجزت تغييراً مؤثراً في السياسة. وفي خرق لرفض القيام بعمل أحادي الجانب الذي صرح به رئيس الوزراء شارون في العقبة قبل عام، وافقت وزارة إسرائيل في شهر

حزيران/يونيو من العام 2004 على خطة من أجل فك الاشتباك مع قطاع غزة من دون التشاور مع الزعماء الفلسطينيين. وقد رحبت الولايات المتحدة بهذا الاقتراح ووافق عليه معظم الفلسطينيين إن 8.000 مستوطن إسرائيلي، يعيشون بين 1.3 مليون فلسطيني، كانوا يسيطرون على 40 بالمائة من الأرض الصالحة للزراعة وعلى أكثر من نصف مصادر الماء، مع 12.000 جندي كانوا لازمين لحماية وجود المستوطنين.

الفصل الرابع عشر
الانتخابات الفلسطينية
2005

توفي ياسر عرفات في شهر تشرين الأول/نوفمبر من العام 2004، وكان القانون الفلسطيني يتطلب أن يتم انتخاب خلفه في غضون بضعة أسابيع قليلة. ومرة أخرى، طلب من مركز كارتر أن يراقب العملية، مع المعهد الديمقراطي الوطني شريكاً في المراقبة.

وصلت إلى إسرائيل في 6 من شهر كانون الثاني/يناير من العام 2005، وكان أول اجتماع لي مع رئيس الوزراء شارون، الذي عبر فوراً عن الثقة في أنه كان يمتلك أصواتاً كافية في الكنيست (البرلمان) للتغلب على المعارضة للانسحاب من غزة. وقدر أن حوالي 30 بالمائة من المستوطنين سيغادرون طوعاً (مع تعويض مالي سخي) وأن الآخرين سيقاومون، لا بل ربما يقاوم عدد قليل منهم بالعنف. وكان يتعين أن يكون النقب الجنوبي، وهو مكان مزرعة عائلته الخاصة، هو وجهتهم المقصودة الأصلية للاستيطان ثانية. وتبادلنا الذكريات الماضية لخبراتنا المشتركة في أثناء السنوات الماضية، وشكرته على تأثيره الإيجابي على رئيس الوزراء بيغن حين كنت أفاوض على اتفاقيات السلام وأنا رئيس. وصرح أن نقاط التفتيش الإسرائيلية سوف تجهز بالجنود في أثناء الانتخابات الفلسطينية ولكنها لن تعيق المرور، وأن القوات العسكرية سوف تسحب من المدن الكبيرة. وبعد أن كنت قد راقبت شارون وهو يعمل طوال ثلاثة عقود تقريباً، فلم يكن لدي أي شك في أنه سوف ينجز وعوده.

وعلى الرغم من أن فريقنا حافظ على الحيادية الكاملة بين المرشحين المتنافسين، فقد كان أملنا هو أن انتخاب زعيم معتدل ومحترم سوف يأتي باستئناف مبكر لعملية السلام التي توقفت عن التقدم لمدة طويلة. وحثثت شارون على أن يكون أكثر مرونة في السماح للفلسطينيين بأن يقترعوا في القدس الشرقية، ولكن رده كان بالقول إن ترتيبات العام 1996 هي التي سوف تسود. وذكرني بأني كنت مساعداً في التفاوض على الاتفاقيات وأضاف أنه لن يكون

مـسموحاً لأي مـسؤولي انتخـاب فلـسطينيين أو لأي مـراقبين محلـيين بالـدخول إلى مكاتـب البريـد ، الـتي سـوف تجهـز بـالموظفين الإسـرائيليين. وأي حملـة "مـشوشة" ستكون أيضاً ممنوعة. وفي الحقيقة ، كان قد اعتقل مرشح رئاسـي واحـد في اليوم التالي حين حاول البحث عن أصوات بين جمهور يحتشد بالغرب من بوابة الأسد.

لقـد كـان واضـحاً لكـل المـراقبين الـدوليين الـذين انتـشروا في كـل أنحـاء الأراضـي المحتلـة أن الـشعب الفلسطيني لم يمتلـك إلا القليـل مـن حريـة الحركـة أو النشاط المستقل وهي حالة من غير المحتمل أن تتغير طالما كـانوا مطوقين بـالقوات العـسكرية وبالجـدران وأرضـهم محتلـة مـن المـستوطنين الإسـرائيليين. وقبـل يـوم الانتخابات، كان لنا ، نحن المـراقبين، اجتماعاتنـا المعتـادة مـع المرشـحين الرئيـسيين ومـع أعـضاء اللجنـة المركزيـة للانتخابـات. لقـد كـانوا واثقـين مـن اسـتعداداتهم الخاصة ولكنهم كانوا قلقين من أن العنف المحتمل قد يثور بسبب تدخل المسؤولين الإسرائيليين في منع العرب من الاقتراع في القدس الشرقية.

حين أزور بلداً أجنبياً ، أتطلع إلى الفـرص المتاحـة لأتـرك المدينـة العاصـمة وأزور الأماكن المثيرة للاهتمام. وفي الوقت الـذي كـان يتحـرك فيـه مراقبونـا إلى مـواقعهم في صباح يوم الـسبت، انـضم إلـي قـادة الوفـد الآخـرون في زيـارة إلى قريـة الناصـرة ، وهـي موقـع كـان قـد تم تطويره ليشابه مجتمـع المـسيح في أثنـاء شـبابه. وابتـداء مـن العـام 1996 ، انـضممنا ، روزالـين وأنـا ، مـع مـسيحيين آخـرين، ومعظمهـم مـن طائفـة المينونـايتس، في الحـصول علـى الأرض وجمـع الأمـوال مـن أجـل تطويرهـا. والموقـع بمساحة مـن 10 إكـرات ويقـع في قلب المدينـة ، وقـد تأثرنـا بجودتـه العاليـة وسـلامته الآثارية القديمة وسلامته التاريخية.

وكمـا هـي ممارسـتنا ، تحركنـا باسـتمرار طوال يوم الانتخابات، وزرنـا اثـنين وعشرين موقعاً للاقتراع، ابتداء بمراكـز البريد داخل القدس الـشرقية ، حيـث تنـشأ المشكلات دائماً. وصار واضحاً على نحو سريع أن المسؤولين الإسـرائيليين يملكـون قوائم بأسماء المقترعين كانت مختلفة اختلافاً كاملاً عن أسماء الناس الذين جاؤوا ليدلوا بأصواتهم، ومع حلول الظهيرة لم يكـن هناك عملياً أي تـصويت مجـرد حـشد متزايد من الفلسطينيين الغاضبين. وفي موقـع الاقتراع الرئيـسي، وهـو الموقـع الوحيـد الأوسـع مـن مـساحة بيـت متنقـل، كـان هنـاك 3.500 اسـم في القائمـة ، مـع كاتـب

إسرائيلي واحد يدقق الأوراق الثبوتية للمقترعين المحتملين ويردهم بعيداً رداً منهجياً. وحين هددت في النهاية بالدعوة إلى مؤتمر صحفي دولي، وافق مكتب رئيس الوزراء على تجاهل القوائم والسماح لجميع الأشخاص المسجلين في القدس أن يقترعوا في أي موقع، ولكن المراقبين الدوليين فقط من دون الفلسطينيين هم الذين استطاعوا أن يراقبوا هذه العملية. وفي هذا الوقت كانت الساعة قد صارت الثانية بعد الظهر، وكنا قادرين على استنقاذ مشاركة عدد صغير فقط من المقترعين. وزرت أيضاً بيت لحم ومواقع أخرى في الضفة الغربية ووجدت مشكلات قليلة هناك أو في غزة.

استيقظت مبكراً في الصباح التالي لأقوم تقارير فريق مراقبينا ولأحضر تحليلاً سياسياً ورسالة خاصة لتسليمها إلى محمود عباس، الذي كان انتخب انتخاباً كاسحاً. لقد أنهيت هذه الواجبات في الوقت المناسب لأجتمع قبل الفجر بخبيري مراقبة الطيور الرئيسيين من إسرائيل وفلسطين، يوسي ليشيم وعماد أطرش. ذهبنا أولاً إلى منتزه بمساحة خمسين إكراً في قلب المنطقة الحضرية من القدس، حيث شاهدنا أربعة وعشرين غزالاً تعيش هناك من دون أي سياج أو جدران تفصلها عن المباني المجاورة والطرق التي تشهد مروراً كثيفاً. ثم سقنا سياراتنا متحركين بعدئذ إلى متنزه صغير في ظل مبنى الكنيست (البرلمان) لمراقبة بناء الأعشاش، والتجميع، وإطلاق سراح الطيور المهاجرة التي تطير فوق الأرض المقدسة لتدور حول البحر الأبيض المتوسط. لقد كان رائعاً أن ترى علماء الطيور اليهود والعرب يعملون بانسجام في هذه المشاريع.

بعد الالتحاق بقادة وفدنا لنستكمل البيانات الإيجابية عموماً حول الانتخابات، ذهبت إلى رام الله لأقابل عباس ومستشاريه الرئيسيين. وكان الإسرائيليون قد استبعدوا أي محادثات مع عرفات، والآن سيكون لهم الشريك الذي كانوا يريدونه على ما يبدو منهم. ولخصت أفكاري وأعطيت عباس ملاحظاتي المكتوبة، مفترضاً أن الرئيس الجديد سوف يشارك قريباً في محادثات مباشرة مع الزعماء الإسرائيليين. وأبلغني أن حفل التنصيب سيكون في غضون اليومين القادمين ولكنه عبر عن شكوكه في أن الإسرائيليين كانوا يريدون محادثات سلام. وكان رأي المجموعة الفلسطينية أن كلاً من شارون ونائب رئيس

الوزراء إيهود أولمرت كانا يريدان منذ مدة طويلة أن يتخليا عن غزة في الوقت الذي يركزان فيه على استعمار الضفة الغربية. وأشاروا إلى أن الزعماء الفلسطينيين كانوا قد قبلوا كل أحكام خريطة طريق الرباعية من أجل السلام، ولكن شارون رفض علناً معظم أحكامها الرئيسية.

لم يكن هناك أدنى شك في أن عباس كان يمتلك الدعم والاحترام من شعبه وأنه كان متفانياً ليقوم مباشرة بمتابعة اتفاقية سلام وفقاً لخريطة الطريق. وكان يحتاج الدعم الكامل من الزعماء الأمريكيين والإسرائيليين وهو يكافح ليشكل على الأقل قوة أمنية مدربة ومجهزة جزئياً، ويتعامل مع اقتصاد يتداعى، ويكسب احترام ومساندة المجتمع الدولي. وكذلك، واجه حزبه وهو فتح التحدي السياسي الوشيك من ممثلي حزب حماس الذين كانوا يظهرون نجاحاً مؤثراً في الانتخابات المحلية وكانوا قد أعلنوا عزمهم على أن ينزلوا إلى ميدان التنافس عدداً كاملاً من المرشحين في الحملة القادمة من أجل المجلس التشريعي. وستكون هذه الحملة منافسة بين منظمة عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية السياسية المهيمنة منذ مدة طويلة وبين مجموعة أكثر ميلاً للقتال ورفضت أن تعترف بحق إسرائيل في الوجود وأصرت على الحق في استخدام العنف ضد الإسرائيليين، الذين اعتبروهم أعداء يحتلون أرضهم.

وفي هذه الرحلة رأينا أكثر التعديات إقلاقاً من الجدار المقسِّم الكبير الذي يبنيه الإسرائيليون، وهو الذي سأقوّمه في الفصل 16. ويوصف الجدار بأنه "سياج أمني" ووظيفته المصرح عنها هي ردع الهجمات الفلسطينية ضد الإسرائيليين، وأما الغرض الآخر منه فصار واضحاً حين راقبنا إنشاءه وتفحصنا خرائط المسار النهائي للحاجز عبر فلسطين. فبالإضافة إلى وادي نهر الأردن المحتل من الإسرائيليين، سوف يأخذ الجدار في داخله مساحات ضخمة من الأرض لإسرائيل ويحيط بالفلسطينيين الذين بقوا في ما بقي لهم من الضفة الغربية. وهذا سيحدد تحديداً شديداً وصول الفلسطينيين إلى العالم الخارجي. "جدار الحبس" يصفه وصفاً أفضل من "سياج أمني".

وبعد العودة إلى أمريكا، ذهبت إلى البيت الأبيض وأعطيت الرئيس بوش تقريراً شخصياً، مشدداً على قلقي بشأن رفض إسرائيل لشروط خريطة الطريق

وبشأن بنائها للجدار. وأبلغت أيضاً عن رغبة محمود عباس في أن يبدأ محادثات سلام شاملة في تاريخ مبكر. وكرر الرئيس التزامه بخريطة الطريق، وقال إن وزيرته الجديدة للخارجية، كوندوليزا رايس، كانت تتسلم المنصب في اليوم نفسه وأن أحد أسبقياتها العالية ستكون البحث الدؤوب الهجومي من أجل السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

ونقل المستوطنون الإسرائيليون من غزة في شهر آب/أغسطس من العام 2005، مع وجود 50.000 ألف جندي هناك لتقليل العنف إلى الحد الأدنى. وهذا ترك خلفه السكان العرب في مساحة ضئيلة. وكان هناك جدل متوقع في إسرائيل، وعارض المتطرفون في الجناح اليميني معارضة مريرة لأي انسحابات للمستوطنين الإسرائيليين مع وجود بعض جماعات السلام التي تزعم أن الأعمال الأحادية الجانب سوف تقود إلى التخلي عن مقترحات السلام طويلة المدى.

دعونا نلق نظرة سريعة على غزة. لقد حلّق عدد سكانها عالياً في السنوات الأخيرة حين تدفق إليها اللاجئون الفلسطينيون من المناطق الأخرى التي احتلتها إسرائيل. ففي العام 1948، كان هناك 90.000 نسمة محليون، وقد تضاعف عدد السكان أكثر من ثلاث مرات مع حلول العام 1967، وهناك الآن أكثر من 1.4 مليون نسمة ـ أي، 3.700 نسمة يعيشون في كل كيلو متر مربع. وعلى الرغم من أن هناك مناطق عواصمية تضم سكاناً أكثر كثافة من ذلك (مثل مانهاتن)، فإن هذا الكيان يفترض أنه كيان مكتف ذاتياً، شبيه لدولة صغيرة معزولة مفصولة عن الضفة الغربية بمسافة أربعين كيلو متراً من الأراضي الإسرائيلية.

ولقد حافظت غزة على نمو سكاني بمعدل 4.7 بالمائة سنوياً، وهو واحد من أعلى المعدلات في العالم، وهكذا فإن أكثر من نصف سكانها أقل عمراً من خمسة عشر عاماً. ويجري خنقهم منذ "الانسحاب" الإسرائيلي، وهم محاطون بحاجز فصل لا تخترقه إلا نقاط التفتيش الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، مع وجود فتحة منفردة (للأفراد فقط) للدخول إلى سيناء مصر بوصفها مدخلهم للوصول إلى العالم الخارجي. ولم يكن هناك أي تحركات من إسرائيل للسماح بالنقل بحراً أو جواً. ولا يسمح لصيادي السمك بمغادرة الميناء، والعمال ممنوعون من الذهاب إلى الأعمال الخارجية، واستيراد أو تصدير الطعام والسلع الأخرى محدد

تحديداً قاسياً وهي في الغالب مقطوعة قطعاً كاملاً، وكذلك، فإن الشرطة، والمعلمين، والممرضين، والعاملين الاجتماعيين محرومون من الرواتب. وانخفض الدخل للفرد الواحد 40 بالمائة في أثناء الأعوام الثلاثة الأخيرة، وقد وصل معدل الفقر إلى 70 بالمائة. وبين المقرر الخاص من الأمم المتحدة لشؤون الحق في الطعام أن سوء التغذية الحاد في غزة كان قد وصل من قبل الآن إلى المعدل نفسه الذي يرى في أفقر بلاد في جنوب الصحراء، وأكثر من نصف جميع العائلات الفلسطينية لا تأكل إلا وجبة واحدة في اليوم.

كان هذا هو تأثير الانسحاب الإسرائيلي الأحادي، وذلك من قبل قصف إسرائيل الضخم وإعادة الغزو في شهر تموز/يوليو من العام 2006 بعد أن أسر مقاتلو حماس جندياً إسرائيلياً.

الفصل الخامس عشر
الانتخابات الفلسطينية والإسرائيلية 2006

لعدة أسباب، من جملتها الانسحاب الإسرائيلي للمستوطنين من غزة في شهر آب/أغسطس من العام 2005 وتهديد نجاح مرشحي حماس، فقد تم تأجيل الانتخابات البرلمانية الفلسطينية المبرمجة من شهر تموز/يوليو 2005 إلى شهر كانون الثاني/يناير من العام 2006 بعد عشر سنوات بالضبط تقريباً من التاريخ الذي استلم فيه ياسر عرفات والمجلس التشريعي المنصب لأول مرة. وعلى الرغم من أن نتائج الحملات السابقة كانت قابلة للتنبؤ بها، فإن دخول مرشحي حماس جاء بعدم اليقين والدراما إلى هؤلاء المتنافسين الذي بلغ عددهم 132. وفي هذه المرة كان هناك تدفق سريع للمراقبين الدوليين، إضافة إلى فريقنا المكون من مركز كارتر ومعهد الديمقراطية الوطني. وكي نحصل على موافقة من واشنطون، كان على وفدنا الأمريكي أن يمتنع عن الاجتماع مع قادة حماس أو مرشحيها على الأقل قبل الانتخابات.

وبعد أن صار آرييل شارون عاجزاً نتيجة المرض الشديد، كان إيهود أولمرت يقوم بمهام رئيس الوزراء ورئيس حزب كاديما، وهو تحالف سياسي جديد كان قد تشكل حين انسحب شارون من حزب الليكود في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2005. وكان غرض شارون هو أن ينفذ سياسة فك الارتباط من جانب واحد وأن يكمل بناء جدار ليفصل الفلسطينيين عن الأرض التي يتعين أن تطالب بها إسرائيل. ولكي تميز منظمة شارون الجديدة نفسها عن حزب الليكود من الجناح اليميني فإنها ترى أن "التوازن بين السماح لليهود بتحقيق حقهم التاريخي في العيش في أي مكان في أرض إسرائيل وبين المحافظة على الوجود المستمر لإسرائيل بصفتها الوطن اليهودي القومي يفرض الخيارالذي يتطلب حلاً وسطاً بشأن الأرض". ويدعي حزب كاديما أن تقدم عملية السلام مع الفلسطينيين هو غاية أولية: "إن وجود إسرائيل بوصفها وطناً قومياً للشعب اليهودي يفرض قبول مبدأ أن نهاية النزاع

ستكون متجلية بوضوح في وجود دولتين أمتين، مستندتين إلى الحقائق الواقعة السكانية، تعيشان في سلام وأمن جنباً إلى جنب". وقد وضع شارون الحزب بصفته حركة وسطية تدعم خريطة الطريق من أجل السلام، باستثناء إنذارات التحذير الإسرائيلية المعطّلة.

وبسبب التحدي المحتمل القوي من حماس، فقد أراد المسؤولون الإسرائيليون وكثيرون من قادة فتح أن يؤجلوا الانتخابات الفلسطينية أو أن يلغوها. وحماس لم تقبل التزامات منظمة التحرير الفلسطينية في أوسلو التي اعترفت "بحق دولة إسرائيل في أن توجد بسلام وأمن" والتي نبذت استخدام الإرهاب وأعمال العنف الأخرى، ولكن الولايات المتحدة مارست ما يكفي من الضغط للسماح بالانتخابات لتعقد. وكانت حماس الآن تمسك بالعديد من المناصب المحلية، وكان مسؤولوهم شاغلو المناصب سالمين من أي اتهامات بالفساد، وكانوا طوال ستة عشر شهراً، قد راعوا التزاماً بوقف إطلاق النار مراعاة دقيقة للغاية، وهو ما دعوه هدنة. أما فتح، وهي حزب عرفات وعباس، فكانت قد صارت عرضة للهجوم بسبب عدم فعاليتها الإدارية وبسبب الفساد المزعوم. وكان هناك عامل آخر هو أن إسرائيل والولايات المتحدة كلتيهما قد تجاهلتا عباساً بصفته شريكاً مفاوضاً مقبولاً في البحث عن السلام، ووصمتاه علناً (وفتحاً معه) بصفة غير مهم.

وفي الإعداد للانتخابات، استبدل بقادة فتح من الخط القديم مرشحون أكثر شباباً موالون لمروان برغوثي، وهو مقاتل يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة في سجن إسرائيلي. وكان يقال إنه هو الذي نسق الانتفاضة والهدنة أيضاً، وكان لبياناته من السجن أثر كبير. وبدا وكأنه أكثر قادة فتح شعبية، وفي بعض الأوقات ظهر أن الإسرائيليين كانوا يريدون أن يروجوا اقتراحاته، وكان ذلك في الغالب على حساب عباس. وقد سمحوا للبرغوثي أن يجتمع مع السجناء الآخرين وأن يجري مقابلات مع وسائل الأخبار ذات التوزيع الكوني.

وأشارت النتائج المتأخرة من كل من مستطلعي الرأي الإسرائيليين والفلسطينيين أن حوالي 35 بالمائة من المقاعد البرلمانية ستذهب إلى مرشحي حماس. وأعلنت إسرائيل أنه من دون اعتدال مؤثر (دراماتيكي) في سياسات حماس، فإن هذا الاشتراك نفسه من حماس سوف يستبعد أي مبادرة إلى محادثات سلام جوهرية

بين الإسرائيليين والفلسطينيين (وهي غائبة من قبل طوال السنوات الخمس الماضية) ويمكن أن ينهي العون الإنساني والأموال الأخرى التي كانت توجه من خلال الحكومة الفلسطينية.

بعد وصولنا إلى إسرائيل بقليل، كان لنا، روزالين وأنا، مناقشة واسعة مع إيهود أولمرت، القائم بأعمال رئيس الوزراء، الذي كنا قد عرفناه طوال أكثر من عشرين سنة. وكان لنا، هو وأنا، حوارات عديدة (وبعض الاتفاقات) منذ أن كان برلمانيا ليكوديا شاباً، وصرت أقدر ذكاءه، وفطنته السياسية، وطموحه الشخصي، وإرادته القوية. واعتبرناه زعيماً مهيباً لحزب كاديما الجديد وهو، بالتأكيد تقريباً، رئيس وزراء إسرائيل القادم. وأظهرت استطلاعات الرأي الجارية أن كاديما قد كسب فعلاً الدعم منذ أن حل أولمرت محل شارون. وقال لنا إنه سيتابع سياسات شارون وأوضح أنه يمكن فقط أن يستأنف محادثات السلام مع عباس بعد أن تكون كل الجماعات الفلسطينية الراديكالية قد جردت من السلاح بشكل كامل وأن تكون كل أعمال العنف قد منعت، مؤكداً على كلمة كل. وسألته إن كان الجهد الحقيقي المبذول بنية حسنة للسيطرة على العنف سيكون كافياً، وأشرت إلى أن السلام الشامل كان إمكانية لا أمل فيها في أي مجتمع. وهز رأسه، مع ابتسامة.

وفي صباح اليوم التالي (يوم اثنين)، خاطبت مؤتمر هرتزيليا، وهو أهم منتدى سنوي للزعماء الإسرائيليين والدوليين ليعبروا عن آرائهم بشأن أهم القضايا الجارية. وعلى الرغم من الاعتراف بالتكوين المحافظ لجمهور المستمعين، فقد عبرت عن آرائي بصراحة وبإيجاز، مشدداً على دوري في جهود السلام السابقة، ومستنكراً لسياسة إسرائيل الاستيطانية التوسعية والمسار المتعدي للجدار المقسِّم، ومثنياً على مبادرة جنيف بوصفها أساساً معقولاً للسلام. وبعدئذ أجبت على سلسلة من الأسئلة لمدة حوالي نصف ساعة. وتلقيت استقبالاً محترماً ومؤدباً، ولكنني علقت في الختام بالقول: إن هناك أسئلة تلقت من الاستحسان أكثر من إجاباتي.

ثم اجتمعنا بعد ذلك مع وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني، ومع زعيم حزب العمل عمير بيريتس، ومع شيمون بيرس، ومع المبعوث الاقتصادي الخاص للرباعية جيمس وولفينسون، ومع متحدث العلاقات العامة لحماس (ولكن ليس مع

مرشحيها)، ومع مرشحي فتح والأحزاب المستقلة، ومع يوسي بيلين، والآخرين الذين نسقوا مبادرة جنيف، ومع منسق الأمم المتحدة لسلام الشرق الأوسط، ومع قادة المجموعات الكبيرة الدولية من مراقبي الانتخابات.

ثم ذهبنا إلى رام الله للتشاور مع قادة اللجنة المركزية للانتخابات ثم اجتمعنا بعدئذ مع الرئيس الفلسطيني محمود عباس. وعلى الرغم من أنه عبر عن ثقته في نتيجة الانتخابات، فقد كان من الواضح أنه متألم من أنه قد تم تجاوزه أو تجاهله في "عملية السلام غير الموجودة". وأشار إلى أن شعب فلسطين الآن لديه فرص قليلة للتوظيف المربح أو للاتصال إما مع إسرائيل أو العالم الخارجي، وأن الاقتصاد الفلسطيني كان في مجزرة، وأن أولمرت كان يهدد بالإمساك بحوالي 55 مليون دولار في الشهر من إيرادات ضرائب وجمارك كانت تحصل نيابة عن الفلسطينيين بموجب بروتوكول اقتصادي كان قد وقع في العام 1994. والسلطة الوطنية الفلسطينية تعاني من قبل من عجز بلغ 900 مليون دولار وستجد صعوبة في دفع فواتيرها أو الوفاء بكشف الأجور. وقال إن السياسة الإسرائيلية حالت دون تدريب قوته الأمنية وتجهيزها، وبهذا فإن 10 بالمائة فقط من أفرادها لديهم أسلحة تحمل على الجنب أو لديهم تجهيزات اتصال.

في يوم الانتخابات، زرنا روزالين وأنا، أكثر من عشرين موقع اقتراع في القدس الشرقية وفي ضواحيها، وفي الخليل، وفي رام الله، وفي أريحا. والقيود الصارمة نفسها كانت مفروضة من إسرائيل لتقليل الاقتراع إلى الحد الأدنى في القدس الشرقية، وأما ماعدا ذلك فقد كانت الانتخابات تجري على نحو منظم وسلمي. وكان واضحاً لمراقبينا أنه كان هناك تفضل واضح لصالح مرشحي حماس ومن ضمن ذلك تفضيل لها في مجتمعات فتح القوية تاريخياً. وعلى الرغم من ذلك، كنا كلنا مندهشين من حجم نصر حماس. لقد تلقت حماس نصراً ضيقاً في الأصوات الشعبية ولكنها كسبت مع ذلك مثل هذه الأكثرية الواضحة من المقاعد البرلمانية (74 من 132) التي أعلن معها أعضاء من حكومة فتح استقالتهم مباشرة.

بقيت ليوم إضافي لأقوم الموقف ولأتحدث مع القادة الأساسيين. ففي رام الله وجدت الرئيس عباس مستعداً للاحتفاظ بمنصبه في أثناء السنوات الثلاث المتبقية من مدته ولكنه في حيرة بشأن الكيفية التي يتعامل بها مع نصر حماس،

وتشكيل حكومة جديدة، ومع ما يقرب من إفلاس السلطة الوطنية الفلسطينية، ومع عدم اليقين بشأن السياسات الإسرائيلية. وكان فخوراً بالعملية الانتخابية الأمينة، والعادلة، والسليمة. وعبر قادة حماس عن رغبتهم في تشكيل حكومة وحدة مع فتح ومع أحزاب مستقلة أصغر منهما، ولكن نية عباس كانت متجهة إلى عدم التعاون معهم وقد قاوم حضّي له على أن يعيد النظر في ذلك.

زعيم فتح لم يكن مستعداً أن يعترف بمزاعم الفساد التي كانت سبباً مهماً لنجاح حماس، ولكنه أشار إلى أن أحد العوامل الكبيرة في الاقتراع كان عدم فاعليته الظاهرة لأنه كان قد تم تجاهله من إسرائيل ومن قادة الرباعية. كانت هناك بضعة اجتماعات رمزية في أثناء أول عام له بصفته الرئيس، ولكنه قال إنه لا الولايات المتحدة ولا إسرائيل كانت مستعدة لمباحثات سلام جوهرية، واستخدمتا الانسحاب الأحادي من غزة عذراً لذلك. وذكرني أنه لم تكن هناك أي فرصة لزعيم فلسطيني ليشارك في محادثات السلام طوال السنوات الخمس الماضية، في حين قام الإسرائيليون بمصادرة المزيد والمزيد من الأرض في الضفة الغربية وبفرض القيود القاسية المتزايدة على شعبه. لقد تولت إسرائيل المزيد من السيطرة على القطاعات الاستهلاكية والإنتاجية لاقتصاد المنطقة، وجعلتها بذلك سوقاً حصرية للعديد من المنتجات الإسرائيلية بما في ذلك بين المواطنين الفلسطينيين المحليين، الذين لا يستطيعون أن يبيعوا منتجاتهم الخاصة في إسرائيل أو في الأردن أو في أماكن أخرى.

وقال عباس إنه على الرغم من إجراء انتخابات ديمقراطية نموذجية، فإن الفلسطينيين لم يمتلكوا أبداً فرصة لتشكيل حكومة قابلة للحياة. وقد أجبر نظامهم الاقتصادي على العودة إلى العصر السابق للعصر الصناعي وقطعت أرضهم إلى شظايا أصغر من ذي قبل. وأخبرني عباس أنه لم يكن يوجد أرصدة كافية متوفرة للوفاء بكشف رواتبه لشهر شباط/فبراير للشرطة، وللمعلمين، وللممرضين، ولموفري الخدمات الأخرى، وأن أي تخفيض من دخلهم بسبب نتائج الانتخابات سيكون كارثياً.

وعلى الرغم من أنني لم أكن أملك أي اتصال مع حماس منذ انتخاب عرفات رئيساً وتعهدت بأن أمتنع عن مقابلتهم إلى ما بعد هذه الانتخابات الحديثة، فقد

قررت أنه حان الوقت بالنسبة إلي أن أتشاور معهم ثانية. وفي مكتب مركز كارتر في رام الله الذي أقيم لمراقبة الانتخابات، تحدثت مع عضو من حماس هو الدكتور محمود رمحي، وهو متخصص في التخدير، وذكرني أنني تقابلت معه قبل عشر سنوات. وقد اختير لاحقاً أميناً للهيئة التشريعية ومتحدثاً باسم حماس في الضفة الغربية. (وهو الآن، وبرفقته بعض مشرعي حماس الآخرين الذين يسكنون في الضفة الغربية، سجين لدى الإسرائيليين.)

وحين سألته عن ضرورة قيام حماس بنبذ العنف والاعتراف بإسرائيل، أجاب بأنهم لم يرتكبوا عملاً من أعمال العنف منذ أن أعلن وقف إطلاق النار في شهر آب/أغسطس من العام 2004 وبأنهم كانوا مستعدين وقادرين على تمديد وتنفيذ وقفهم لإطلاق النار (الهدنة) لمدة "سنتين، أو عشر سنوات، أو خمسين سنة" إذا كانت إسرائيل سترد بالامتناع عن الهجمات على الفلسطينيين. وأضاف أنه لم يكن هناك أي اتهامات بالإرهاب أو بالفساد بين قادتهم المحليين العاملين، وأن إسرائيل قد رفضت حتى الآن أن تعترف بالسلطة الفلسطينية الوطنية (فقط بمنظمة التحرير الفلسطينية) وقد رفضت الأحكام الأساسية في اتفاقية أوسلو. إن الأسبقيات الأولى لحماس ستكون تشكيل حكومة، والمحافظة على النظام، وأن تعالج الأزمة المالية.

وسأل أيضاً، "أين هي إسرائيل التي تريدنا أن نعترف بها؟ هل تشمل الضفة الغربية والقدس الشرقية؟" وأضاف أنهم لن يكون بهم حاجة إلى أن يرتبطوا مباشرة بالإسرائيليين، ولكنهم كانوا يريدون لوقف إطلاق النار المتبادل أن يكون محافظاً عليه. وأمل أن فتحاً ستنضم إلى الحكومة الجديدة وأن عباساً سوف يستمر بالخدمة رئيساً لها وأنه سيعالج كل القضايا الخارجية. وأعمالهم المستقبلية سوف تكشف، طبعاً، التزاماتهم الحقيقية، ولكن تخميني كان أنهم في أثناء المستقبل القريب كانوا يريدون أن يعززوا مكاسبهم السياسية، ويحافظوا على النظام والاستقرار المحليين، وأن يمتنعوا عن أي اتصالات مع إسرائيل. وستكون مأساة خصوصاً للفلسطينيين إذا قرروا أن يروجوا للإرهاب أو أن يتغاضوا عنه.

في أثناء الأسابيع التالية القليلة حاولت حماس من دون نجاح أن تقنع أعضاء فتح بتولي بعض مناصب الوزراء وأخيراً اقترحت حماس قائمتها الخاصة، التي قبلها

الرئيس عباس. وأهم المناصب سيتولاها الدكتور إسماعيل هنية رئيساً للوزراء، والدكتور محمود الزهار وزيراً للخارجية، والمتحدث باسم المجلس التشريعي الدكتور عزيز دويك، الذي نال شهادته الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا. وقد أشار استطلاع للرأي العام بعد الانتخابات أن 73 بالمائة من الفلسطينيين عبروا عن مساندتهم لعملية سلام لدولتين مع إسرائيل، ولكن الجميع شعر أن حماس يجب أن تمتنع عن الاعتراف بإسرائيل إلى أن تكون بعض قضايا الوضع النهائي قد حلت. وكان 1 بالمائة فقط من الشعب يدعمون فرض حماس للقانون الإسلامي في فلسطين. وكانت نتيجة استطلاع الرأي التي أجراها في شهر آذار/مارس للعام 2006 معهد ترومان للبحوث في الجامعة العبرية على درجة مساوية من التشجيع وأظهرت أن 62 بالمائة من الإسرائيليين يدعمون المحادثات المباشرة مع حماس.

أثارت انتخابات شهر كانون الثاني/يناير من العام 2006 لحكومة من حماس السؤال الضخم وغير المحلول بشأن استمرار الفلسطينيين في سياسة رفضهم لإسرائيل بانتظار الاستعادة الكاملة لوطنهم. وبصفته رئيساً للسلطة، وبصفته رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، بيّن محمود عباس بوضوح أنه مازالت هناك فرصة لإيجاد مسار إلى السلام الدائم في الأراضي المقدسة من خلال المحادثات المباشرة مع إسرائيل. وأعلن رئيس الوزراء الفلسطيني هنية أن حكومته من حماس كانت "جاهزة للحوار" مع أعضاء من الرباعية، وعبر عن الموافقة على محادثات سلام مباشرة بين أولمرت وعباس، وقال إن حماس ستغير موقفها الرافض إذا كان من المستطاع الوصول إلى تحقيق اتفاقية مرضية وموافق عليها من الشعب الفلسطيني. ومثل هذه الموافقة الفلسطينية على اتفاقية سلام نهائية كانت مظهراً مهماً من اتفاقات كامب ديفيد.

وعلى الرغم من أنه مازال هناك اختلاف واسع في الشروط المسبقة للمحادثات، فإن محللي الأخبار رحبوا بما بدا أنه موقف فلسطيني أكثر اعتدالاً. وكان رد فعل الولايات المتحدة هو أن على حماس أن تعترف أولاً بإسرائيل، وأن تنبذ العنف، وأن توافق على احترام الاتفاقات التي جرى التفاوض عليها سابقاً. وكان رد فعل إسرائيل، الذي ألقاه وزير دفاعها، هو أن كل أعضاء حماس في البرلمان وعددهم

أربعة وسبعون عضواً سيكونون مستهدفين للاغتيال في حالة حدوث هجوم عنيف آخر على الإسرائيليين من أي فلسطيني.

ويخبرني بعض المثقفين الفلسطينيين أن منظمة تحرير فلسطينية متأثرة بحماس تستطيع أن تكون أقدر على الحلول الوسط المتواضعة في هذه القضايا الأساسية مثل القدس، واللاجئين الفلسطينيين، والمستوطنات اليهودية في الضفة الغربية. فالفلسطينيون يرون، بتركيز يصل إلى الرؤية النفقية، استعادة حقوقهم، المحددة بالقانون الدولي، بوصفها المفتاح للسلام في كل أنحاء الشرق الأوسط الكبير ومن جملته دول الخليج.

ويجب أن نتذكر أن محمود عباس ليس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية وحسب، مع ما له من سلطة جوهرية بموجب القانون الفلسطيني، بل هو أيضاً الزعيم غير المنازع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي الكيان الفلسطيني الوحيد المعترف به من إسرائيل أو المجتمع الدولي. وقد وافق محمود عباس علناً على خريطة طريق المجتمع الدولي من أجل السلام من دون لبس وكان راغباً في التفاوض مع إسرائيل منذ أن صار رئيس وزراء قبل أن ينتخب رئيساً بثلاث سنوات.

من الممكن يقيناً أن مسار الفلسطينيين يقود إلى نهاية ميتة، وأن حلفاءهم العرب أنفسهم سوف يكلّون من دعم القضية الفلسطينية دعماً نشيطاً. لقد قال مارتن لوثر كنغ، الصغير، مرة إنه لا شيء سيؤذي قضية السود في أمريكا ببساطة أكثر من أن يناسب البيض أن يصابوا بالسأم منها. ولا يحتمل أن يكون الاستعداد الفلسطيني للجوء إلى العنف بعد الآن مثمراً في المستقبل أكثر مما كان في الماضي. يجب الملاحظة أن الفلسطينيين، باتباعهم لسياسات المواجهة وعدم المرونة قد استعدَوا العديد من الزعماء المعتدلين في إسرائيل وأمريكا ولم يستعيدوا أياً من أرضهم أو حقوقهم الأساسية الأخرى.

إن مصير كل الفلسطينيين يتوقف على اختيار أولئك الموجودين منهم في الأراضي المحتلة، أيختارون أن يتابعوا الوصول إلى غاياتهم بالطرق السلمية أم بإراقة الدم المستمرة؟ إن حركة حقيقية نحو السلام قد تجلب فوائد ثرية عن طريق استنهاض الدعم في الولايات المتحدة وفي الأمم الأخرى.

وفي الوقت نفسه تقريباً الذي تشكلت فيه حكومة حماس في أواخر شهر آذار/مارس من العام 2006، فإن عدداً قليلاً من الحضور من المواطنين الإسرائيليين قسموا دعمهم، وكانت النتيجة أن من بين 120 مقعداً في الكنيست، نال حزب كاديما الجديد 29 مقعداً مخيبة للأمل، ونال حزب العمل 20، ونال الليكود 12، ونال شاس 12، وتقاسمت الأحزاب الصغيرة 47 مقعداً أخرى. وفي السابق، كان يُتوقع لكاديما أن ينال 43 مقعداً بالاستناد إلى تعهده بتوسيع أحادي "للجدار العظيم". وأظهرت النتائج أن هيئة الناخبين أكثر انقساماً بشأن قبول هذه الخطة مما كان متوقعاً، وأشار الناخبون إلى بعض النقص في الثقة بأولمرت رئيساً لوزراء إسرائيل. ولم تضم الوزارة أي أعضاء عرب إسرائيليين بين الخمسة والعشرين عضواً فيها.

الفصل السادس عشر

الجدار سجناً

مع تزايد السيطرة على القدس الشرقية، ومع الأمن النسبي الذي توفر من الجدار المحيط بما بقي من الضفة الغربية، ومع آلاف المستوطنين الباقين شرقي الجدار تحميهم قوة احتلال قوية، فإن هناك إغراء لبعض الإسرائيليين بأن يتجنبوا ببساطة بذل أي جهود إضافية للبحث عن اتفاقية سلام مستندة إلى خريطة طريق الرباعية أو إلى مفاوضات بحسن نية مستندة إلى أي أساس آخر.

وفي هذا الفراغ الدبلوماسي، شرع زعماء إسرائيليون في اتخاذ سلسلة من القرارات الأحادية الجانب، التي تتجاوز واشنطون والفلسطينيين كليهما. وافتراضهم هو أن حاجزاً محيطاً سوف يحل في النهاية المشكلة الفلسطينية. وهم باستخدام هيمنتهم السياسية والعسكرية، يفرضون نظام انسحاب جزئي، وتطويق، وفصل عنصري على المواطنين المسلمين والمسيحيين في الأراضي المحتلة. والغرض الدافع للفصل القسري على الشعبين مختلف عن الغرض في جنوب إفريقية - ليس العنصرية، ولكنه اكتساب الأرض. لقد كان هناك جهد مصمم وفعال بشكل ملحوظ لعزل المستوطنين عن الفلسطينيين، وذلك لكي تستطيع العائلة اليهودية أن تنتقل من القدس إلى بيتها المعان مالياً عوناً عالياً جداً والموجود في موقع عميق في الضفة الغربية على طرق يستبعد الآخرون من المرور عليها، من دون أن يدخل أبداً في اتصال مع أي مظهر من الحياة العربية.

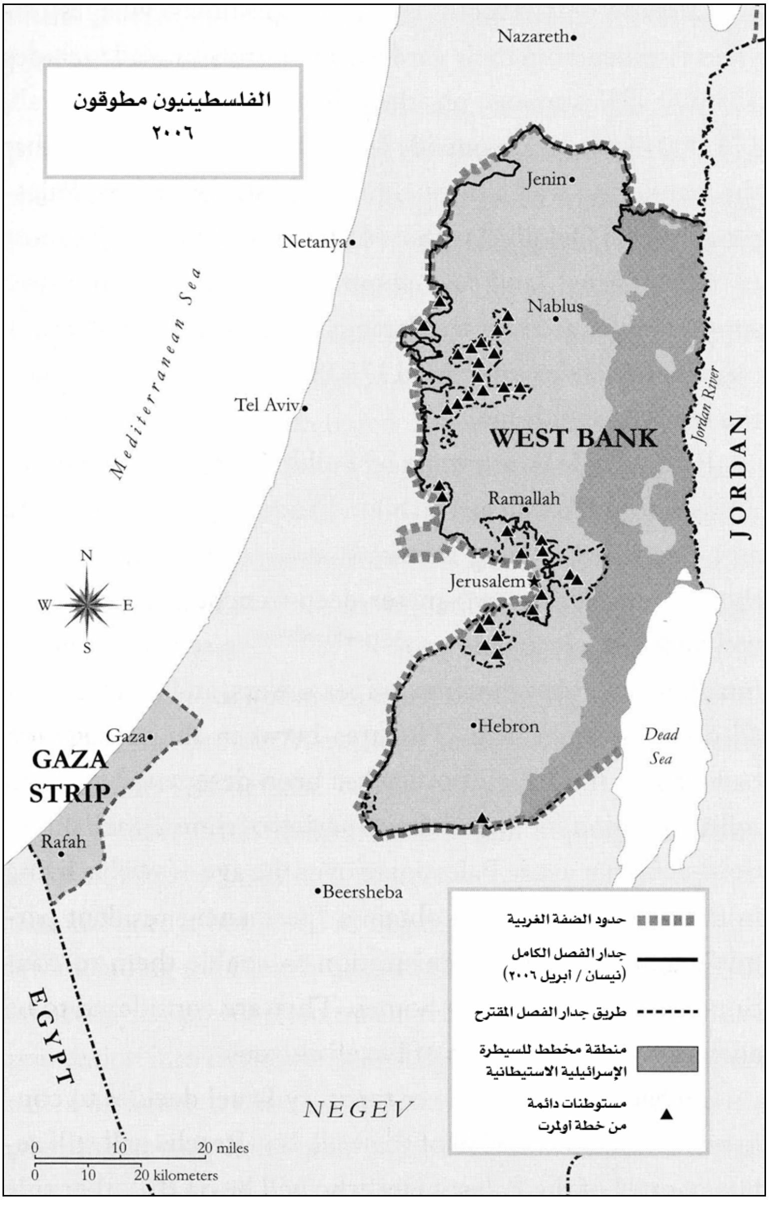
وكان الانسحاب من غزة هو الخطوة الأولى الأحادية الجانب، وتركت كياناً غير قابل للحياة اقتصادياً وسياسياً، وهو محصور ومعزول، وليس له أي مدخل يمكن الاعتماد عليه للدخول منه إلى الجو، أو إلى البحر، أو إلى الفلسطينيين الآخرين كذلك. والفرص المستقبلية للضفة الغربية فرص أكثر تعاسة جداً أيضاً. والمزعج بوجه خاص هو الجدار الضخم المقسِّم القائم في المناطق المكتظة بالسكان والسياج الذي لا يمكن المرور من خلاله في المناطق الريفية. إن وضع هذا الحاجز هو مفتاح للسلام المستقبلي في الشرق الأوسط. والفكرة الأصلية لإقامة عائق مادي

كانت قد روجت من المعتدلين الإسرائيليين ليكون العائق وسيلة لمنع الهجمات المتعدية بعد انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلية. والحاجز الأول، المطوق لغزة، برهن على أن هذا الافتراض كان افتراضاً سليماً، من حيث أنه كان هناك تناقص جوهري في الغارات عبر الحدود. وكانت الخطة هي أن يستمر إنشاء المتراس الحاجز على طول الحدود بين إسرائيل والضفة الغربية.

وبدلاً من ذلك، فقد بنت حكومات آرييل شارون وإيهود أولمرت السياج والجدار بكاملهما داخل الأرض الفلسطينية، ودخلت متعدية عنوة بعمق إلى الضفة الغربية لتحدق بكتل الاستيطان الإسرائيلي وبمساحات كبيرة من الأرض الفلسطينية الأخرى. والجدار وفق ما هو مخطط له سيكون طوله ثلاثة أضعاف ونصف طول حدود إسرائيل المعترف بها دولياً وهو يقطع بالفعل مباشرة عبر القرى الفلسطينية، مقسّماً العائلات وفاصلاً لها عن حدائقها وأرضها الزراعية، ويضم 375.000 فلسطيني على الجانب "الإسرائيلي" من الجدار، و175.000 فلسطيني منهم خارج القدس. وأحد الأمثلة على ذلك هو أن الجدار الجوال يطوق مدينة قلقيلية الفلسطينية طوقاً كاملاً تقريباً بسكانها البالغ عددهم 45.000 نسمة، مع مصادرة معظم أرض المواطنين وحوالي ثلث مصدرهم للمياه من قبل الإسرائيليين. والتطويق نفسه تقريباً حدث حول 170.000 مواطن من بيت لحم مكان ولادة المسيح.

أولاً، يجب أن تجرف بالجرافات بقعة واسعة من الأرض عبر المجتمعات قبل أن يكون بالإمكان بناء الجدار. وبالإضافة إلى الإسمنت المسلح ومواد السياج المكهربة المستخدمة في الإنشاء، يتضمن الحاجز خنادق بعمق مترين، وطرقاً للدوريات الراكبة في المركبات، وأجهزة تحسس إليكترونية للأرض وللسياج، وآلات تصوير حرارية وفيديوية، وأبراج قناصة، وأسلاكاً شائكة كالشفرات - وكل ذلك على الأرض الفلسطينية. وقد صممت المساحة الواقعة بين حاجز الفصل وبين الحدود الإسرائيلية لتكون منطقة عسكرية مغلقة لمدة

الخريطة 9


الفلسطينيون مطوقون
٢٠٠٦
Nazareth
Jenin
Netanya
Nablus
Mediterranean Sea
Tel Aviv
WEST BANK
Jordan River
JORDAN
Ramallah
Jerusalem
N
W
E
S
Gaza
GAZA STRIP
Rafah
Hebron
Dead Sea
Beersheba
EGYPT
NEGEV
0 10 20 miles
0 10 20 kilometers
حدود الضفة الغربية
جدار الفصل الكامل (نيسان / أبريل ٢٠٠٦)
طريق جدار الفصل المقترح
منطقة مخطط للسيطرة الإسرائيلية الاستيطانية
مستوطنات دائمة من خطة أولمرت

غير محددة من الزمن. وتنص التوجيهات الإسرائيلية على أن كل فلسطيني فوق عمر الثانية عشرة يعيش في منطقة قريبة يجب عليه أن يحصل على "ترخيص مقيم دائم" من الإدارة المدنية لتمكين الفلسطينيين من الاستمرار في العيش في بيوتهم الخاصة. وهم يعتبرون غرباء، من دون حقوق المواطنين الإسرائيليين.

وباختصار، فإن أي أرض تقرر إسرائيل أن تصادرها ستكون في جانبها من الجدار، ولكن الإسرائيليين، مع ذلك، سيستبقون أيضاً السيطرة على الفلسطينيين الذين سيكونون موجودين على الجانب الآخر من الحاجز، وسيكون هؤلاء محصورين بين الحاجز وبين القوات الإسرائيلية الموجودة في وادي نهر الأردن.

لقد قال الرئيس جورج دبليو. بوش: "أنا أعتقد أن الجدار مشكلة. إن من الصعب أن تتطور الثقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين مع وجود جدار يتلوى كالأفعى عبر الضفة الغربية". ومنذ العام 1945، عملت محكمة العدل الدولية بشكل أساسي ذراعاً قضائياً لنظام الأمم المتحدة، وفي شهر تموز/يوليو من العام 2004 قررت المحكمة أن إنشاء الحكومة الإسرائيلية لجدار الفصل في الضفة الغربية المحتلة الفلسطينية كان عملاً غير قانوني. لا بل إن توماس بويرجنتال، وهو القاضي الأمريكي الذي ألقى الصوت السلبي الوحيد (وكان ذلك على الأغلب على أسس إجرائية)، أقر أن الفلسطينيين كانوا تحت احتلال وكانوا يمتلكون الحق بتقرير المصير، وأن إسرائيل كانت ملزمة بالتقيد بالقانون الإنساني الدولي، وأنه كانت هناك أسئلة جدية حول ما إذا كانت إقامة حاجز لا يمكن اختراقه ومده في طريق معينة لحماية مستوطنات الضفة الغربية ستجعله صالحاً ليوصف بصفة الدفاع القانوني عن النفس.

أقرت المحكمة حق إسرائيل في أن تحمي حياة مواطنيها بأن تبني حاجزاً حامياً في داخل حدودها الوطنية الخاصة، ولكنها استندت في حكمها السلبي إلى القانون الدولي ومن جملته ميثاق جنيف الرابع، الذي يمنع القوة المحتلة من تحويل أي أقسام من سكانها المدنيين إلى الأراضي المستولى عليها بالقوة العسكرية. ودعت المحكمة إسرائيل إلى أن توقف إنشاء الجدار، وأن تفك ما قد بنته من قبل في المناطق الواقعة بعد حدود إسرائيل الدولية المعترف بها، وأن تعوض الفلسطينيين الذين عانوا خسائر نتيجة لإنشاء الجدار. وقد اختارت المحكمة العليا الإسرائيلية

ألا تقبل قرار المحكمة الدولية ولكنها أقرت أن إسرائيل تمسك الضفة الغربية "باحتلال محارب" وأن "قانون الاحتلال المحارب... يفرض شروطاً" على سلطة العسكريين، ولو كان ذلك في المناطق المتصلة بالأمن.

إن الجدار يخرب العديد من الأماكن المهمة للمسيحيين على طول طريقه الملتوي. وإضافة إلى تطويقه لبيت لحم في تعدٍ من أبرز تعدياته، فإن التقسيم الذي ينفطر له القلب حزناً على نحو خاص هو التقسيم الواقع على المنحدر الجنوبي من جبل الزيتون، موقع قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وهو مكان مفضل للمسيح ولحوارييه، وقريب جداً من بيت هني(العازارية)، حيث زاروا في الغالب مريم، ومارثا، وأخاهم لازاروس. وهناك كنيسة اسمها باسم واحدة من أخواتها، وهي دير سانتا مارتا، حيث يقطع الجدار الإسرائيلي الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً الأراضي المملوكة للدير ليمر عبرها. فبيت العبادة الآن في الجانب الواقع من جهة القدس وأبناء الأبرشية مفصولون عن بيت العبادة لأنهم لا يستطيعون الحصول على تراخيص لدخول القدس. ويقول كاهن الكنيسة، الأب كلوديو غيلاردي: "طوال تسعمائة عام عشنا هنا تحت حكومات تركية، وبريطانية، وأردنية، وإسرائيلية، ولم يسبق لأحد أبداً أن أوقف الناس عن المجيء إلى الصلاة. إنه فضائحي. هذا ليس حاجزاً. إنه حدود. لماذا لا يقولون الحقيقة؟"

وتفنيداً لحجج الإسرائيليين القائلة إن الجدار هو لإبقاء المفجرين الفلسطينيين الانتحاريين بعيدين عن إسرائيل، يضيف الأب كلوديو تعليقاً يصف مسار الحاجز بأكمله: "الجدار لا يفصل الفلسطينيين عن اليهود، بل هو يفصل الفلسطينيين عن الفلسطينيين". وتقع في الجوار ثلاثة أديرة للراهبات سوف تنفصل أيضاً وتنقطع عن الناس الذين تخدمهم هذه الأديرة. وهؤلاء 2.000 من الفلسطينيين المسيحيين قد فقدوا مكانهم للعبادة وفقدوا مركزهم الروحي.

وإضافة إلى عزل الجدار لحوالي 200.000 فلسطيني والإغلاق عليهم في القدس عن أقاربهم، وأملاكهم، ومدارسهم، وأعمالهم التجارية، فإن الجدار مصمم لاستكمال الطوق على فلسطين مقطعة تقطيعاً حاداً، وهي قسم صغير من حجمها الأصلي، ومجزأة إلى قطع محجور عليها، ومقسمة إلى كانتونات، ومحتلة من قوات الأمن الإسرائيلية، ومعزولة عن العالم الخارجي. وإضافة إلى ذلك، يجري بناء

شبكة من الطرق العامة الرئيسية المقصورة الاستخدام في هذه الشظايا نفسها المتبقية من الضفة الغربية لتربط إسرائيل الكبرى الجديدة في الغرب مع وادي نهر الأردن المحتل في الشرق، حيث يعيش 7.000 يهودي في إحدى وعشرين مستوطنة محمية حماية كثيفة بين حوالي 50.000 فلسطيني من الذين مازال مسموحاً لهم البقاء هناك. والمساحة الواقعة على طول نهر الأردن، والتي تخطط الآن لتكون الساق اليمنى لتطويق الفلسطينيين، هي واحدة من أكثر مناطق فلسطين الزراعية ربحاً وإنتاجاً. ومعظم سكانها طردوا منها بالقوة في العام 1967، ولم يسمح الإسرائيليون لهذه العائلات الأصلية أن تعود. ويحتفظ ضباط الجمارك الإسرائيليون بقوائم بأسمائهم، والضباط حريصون على منع هذه العائلات من عبور أي نقطة تفتيش دولية إلى الأرض المحتلة، حيث يمكنهم أن يؤكدوا ملكيتهم لبيوتهم ولأرضهم الزراعية؟.

من الواضح أن الفلسطينيين سيتركون من دون أرض لتأسيس دولة قابلة للحياة فيها، ولكنهم مطوقون تطويقاً كاملاً داخل الحاجز ووادي نهر الأردن المحتل. وسيكون للفلسطينيين مستقبل من المستحيل بالنسبة إليهم أن يقبلوه أو أن يقبله أي قسم مسؤول من المجتمع الدولي، وسيكون وضع إسرائيل الدائم مضطرباً ومشكوكاً فيه بشكل متزايد حين يقوم شعب محروم بمقاتلة الاضطهاد وحين يتناقص العدد النسبي للمواطنين اليهود سكانياً (مقارنة بالعرب) داخل إسرائيل وفي فلسطين معاً. وهذا المنظور واضح لمعظم الإسرائيليين الذين ينظرون إليه أيضاً بوصفه تشويهاً لقيمهم. وتبين الأحداث الحديثة المتصلة بغزة ولبنان بياناً عملياً التصعيد الحتمي في التوتر والعنف داخل فلسطين، والسخط والعداوة الشديدين من المجتمع الدولي ضد إسرائيل وأمريكا معاً.

وإن إحدى النواحي المعرضة للهجوم في إسرائيل، وهي سبب محتمل للعنف، هي احتجازها للأسرى. فالمقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون يعرفون أن أسر جندي إسرائيلي أو مدني إسرائيلي سيكون إما فيشة مساومة قيمة لتبادل الأسرى أو سبباً للنزاع. لقد تمت عدة مبادلات من هذا النوع: 1.150 فلسطينياً في مقابل ثلاثة إسرائيليين في العام 1985، و123 لبنانياً في مقابل رفات جنديين إسرائيليين في العام

1996، و433 فلسطينياً وآخرون في مقابل رجل أعمال إسرائيلي ورفات ثلاثة جنود في العام 2004.

وتقدر منظمات حقوق الإنسان الدولية، منذ العام 1967، أن أكثر من 630.000 ألف فلسطيني في الأراضي المحتلة (ويمثلون حوالي 20 بالمائة من عدد السكان الإجمالي) كانوا قد احتجزوا في وقت ما من قبل الإسرائيليين، وهو ما يستثير سخطاً عميقاً في صفوف العائلات ذات العلاقة. وعلى الرغم من أن الأكثرية الضخمة من السجناء هم من الرجال، فهناك عدد كبير من النساء والأطفال يجري احتجازهم. والأطفال، في الأعمار بين اثني عشر عاماً وأربعة عشر عاماً، يمكن أن يحكموا لمدة تصل إلى ستة أشهر، وبعد عمر أربعة عشر عاماً يحاكم الأطفال الفلسطينيون بوصفهم كباراً، وهذا خرق للقانون الدولي.

وإضافة إلى الزمن الذي يقضيه السجناء في الحبس، فإن المدد الزمنية السابقة للمحاكمة يمكن أن تكون طويلة إلى حد ما. وبموجب قوانين إسرائيلية خاصة تحكم المدة السابقة لصدور الحكم، يمكن أن يستجوب الموقوفون الفلسطينيون طوال مدة إجمالية تصل إلى 180 يوماً وأن يحرموا من زيارات المحامي طوال فواصل زمنية تصل إلى 90 يوماً. "والحجز الإداري" قابل لإعادة التجديد إلى أجل غير محدد بموجب النظم العسكرية. والاعترافات التي تنتزع من خلال التعذيب مقبولة في المحاكم الإسرائيلية. والأشخاص المتهمون يحاكمون عادة في محاكم عسكرية في الضفة الغربية، ثم يودعون في الزنازين في سجون داخل إسرائيل. وهذا يعني أن زيارات العائلة ممنوعة والوصول إلى المحامين ممنوع في أثناء المرات المتكررة والطويلة من أزمنة فرض القيود المشددة على السفر. إن ميثاق جنيف الرابع يحرم هذه السياسة، وينص على أن "الأشخاص المحميين المتهمين بإساءات يجب أن يحتجزوا في البلاد المحتلة، وإذا حكم عليهم فيجب أن يقضوا أحكامهم فيها".

لقد انفجرت دورة العنف مرة أخرى في شهر حزيران/يونيو من العام 2006، حين حفر الفلسطينيون نفقاً تحت الحاجز الذي يطوق غزة وهاجموا بعض الجنود الإسرائيليين، وأسروا واحداً منهم. وقد عرضوا أن يبادلوا الجندي مقابل إطلاق بعض النساء من 95 امرأة و313 طفلاً هم من بين حوالي 8.500 فلسطيني في السجون الإسرائيلية. ورفضت إسرائيل أي مفاوضات، وفي محاولة لإنقاذ الجندي ووقف

إطلاق الصواريخ المصنوعة محلياً، على الأراضي الإسرائيلية، غزت إسرائيل أجزاء من غزة وقصفت المباني الحكومية ودمرت الجسور الواصلة، ومحطات الطاقة التي توفر الكهرباء والماء. وكانت هناك خسائر ثقيلة وصارت غزة أكثر عزلة من السابق. وحين وافق قادة حماس وفتح على أن يقبلوا مقترحاً من السجين المحترم، مروان برغوثي، بصفته بياناً عملياً لوحدتهم، ردت إسرائيل باعتقال 64 عضواً من حماس في الضفة الغربية، ومن جملتهم ثلث أعضاء الوزارة الفلسطينية و23 مشرِّعاً. وأعلن المسؤولون الإسرائيليون أن هؤلاء المعتقلين سوف يسجنون إلى أن تستطيع المحاكم العسكرية أن تقرر أي عقاب إضافي سيفرض عليهم. وفي نهاية شهر آب/أغسطس، كان الإسرائيليون يحتجزون نائب رئيس مجلس الوزراء وستة آخرين من مسؤولي الوزارة بالإضافة إلى ثلاثين عضواً من المجلس التشريعي، ومن جملتهم المتحدث باسم البرلمان، عزيز دويك.

هاجم مقاتلو حزب الله المرابطون في لبنان، وهم يدّعون أنهم يساندون الفلسطينيين المحاصرين، سيارات دورية إسرائيلية في إسرائيل، وقتلوا ثلاثة جنود وأسروا اثنين آخرين. فأعلن رئيس الوزراء أولمرت أن هذا العمل كان إعلاناً وطنياً للحرب، ثم فرض حصاراً بحرياً وشن هجمات على أهداف متعددة في بيروت وفي جميع أنحاء جنوب لبنان. وطالب قادة حزب الله بإطلاق سراح السجناء اللبنانيين وبانسحاب إسرائيل من المنطقة المتنازع عليها من مزارع شبعا. وأطلق حزب الله تدفقاً من الصواريخ على المدن في إسرائيل الشمالية.

وفي الشهر الأول من القتال، فإن أكثر من 800 لبناني مدني ماتوا أو كانوا مفقودين تحت الركام وأجلي مليون مدني وهو ربع عدد السكان عن بيوتهم. وقتل سبعة وعشرون مدنياً إسرائيلياً، وترك عدد ضخم بيوتهم في شمال إسرائيل أو عاشوا في ملاجئ القنابل ليهربوا من قصف صواريخ حزب الله. وكان هناك كذلك عدد غير معروف من الخسائر العسكرية في كلا الجانبين.

وعلى الرغم من أن العديد من اللبنانيين أدانوا قوة حزب في جنوب لبنان وأعماله الاستفزازية، فإن زعماء الأمة شكلوا فوراً جبهة متحدة رداً على الهجمات الإسرائيلية. ودعا رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة دعوة متكررة إلى وقف إطلاق النار ومساعدة بلاده وقال: "إن البلاد قد تمزقت إلى شظايا. ولبنان يستحق

الحياة". واقتبس، وهو يعلق على معارضة الولايات المتحدة وإسرائيل للوقف الفوري لإطلاق النار، قول المؤرخ تاسيتوس من روما القديمة: "لقد خلقوا الخراب ويسمونه سلاماً". وصاح سعد الحريري، الذي كان أبوه رئيساً للوزراء ويعتقد أنه قد اغتيل من أصدقاء لسورية، يقول: "ماذا تفعل الولايات المتحدة وإسرائيل؟ أنتم تروجون للديمقراطية ثم تسمحون بتدميرها".

هذه الدورة من الأعمال الاستفزازية من المقاتلين العرب والرد العسكري المدمر من إسرائيل تبين عملياً مرة أخرى النتائج الدائمة، المقرّحة الناجمة عن النزاع غير المحلول في الشرق الأوسط. إن القوة العسكرية القوية لإسرائيل تستطيع، مع القبول أو الدعم الأمريكيين، أن تدمر البنية التحتية الاقتصادية وأن توقع خسائر ثقيلة في غزة ولبنان، ومعهما أمم أخرى كذلك. ولكن حين يحدث هذا التدمير، فإن من المحتمل أن تبقى حركات حرب العصابات على قيد الحياة وأن تصير أكثر توحداً وأن تحشد دعماً أوسع.

وقد وجد استطلاع قام به مركز بيروت للبحوث والمعلومات، أجراه بعد ثلاثة أسابيع من القصف الإسرائيلي، أن 87 بالمائة من اللبنانيين ساندوا معارك حزب الله مع إسرائيل. وتضمنت هذه النسبة 80 بالمائة من المسيحيين اللبنانيين، الذين هم ميالون عادة إلى أن يكونوا مصادقين لإسرائيل ومعارضين سياسياً للمقاتلين المسلمين.

وطوال خمسة أسابيع، ساندت حكومة الولايات المتحدة إسرائيل مساندة قوية، وشجعت قصفها على لبنان، وعرقلت جهود فرنسا والأمم الأخرى لفرض وقف فوري لإطلاق النار. وشملت القضايا الوقف لكل القتال، ونزع السلاح من حزب الله، وانسحاب القوات الإسرائيلية من كل لبنان ومن جملة ذلك مزارع شبعا، وتبادل الأسرى، وقوة حفظ سلام دولية يتعين تأسيسها بصفتها قوة حاجزة. وأخيراً، في 11 آب/أغسطس، أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة القرار 1701، الذي نص على أن القتال ينبغي أن يتوقف وأن 15.000 من قوات لبنان العسكرية وعدداً مساوياً من المجتمع الدولي سوف ينتشرون في جنوب لبنان في حين تنسحب القوات العسكرية لإسرائيل ولحزب الله كليهما. وأما القضايا الأساسية المتصلة بتبادل الأسرى، واحتلال إسرائيل لمزارع شبعا، ونزع سلاح حزب الله فقد أجلت، في الوقت

الذي تابعت فيه إسرائيل ضربها للفلسطينيين في غزة بقوة. وحين كان انتباه العالم مركزاً على النزاع الإسرائيلي اللبناني، قتل أكثر من 400 فلسطيني، منهم 75 طفلاً في غزة، في حين فقد ثلاثة جنود إسرائيليين حياتهم.

ما أسباب الحرب الإسرائيلية اللبنانية؟ وماذا كانت نتائجها؟ بدأ النزاع حين هاجم مقاتلو حزب عربتين إسرائيليتين، فقتلوا ثلاثة جنود وأسروا اثنين آخرين. وكانت غايتهم المعلنة هي إعطاء الدعم للفلسطينيين الواقعين تحت الهجوم في غزة، وإجبار إسرائيل على الخروج من المنطقة المتنازع عليها، ومبادلة الجنديين الأسيرين في مقابل بعض الأسرى اللبنانيين مثلما سبق أن حدث عدة مرات في الماضي. رفضت إسرائيل هذه المطالب، وبشكل يبعث على الدهشة أعلنت أنها هوجمت من كل أمة لبنان، وشنت قصفاً جوياً شمل في النهاية 7.000 هدف في جميع أنحاء البلد. ورد حزب الله بإطلاقه 4.000 صاروخ تقريباً على شمال إسرائيل.

من هم الذين كانوا الخاسرين؟ ومن هم الذين كانوا الرابحين؟ فعلى الرغم من أن الطرفين ادعيا النصر، فإن من الواضح أن أعظم الخاسرين كانوا هم عائلات اللبنانيين والإسرائيليين الذين فقدوا حياتهم في ضربات القصف الجوي من القنابل، والمقذوفات، والصواريخ. ومناطق عديدة من لبنان دمرت. وكان هناك اتهامات مضادة واسعة المدى في إسرائيل ضد زعماء حكومتها الذين عملوا مثل هذا التدمير الضخم وفشلوا مع ذلك في إخضاع مقاتلي حزب الله. وقد أدين الزعماء الأمريكيون إدانة عالمية تقريباً بسبب تشجيعهم المكشوف للهجوم الإسرائيلي وتقديمهم السلاح اللازم له، وبسبب تأخيرهم لوقف إطلاق النار الذي كان يمكن أن ينهي المجزرة.

وعلى الرغم من إدانة حزب الله في البداية من العرب المعتدلين بسبب التهور في المواجهة مع إسرائيل، فإن حزب الله كسب الدعم العربي العام تقريباً وكسب نصراً دعائياً من أجل "حماية" لبنان، ومقاومة الهجوم الإسرائيلي البري والجوي، وتقديم مبالغ مالية كبيرة لاحقاً لإصلاح الأضرار. وقد صرح رئيس استخبارات إسرائيل العسكرية المنصرف العميد يوسي كيوبرواسر أن زعيم حزب الله، الشيخ حسن نصر الله، قد لعب بصورة باهرة على الإحساس بالشرف المهم جداً بالنسبة

إلى كـثيرين مـن العـرب والمـسلمين. وقـال كيوبرواسـر: كانـت رسـالته هـي: "أن نستعيد الكبرياء المفقودة... بالاستعداد للتضحية، والاستعداد للمعاناة".

والناحيـة المأسـاوية، هـي أن هـذا النـزاع كـان مجـرد نـزاع آخـر في دورة العنـف المتكررة التي تنتج من غياب التسوية الشاملة في الشرق الأوسط، ، وهو الأمر الـذي تفاقم بغياب غير مسبوق تقريباً طوال ست سنوات لأي جهد حقيقـي يسعى لتحقيق مثل هذه الغاية. إن توقفات إطلاق النار المؤقتة وقوات حفظ السلام الدولية في لبنـان وفي المناطق المضطربة الأخرى هي مجرد لاصق إسعافات أولية، إنهـا حل مرتجـل. إن الأسـباب الجذريـة للنـزاع احـتلال أرض العـرب، وسـوء معاملـة الفلسطينيين، وقبـول إسرائيل داخل حدودها القانونية ـ يتعين حتى الآن أن تعالج. وفي الحقيقة، فإن رئيس الوزراء إيهود أولمرت وافق على عروض إنشاءات في شهر أيلول/سبتمبر من أجل بنـاء 690 بيتاً في الضفة الغربيـة المحتلـة، وذلـك علـى الـرغم مـن النقـد الموجـه مـن البيـت الأبـيض ومـن زعمـاء حكومتـه الخاصـة. ورفـض هـو أيضاً عرضاً مـن الأمـين العـام للأمم المتحدة كوفي عنان للتفاوض بشأن تبادل الأسرى.

إن زعمـاء في كـلا الجـانبين يتجـاهلون أكثريـات قويـة تتـوق إلى الـسلام، ويسمحون بذلك للعنف الذي يقوده المتطرفون أن يسبق كل الفرص اللازمة من أجل بنـاء إجمـاع سياسـي. والعـائق الكـبير للتقـدم هـو الـسياسة الغريبـة لواشـنطون الـتي يكون فيها الحوار في القضايا الخلافيـة امتيـازاً يتعين تقديمـه فقط بوصفه جـائزة للسلوك الخانع، ويتعين حجبه عن أولئك الذين يرفضون مطالب الولايات المتحـدة. إن الاتـصال المباشـر مـع زعـيم الفلـسطينيين محمـود عبـاس ومـع زعمـاء الحكومـة في دمـشق سـيكون ضـرورياً إذا كـان يـتعين تحقيـق التـسويات المتفـاوض عليهـا. وإن الإخفاق في التعامل مع القضايا ومع الزعماء الآخرين الأساسيين يجازف بخلق قـوس كبيرة جداً مـن عـدم الاسـتقرار يمتـد مـن القـدس عـبر بـيروت، ودمـشق، وبغـداد، وطهران.

وقد وجد مسح قام به مشروع المواقف الكونية في مركـز بيـو ونشره المركـز في شهر حزيران/يونيو أن آراء المسلمين حول الغرب قد ساءت سـوءاً عنيفـاً، وصـارت القضية الإسرائيلية الفلسطينية هي خط التصدع الرئيسي في النزاع العالمي.

والتطور الملحوظ الواعد، الذي أخفاه النزاع في لبنان، كان الاتفاق (أعيق فيما بعد) بين القادة الفلسطينيين من فتح وحماس وبعض الجماعات التي هي أصغر منهما على تبني "وثيقة المصالحة الوطنية" التي صاغها مروان البرغوثي وسجناء فلسطينيون آخرون. هناك فرصة جيدة في أن هذه الوثيقة ستؤدي إلى تشكيل حكومة وحدة تشمل ممثلين من الأحزاب الكبيرة، وهذا ما سيفي أيضاً بشروط المجتمع الدولي من أجل رفع الحظر الذي فرض على الشعب الفلسطيني. وهذا سيشمل القبول بحل وجود الدولتين، والاعتراف بإسرائيل، وتوقف إطلاق النار إلى أمد طويل من حماس إذا بادلتها إسرائيل على ذلك بالمثل. لقد صرح رئيس وزراء حماس، إسماعيل هنية، في شهر حزيران/يونيو: " ليس لدينا مشكلة مع دولة فلسطينية ذات سيادة على كل أرضنا داخل حدود العام 1967، تعيش بهدوء".

الفصل السابع عشر
الخلاصة

منذ أن وُقِّعَتْ معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية في العام 1979، سفك الكثير من الدم بلا ضرورة. وفشلت الجهود المتكررة التي بذلت من أجل تحقيق سلام متفاوض عليه بين إسرائيل وجيرانها. وعلى الرغم من النقد الذي وجهته بعض المصادر العربية إلى معاهدة السلام الإسرائيلية ـ المصرية، فإن هذه المعاهدة تقف بوصفها برهاناً على أن الدبلوماسية تستطيع أن تجلب سلاماً دائماً بين الخصوم القدامى. وعلى الرغم من أن التباينات بين هذه الاتفاقات هي التي يجري التشديد عليها في الغالب، فإن اتفاقية العام 1974 للانسحاب الإسرائيلي السوري، واتفاقات كامب ديفيد للعام 1978، وبيان ريغان للعام 1982، واتفاقية أوسلو للعام 1993، والمعاهدة المعقودة بين إسرائيل والأردن في العام 1994، ومقترح مبادرة السلام العربية للعام 2002، ومبادرة جنيف للعام 2003، وخريطة الطريق الرباعية، الدولية كلها تحتوي على العناصر المشتركة الرئيسية التي يمكن أن تدمج إذا توبعت بحسن نية.

هناك عقبتان متصلتان أمام السلام الدائم في الشرق الأوسط:

1. يعتقد بعض الإسرائيليين أنهم يمتلكون الحق في مصادرة الأرض الفلسطينية واستعمارها ويحاولون تبرير الإخضاع والاضطهاد الدائمين للفلسطينيين الذين يتحولون بشكل مستمر إلى يائسين وعلى حال أسوأ.

2. وبعض الفلسطينيين يردون باحترام المتفجرين الانتحاريين بوصفهم شهداء لابد أن يجزوا في الجنة ويعتبرون قتل الإسرائيليين انتصارات.

وترد إسرائيل، بدورها، بالعقاب والقمع، ويرفض المقاتلون الفلسطينيون الاعتراف بشرعية إسرائيل ويتعهدون بتدمير الأمة. وتدوم بذلك دورة عدم الثقة والعنف، وتُحبط بذلك الجهود المبذولة من أجل السلام. وكانت الإصابات عالية نظراً إلى أن القوات المحتلة تفرض قيوداً أشد من قبل. ومن شهر أيلول/سبتمبر من

العام 2000 إلى شهر آذار/مارس من العام 2006، قتل 3982 فلسطينياً و1.089 إسرائيلياً في الانتفاضة الثانية، وهذه الأعداد تضم العديد من الأطفال: 708 من الفلسطينيين و123من الإسرائيليين. وكما أشرنا آنفاً، كان هناك خسائر مرتفعة باستمرار من القتلى والجرحى ابتداء من الاندلاع الأخير للعنف في غزة وفي لبنان.

والرد العقلاني الوحيد لهذه المأساة المستمرة هو أن يعاد إحياء عملية السلام من خلال المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ولكن الولايات المتحدة أهملت، في الواقع، هذا الجهد. وقد يحدث أن تؤدي حالة من حالات التصعيد الدورية في العنف إلى ممارسة تأثير قوي تقوم به الرباعية الدولية لتنفيذ خريطة الطريق من أجل السلام. وهذه هي المتطلبات الرئيسية:

أ. يجب أن يكون أمن إسرائيل مضموناً. يجب على العرب أن يعترفوا علانية وبشكل محدد أن إسرائيل حقيقة واقعة وتمتلك الحق في أن توجد بسلام، خلف حدود مأمونة ومعترف بها، مع تعهد عربي حازم لإنهاء أي أعمال أخرى من العنف ضد أمة إسرائيل التي أنشئت قانونياً.

ب. الحوار الداخلي الدائر داخل إسرائيل يجب أن يصل إلى حل لكي يحدد الحدود القانونية الدائمة لإسرائيل. والسياسة الرسمية الثابتة للولايات المتحدة منذ أن صارت إسرائيل دولة كانت أن حدودها يجب أن تتطابق مع الحدود التي كانت سائدة من العام 1949 وحتى 1967 (ما لم يتم تعديلها تعديلاً مشتركاً بموجب مبادلات أرض متفق عليها)، المحددة في قرار الأمم المتحدة رقم 242 الذي تم تبنيه بالإجماع، والذي يفرض انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. وهذا الالتزام كان قد أعيد توكيده من زعماء إسرائيل في اتفاقات متفاوض عليها في العام 1978 في كامب ديفيد وفي العام 1993 في أوسلو، والتي نالوا من أجلها جائزة نوبل للسلام، وكلا هذين الالتزامين كان قد صُدّق عليه من الحكومة الإسرائيلية. وكذلك فإن أمريكا بوصفها عضواً في الرباعية الدولية التي تضم روسيا، والأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، تساند خريطة الطريق للسلام، التي تحتضن المتطلبات نفسها تماماً. وقد قبل القادة الفلسطينيون بصراحة لا غموض فيها هذا الاقتراح، ولكن إسرائيل قد رفضت رسمياً أحكامه الأساسية مع إنذارات ومتطلبات مسبقة غير مقبولة.

على الرغم من هذه التطورات الحديثة، فإن المشجع هو أن إسرائيل قد سبق لها أن قدمت التزامات للسلام مثلما أكدتها اتفاقات كامب ديفيد، وانسحاب قواتها من سيناء، والنقل والحركة القريبة للمستوطنين من غزة، وموافقتها الرسمية على قرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة التي تؤسس لحدودها القانونية. وبعد حرب الأيام الستة في العام 1967، احتلت القوات العسكرية الإسرائيلية كل الأراضي المبينة في الخريطة رقم 4، ولكنها انضمت إلى الأمم المتحدة وإلى الأمم الأخرى في مساندة قرار الأمم المتحدة رقم 242، وهو الذي مازال القانون الملزم الذي يدين الاستيلاء على الأرض بالقوة ويطلب من إسرائيل الانسحاب من الأراضي المحتلة.

ج. يجب احترام سيادة كل أمم الشرق الأوسط وحرمة الحدود الدولية. وليس هناك من شك، أو هو لا يكاد يذكر، أن التسوية مع الفلسطينيين تستطيع أن تجلب الاعتراف العربي الكامل لإسرائيل ولحقها في أن تعيش بسلام، مع التزام عربي بكبح المزيد من العنف الذي يبادر به المتطرفون الفلسطينيون.

ولكن المشكلة المهيمنة، هي أن أعمال بعض الزعماء الإسرائيليين، طوال أكثر من ربع قرن، كانت في تعارض مباشر مع السياسات الرسمية للولايات المتحدة، ومع المجتمع الدولي، ومع اتفاقياتهم المتفاوض عليها. وبغض النظر إن كان الفلسطينيون لا يمتلكون حكومة تتخذ شكلاً معيناً، حكومة رأسها ياسر عرفات أو محمود عباس، أو حكومة فيها عباس رئيساً وحماس تسيطر على المجلس التشريعي (البرلمان) والحكومة، فإن سيطرة إسرائيل المستمرة على الأرض الفلسطينية واستعمارها قد كانا هما العقبتان الرئيسيتان أمام اتفاقية شاملة للسلام في الأرض المقدسة. ولكي تديم إسرائيل الاحتلال، حرمت القوات الإسرائيلية رعاياها غير الراضين من الحقوق الأساسية للإنسان. وما من شخص موضوعي يستطيع أن يشاهد شخصياً الظروف الموجودة في الضفة الغربية وينازع في هذه البيانات.

وهناك عاملان آخران مترابطان قد أسهما في إدامة العنف والاضطراب الإقليمي وهما: التغاضي عن الأعمال الإسرائيلية غير القانونية من البيت الأبيض ومجلس الشيوخ الأمريكي الخاضعين في أثناء السنوات الحديثة، ثم اللامبالاة التي

يسمح بها الزعماء العالميون الآخرون لهذه السياسة الأمريكية غير الرسمية في الشرق الأوسط أن تسود. هناك حوارات سياسية وإعلامية مستمرة وحادة في إسرائيل بخصوص سياساتها في الضفة الغربية، ولكن وبسبب من قوى سياسية، واقتصادية، ودينية في الولايات المتحدة، فإن قرارات الحكومة الإسرائيلية نادراً ما توضع موضع المساءلة أو الإدانة، والأصوات القادمة من القدس تسود في وسائل إعلامنا، ومعظم المواطنين الأمريكيين غير واعين بالظروف الموجودة في الأراضي المحتلة. وفي الوقت نفسه، فإن الزعماء السياسيين ووسائل الإعلام في أوروبة ينتقدون السياسات الإسرائيلية نقداً ملحوظاً، يؤثر في المواقف العامة. لقد فوجئ الأمريكيون وغضبوا من استطلاع للرأي، نشرته جريدة إنترناشيونال هيرالد تريبيون في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2003، عن 7.500 مواطن في خمسة عشر بلداً أوروبياً، يشير إلى أن إسرائيل كانت تعتبر ا قمة التهديد للسلام العالمي، قبل كوريا الشمالية، أو إيران، أو أفغانستان.

وقد استخدمت الولايات المتحدة حقها في النقض في مجلس الأمن في الأمم المتحدة أكثر من أربعين مرة لمنع صدور قرارات منتقدة لإسرائيل. وبعض مرات استخدام حق النقض هذه جلبت على الولايات المتحدة عدم الثقة الدولية فيها، وليس هناك من شك، أو هو لا يكاد يذكر، في أن نقض الجهد الدؤوب لحل القضية الفلسطينية هو مصدر كبير للعاطفة المناوئة للأمريكيين وللنشاط الإرهابي في كل أرجاء الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

وهناك عامل جديد في المنطقة هو أن الانتخابات الفلسطينية في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2006، أعطت أعضاء حماس السيطرة على المجلس التشريعي (البرلمان) وعلى حكومة يرأسها رئيس مجلس وزراء. وجاء رد فعل إسرائيل والولايات المتحدة بإعلان سياسة عزل الحكومة الجديدة وزعزعة استقرارها. والمسؤولون المنتخبون محرومون من تراخيص السفر للمشاركة في القضايا البرلمانية، وغزة من الناحية الفعلية معزولة، ويُبذل كل جهد ممكن من أجل عرقلة وصول الأموال المخصصة للأغراض الإنسانية للفلسطينيين، ولمنع حقوقهم في التوظيف أو التبادل التجاري، وحرمانهم من الوصول إلى إسرائيل والعالم الخارجي.

ولكي تحقق إسرائيل غاياتها، فقد قررت أن تتجنب أي محادثات سلام وأن تهرب ولو من القيود الخفيفة من الولايات المتحدة وذلك عن طريق اتخاذ إجراء من طرف واحد، دعته "التقاطع" أو "إعادة الاصطفاف" لتقتطع لنفسها القطع المختارة من الضفة الغربية، تاركة الفلسطينيين معدمين داخل بقية صغيرة وممزقة من أرضهم الخاصة. وإن القبض على 10.000 سجين عربي تقريباً ورد الفعل العسكري المدمر على أسر ثلاثة جنود إسرائيليين قد أثارت قلقاً كونياً حول الاحتمال الفوري لحرب إقليمية يجري شنها.

وعلى الرغم من هذه التحديات المباشرة، يجب ألا نفترض أن المستقبل بلا أمل. فطوال السنوات رأيت اليأس والإحباط يتطوران إلى تفاؤل وتقدم، والآن أيضاً، يجب علينا ألا نهمل الجهود اللازمة لتحقيق السلام الدائم للإسرائيليين والحرية والعدالة للفلسطينيين. وهناك بعض العوامل الإيجابية التي يمكن أن نعتمد عليها.

وكما قلت في خطاب ألقيته أمام الكنيست (البرلمان) الإسرائيلي في العام 1979، "إن الشعب يساند الوصول إلى تسوية. والزعماء السياسيون هم العقبات أمام السلام". وعلى مر السنوات، أظهرت استطلاعات الرأي العام بثبات أن أكثرية من الإسرائيليين تفضل الانسحاب من الأرض الفلسطينية في مقابل السلام ("مبادلة الأرض في مقابل السلام")، وتظهر الاستطلاعات الحديثة أن 80 بالمائة من الفلسطينيين مازالوا يريدون اتفاقية سلام بدولتين مع إسرائيل، مع 70 بالمائة تقريباً يساندون محمود عباس المعتدل رئيساً لهم ومتحدثاً باسمهم.

وكان هناك بعض التطورات المشجعة الأخرى على مر السنوات. فإلى جانب الوعي في صفوف معظم الإسرائيليين أن وجود حل للقضية الفلسطينية هو أمر حاسم إذا كان يتعين أن توجد تسوية شاملة في أي وقت من الأوقات، فهناك اعتراف متنام في العالم العربي بأن إسرائيل حقيقة واقعية لا تتغير. ومعظم الفلسطينيين والعرب الآخرين يرون أن الاقتراح الذي تقدم به خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية، وهو اقتراح وافقت عليه القمة العربية في العام 2002 (الملحق 6)، هو اعتراف علني عام بحق إسرائيل في الوجود داخل حدودها القانونية وهو اقتراح يظهر الرغبة في الوصول إلى حل النزاعات التي لم تكن قد عولجت حتى الآن معالجة مباشرة. وصياغة

الكلمات لهذا البيان بأسلوب دلفاي؟ كانت عن عمد، في اللغة العربية، والعبرية، والإنجليزية كذلك، ولكن العرب يدافعون عن الصياغة بالقول إنها هناك لتكون موضوع استطلاع من الإسرائيليين والآخرين وإنها، على أي حال، إيجابية والتزام واضح بالقانون الدولي أكثر من أي شيء يأتي الآن من إسرائيل.

وزيادة على ما تقدم، فإن الاختلافات المتبقية وحلها المحتمل محددة تحديداً واضحاً. وإسرائيل والبلدان العربية كلاهما قد وافقا على قراري الأمم المتحدة الحاسمين اللذين لا يمكن تجنبهما، وهما رقم 242 ورقم 338، واللذين بموجبهما قد تطورت اتفاقات السلام من قبل.

وهاهنا في ما يلي صوتان، أحدهما فلسطيني والآخر إسرائيلي ولهما تقديران متشابهان تشابهاً لافتاً للنظر لما تدعو الحاجة إليه ولما يجب أن يعمل.

جوناثان كتّاب، محام فلسطيني لحقوق الإنسان يقول: "يعرف كل شخص ماذا يتطلب الأمر لتحقيق سلام دائم ومستمر ويعالج المصالح الأساسية لكلا الطرفين: إنه حل الدولتين. وإنه الانسحاب إلى حدود العام 1967. وإنه تفكيك المستوطنات. وإنه نوع ما من الوضع المشترك للقدس الموحدة، العاصمة لكلا الطرفين. وسيتوجب أن تكون الضفة الغربية وغزة مجردتين من السلاح لإزالة أي تهديدات لإسرائيل. وسيتوجب الوصول إلى نوع ما من الحل لمشكلة اللاجئين، بعض حق العودة المحدد، مع التعويض. كل شخص يعرف الحل، والسؤال هو: هل هناك إرادة سياسية لتنفيذه؟"

الدكتور ناعوم شازان، الأستاذ في الجامعة العبرية والنائب السابق للمتحدث باسم الكنيست الإسرائيلي يقول: "لا أعتقد أن أي خلاف يبقى الآن بين أغلبية الإسرائيليين والفلسطينيين في فهم أنه سيتوجب أن يكون هناك نوع من التسوية بين الشعبين كليهما. وهناك إمكانيتان لكيفية عمل ذلك. الاعتراف ثم التنفيذ بحق فلسطين في تقرير المصير، والتأكد من أن حل وجود دولتين هو حل عادل ومنصف، ويسمح بإنشاء دولة قابلة للحياة إلى جانب إسرائيل في حدود العام 1967، وإذا كان هناك أي تغيرات، فتكون بالاتفاق على أساس التبادل. وعلى الجانب الإسرائيلي، هناك حاجة إلى المحافظة على دولة ديمقراطية ذات أكثرية يهودية، وهو ما يمكن تحقيقه فقط من خلال إنشاء دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل".

والحقيقة المهمة التي يجب أن نتذكرها هي أن الرئيس محمود عباس يحتفظ بكل الصلاحية الرئاسية التي سبق أن مارسها ياسر عرفات حين تفاوض بشأن اتفاقية أوسلو، وأن رئيس وزراء حماس قد قرر أن حكومته تساند محادثات سلام بين إسرائيل وعباس. وأضاف أن حماس ستعدل رفضها لإسرائيل إذا وجدت اتفاقية متفاوض عليها يستطيع الفلسطينيون أن يوافقوا عليها (مثلما هو محدد في اتفاقات كامب ديفيد). والأمر اللازم هو أن يقوم المجتمع العربي العام وجميع الجماعات الفلسطينية المهمة بالتوضيح بجلاء أنهم سوف ينهون الانفجارات الانتحارية والأعمال الإرهابية الأخرى حين تكون القوانين الدولية والغايات النهائية لخريطة الطريق من أجل السلام مقبولة من إسرائيل.

وقد جاء تطور واعد في شهر أيار/مايو من العام 2006 حين قام مروان برغوثي، وهو أكثر زعماء فتح شعبية ونفوذاً، بتوحيد القوى في سجن إسرائيلي مع عبدالخالق النتشة، وهو متحدث موثوق باسم حماس، في الموافقة على اقتراح الدولتين وهو الأمر الذي يمكن أن يوحد الفئتين الفلسطينيتين. إن تأثيرهما ضخم. فاقتراح الأسرى دعا إلى حكومة وحدة مع انضمام حماس إلى منظمة تحرير فلسطين، وإطلاق جميع الأسرى السياسيين، والقبول بإسرائيل جارة داخل حدودها القانونية، ونهاية لأعمال العنف داخل إسرائيل (ولكن لا تنتهي في الأرض الفلسطينية). ووافقت الوثيقة المقترحة على قرارات الأمم المتحدة الرئيسية بخصوص الحدود القانونية وحق العودة.

ومع استطلاعات الرأي العام التي تشير إلى معدل موافقة يبلغ 77 بالمائة، اقترح الرئيس عباس أولاً استفتاء عاماً في صفوف الفلسطينيين على الوثيقة المقترحة من الأسرى، ثم إن حماس وفتح قبلتا كلتاهما أحكام الوثيقة.

وعلى الرغم من أكثرية واضحة من الإسرائيليين مستعدة استعداداً مستمراً لقبول شروط متسامحة مع معظم جيرانهم العرب، فإن من الواضح أنه ما من خيار من الخيارات جذاب لكل الإسرائيليين:

- إلحاق قسري لفلسطين وضمها القانوني إلى إسرائيل، وهو ما يمكن أن يعطي أعداداً كبيرة من المواطنين غير اليهود الحق بالتصويت والعيش أنداداً متساوين تحت القانون. وهذا سيخرق مباشرة المعايير الدولية واتفاقات كامب ديفيد، التي

تكوّن الأساس للسلام مع مصر. وفي الوقت نفسه، فإن المواطنين غير اليهود سيشكلون صوتاً قوياً للتحويل إذا كان الإسرائيليون الآخرون منقسمين وسوف يشكلون في نهاية المطاف أكثرية كاملة في إسرائيل الكبرى الجديدة. إسرائيل سوف تكون معزولة أكثر ومدانة أكثر من المجتمع الدولي، من دون أي فرصة متبقية لإنهاء الأعمال الحربية مع أي قسم كبير من العالم العربي.

- نظام من التمييز العنصري، مع وجود شعبين يحتلان الأرض نفسها ولكنهما مفصول أحدهما عن الآخر فصلاً كاملاً، والإسرائيليون في هذا النظام مسيطرون سيطرة كاملة ويقمعون العنف بحرمان الفلسطينيين من حقوقهم الإنسانية الأساسية. هذه هي السياسة التي يجري اتباعها الآن، وذلك على الرغم من أن كثيرين من مواطني إسرائيل يسخرون من المغزى الضمني العنصري في وصف الوضع الدائم من الدرجة الثانية للفلسطينيين. وكما بيّن إسرائيلي بارز بالقول: "أنا خائف من أننا نتحرك نحو حكومة مثل حكومة جنوب إفريقية، وفيها مجتمع مزدوج من حكام يهود ورعايا عرب لهم حقوق قليلة من المواطنة. إن الضفة الغربية لا تستحق كل هذا". والتعديل غير المقبول لهذا الخيار، ويجري الآن اقتراحه، هو الاستيلاء على أقسام جوهرية من الأرض المحتلة، مع إحاطة الفلسطينيين المتبقين إحاطة تامة بالجدران، وبالأسيجة، وبنقاط التفتيش الإسرائيلية، يعيشون سجناء ضمن القسم الصغير من الأرض الذي ترك لهم.
- انسحاب إلى حدود العام 1967 مثلما هو محدد في قرار الأمم المتحدة رقم 242 وحسب الوعد به في اتفاقات كامب ديفيد واتفاقية أوسلو وحسب ما هو موصوف في خريطة الطريق للرباعية الدولية. هذا هو أكثر الخيارات جاذبية والخيار الوحيد الذي يمكن في نهاية الأمر أن يكون مقبولاً بوصفه أساساً للسلام. وتستطيع مفاوضات تعقد بنية حسنة أن تقود إلى تبادل الأرض باتفاق متبادل، ربما يسمح لعدد مهم من المستوطنين الإسرائيليين بالبقاء في بيوتهم الحالية قرب القدس. وقد توضحت نسخة من هذا الخيار في مبادرة جنيف.

والنتيجة النهائية هي هذه: إن السلام لن يأتي إلى إسرائيل وإلى الشرق الأوسط إلا حين تكون الحكومة الإسرائيلية مستعدة فقط للامتثال للقانون الدولي. ولخريطة الطريق من أجل السلام، وللسياسة الأمريكية الرسمية، ولرغبات

أكثرية مواطنيها وأن تحترم التزاماتها السابقة عن طريق قبول حدودها القانونية. ويجب على كل الجيران العرب أن يتعهدوا بأن يحترموا حق إسرائيل في أن تعيش بسلام تحت هذه الشروط. إن الولايات المتحدة تبذر المكانة الدولية وحسن النية وتزيد من شدة الإرهاب الكوني المناوئ لأمريكا عن طريق التغاضي عن المصادرة الإسرائيلية للأراضي الفلسطينية واستعمارها أو التحريض على ذلك.

ستكون مأساة بالنسبة إلى الإسرائيليين، والفلسطينيين، والعالم إذا رُفض السلام وسمح لنظام من القمع، والتمييز العنصري، والعنف المستمر أن يسود.

الملاحق

الملحق (1)

قرار الأمم المتحدة رقم 242، للعام 1967

مجلس الأمن في الأمم المتحدة

القرار رقم 242، في 22 تشرين الثاني/نوفمبر، للعام 1967

إن مجلس الأمن، إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطير في الشرق الأوسط، وإذ يؤكد عدم جواز الاستيلاء على أرض بواسطة الحرب وعلى الحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش بأمن، وإذ يؤكد تأكيداً إضافيا على أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد تعهدت بالالتزام بالعمل وفقاً للمادة 2 من الميثاق:

1. يؤكد أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط والذي يجب أن يتضمن تطبيق كلا المبدأين التاليين:

(1) انسحاب القوات الإسرائيلية المسلحة من أراض محتلة في النزاع الأخير.

(2) إنهاء كل ادعاءات الحرب أو حالاتها واحترام سيادة كل دولة في المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسي والاعتراف بذلك وبحقوق الدول في أن تعيش بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها وخالية من التهديدات أو أعمال العنف.

2. يؤكد تأكيداً إضافيا الحاجة:

أ) إلى ضمان حرية الملاحة عبر الطرق الدولية في المنطقة،

ب) إلى تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين،

ج) إلى ضمان حرمة أراضي كل دولة في المنطقة وحرمة استقلالها السياسي من خلال إجراءات تشمل إقامة مناطق مجردة من السلاح.

3. يطلب من الأمين العام أن يعين ممثلاً خاصاً ليذهب إلى الشرق الأوسط كي يقيم اتصالات مع الدول المعنية ويحافظ على هذه الاتصالات من أجل تعزيز اتفاق ومساعدة الجهود الرامية إلى تحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً لأحكام هذا القرار ومبادئه.

4. يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن عن تقدم جهود المبعوث الخاص في أقرب وقت ممكن.

الملحق (2)

قرار الأمم المتحدة رقم 338، للعام 1973

مجلس الأمن في الأمم المتحدة

القرار رقم 338، 21 – 22 تشرين الأول/أكتوبر، للعام 1973

إن مجلس الأمن:

1. يدعو جميع الأطراف في القتال الحالي إلى وقف كل إطلاق نار وإلى إنهاء كل نشاط عسكري فوراً، في موعد لا يتجاوز 12 ساعة بعد لحظة تبني هذا القرار، في المواقع التي يحتلونها الآن،
2. يدعو جميع الأطراف المعنية إلى أن تبدأ فوراً بعد وقف إطلاق النار بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 242 (للعام 1967) في جميع أجزائه.
3. يقرر أن تبدأ المفاوضات، فوراً وتجري في وقت واحد مع وقف إطلاق النار، بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم الذي يهدف إلى إقامة سلام عادل ويدوم طويلاً في الشرق الأوسط.

الملحق (3)

اتفاقات كامب ديفيد، للعام 1978

إطار للسلام في الشرق الأوسط ووفق عليه في كامب ديفيد

وثائق ووفق عليها في كامب ديفيد

17 **أيلول/سبتمبر، للعام** 1978

اجتمع محمد أنور السادات، رئيس جمهورية مصر العربية، ومناحيم بيغن، رئيس وزراء إسرائيل مع جيمي كارتر، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، في كامب ديفيد من 5 أيلول/سبتمبر إلى 17 أيلول/سبتمبر، للعام 1978، واتفقوا على الإطار التالي للسلام في الشرق الأوسط. وهم يدعون الأطراف الأخرى في النزاع العربي الإسرائيلي إلى الانضمام إليه.

مقدمة:

يجب على البحث عن السلام في الشرق الأوسط أن يسترشد بما يلي:

- إن الأساس المتفق عليه للتسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها هو قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم 242، في كل أجزائه؟
- بعد أربعة حروب خلال ثلاثين عاماً، وعلى الرغم من الجهود الإنسانية الكثيفة، فإن الشرق الأوسط، وهو مهد الحضارة ومهبط وحي ثلاثة أديان عظيمة، لا يتمتع حتى الآن بنعم السلام. وإن شعب الشرق الأوسط يتوق إلى السلام كي يمكن تحويل موارد المنطقة البشرية والطبيعية الضخمة إلى متابعات للسلام وكي تستطيع هذه المنطقة أن تتحول إلى نموذج للتعايش والتعاون بين الأمم.
- إن المبادرة التاريخية للرئيس السادات في زيارة القدس والاستقبال الذي لقيه من برلمان إسرائيل وحكومتها، وشعبها، والزيارة المتبادلة من رئيس الوزراء بيغن إلى الإسماعيلية، ومقترحات السلام المقدمة من كلا الزعيمين، إضافة إلى

الاستقبال الحار لهذه المهام من شعبي البلدين، كل ذلك خلق فرصة غير مسبوقة للسلام يجب ألا تضيع إذا كان يراد لهذا الجيل ولأجيال المستقبل أن تتجنب مآسي الحرب.

- إن أحكام ميثاق الأمم المتحدة والقواعد المقبولة الأخرى من القانون الدولي والشرعية الآن توفر قواعد مقبولة لإدارة العلاقات بين كل الدول.
- لتحقيق علاقة سلام بروحية المادة رقم 2 من ميثاق الأمم المتحدة، فإن المفاوضات المستقبلية بين إسرائيل وأي جار لها مستعد للتفاوض على السلام والأمن معها، هي مفاوضات ضرورية لغرض تنفيذ كل أحكام القرارين رقم 242 ورقم 338 ومبادئهما.
- يتطلب السلام احترام السيادة، وسلامة الأراضي الإقليمية، والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة واحترام حقوق الدول في أن تعيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها وخالية من التهديدات أو أعمال القوة. وإن التقدم نحو تلك الغاية يستطيع أن يسرّع الحركة نحو عصر جديد من المصالحة في الشرق الأوسط متسم بالتعاون في تعزيز التنمية الاقتصادية، وفي المحافظة على الاستقرار، وفي ضمان الأمن.
- إن السلام يتعزز بعلاقة سلام وبتعاون بين الدول التي تتمتع بعلاقات عادية. وبالإضافة إلى ذلك، وبموجب شروط معاهدات السلام، يستطيع الأطراف، وعلى أساس من التبادلية، أن يوافقوا على ترتيبات أمن خاصة من مثل مناطق مجردة من السلاح، ومناطق محدودة التسليح، ومحطات إنذار مبكر، ووجود قوات دولية، وارتباط، وإجراءات متفق عليها من أجل المراقبة، وترتيبات أخرى يوافقون على أنها مفيدة.

الإطار:

إن الأطراف، وهم يأخذون هذه العوامل بالاعتبار، مصممون على الوصول إلى تسوية عادلة، وشاملة، وتدوم طويلاً لنزاع الشرق الأوسط من خلال استكمال الوصول إلى معاهدات سلام مستندة إلى قراري مجلس الأمن رقم 242 ورقم 338 في كل أجزائهما. وغرضهم هو أن يحققوا السلام وعلاقات الجوار الحسن. وهم

يدركون أن السلام، لكي يدوم طويلاً، يجب أن يشمل جميع أولئك الذين كانوا قد تأثروا تأثراً عميقاً بالنزاع. ولذلك، فإنهم يوافقون على أنهم يقصدون من هذا الإطار حسب مقتضى الحال أن يشكل أساساً للسلام لا بين مصر وإسرائيل وحسب، ولكن أيضاً بين إسرائيل وبين كل واحد من جيرانها الآخرين يكون مستعداً أن يتفاوض على السلام مع إسرائيل على هذا الأساس. وهم قد وافقوا، وذلك الهدف نصب أعينهم، على المتابعة كما يلي:

أ) الضفة الغربية وغزة:

1. ينبغي أن تشارك مصر، وإسرائيل، والأردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية في كل جوانبها. ولتحقيق ذلك الهدف، ينبغي أن تستمر المفاوضات ذات العلاقة بالضفة الغربية وغزة في ثلاث مراحل:

(أ) توافق مصر وإسرائيل على أنه من أجل ضمان الانتقال السلمي والمنظم للسلطة، مع الأخذ بالاعتبار الاهتمامات الأمنية لجميع الأطراف، يجب أن تكون هناك ترتيبات انتقالية من أجل الضفة الغربية وغزة لمدة لا تتجاوز خمس سنوات. وكي توفر الحكم الذاتي الكامل للسكان بموجب هذه الترتيبات سوف تُسحب الحكومة الإسرائيلية العسكرية وإدارتها المدنية حالما تكون سلطة الحكم الذاتي قد انتخبت انتخاباً حراً من قبل السكان في هذه المناطق لتحل محل الحكومة العسكرية الموجودة. وللتفاوض على تفاصيل الترتيبات الانتقالية، ستكون حكومة الأردن مدعوة للانضمام إلى المفاوضات على أساس هذا الإطار. ويجب على هذه الترتيبات الجديدة أن تعطي الاهتمام اللازم لكل من مبدأ الحكم الذاتي الذي يحكم به سكان هذه الأراضي وللاهتمامات الأمنية المشروعة للأطراف المشتركة.

(ب) سوف توافق مصر، وإسرائيل، والأردن على أشكال المراسم أو البروتوكولات أو الشروط المحيطة بالاتفاقية أو المفاوضات *(modalities)* اللازمة من أجل تأسيس سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وغزة. ويمكن لوفود مصر والأردن أن تضم فلسطينيين

من الضفة الغربية وغزة أو فلسطينيين آخرين حسب الاتفاق المشترك. وسوف تتفاوض الأطراف على الاتفاقية التي تحدد سلطات ومسؤوليات سلطة الحكم الذاتي التي تلتزم بتنفيذها في الضفة وغزة. وسيتم انسحاب للقوات الإسرائيلية المسلحة وسيكون هناك إعادة انتشار للقوات الإسرائيلية المتبقية إلى مواقع أمنية محددة. وسوف تتضمن الاتفاقية كذلك ترتيبات من أجل ضمان الأمن الداخلي والخارجي والنظام العام. وسوف تشكل قوة شرطة محلية قوية، وقد تضم مواطنين أردنيين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القوات الإسرائيلية والأردنية سوف تشارك في دوريات مشتركة وفي وضع الجنود في مخافر السيطرة لضمان أمن الحدود.

(ج) حين تكون سلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة (المجلس الإداري) قد تأسست ودشنت، سوف تبدأ الفترة الانتقالية التي مدتها خمس سنوات. وستجري المفاوضات، بأسرع وقت ممكن، ولكن من دون أن تتأخر عن العام الثالث بعد بداية الفترة الانتقالية، وذلك كي تحدد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتهما مع جيرانهما، ولاستكمال الوصول إلى معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن مع حلول نهاية الفترة الانتقالية. وستجري هذه المفاوضات بين مصر، وإسرائيل، والأردن، والممثلين المنتخبين من سكان الضفة الغربية وغزة. وستجتمع لجنتان منفصلتان ولكنهما مترابطتان، اللجنة الأولى منهما وهي مكونة من ممثلين من الأطراف الأربعة سوف تتفاوض وتتفق على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة، وعلى علاقتهما مع جيرانهما، واللجنة الثانية، وهي مكونة من ممثلين عن إسرائيل وممثلين عن الأردن ويلزم أن ينضم إليهم الممثلون المنتخبون من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، وذلك لتتفاوض على معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، آخذين في الاعتبار الاتفاقية التي تم الوصول إليها بشأن الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة. وسوف تستند المفاوضات إلى كل أحكام قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم 242 ومبادئه. وسوف تقرر هذه المفاوضات، من بين مسائل أخرى، موقع الحدود وطبيعة الترتيبات

الأمنيـة. ويجـب أن يعـترف الحـل النـاجم عـن المفاوضـات أيـضاً بـالحقوق المـشروعة للـشعب الفلـسطيني وبمتطلبـاتهم العادلـة. وفي هـذه الطريقـة، سوف يشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم الخاص بهم من خلال:

1) المفاوضات التي تجري بين مصر، وإسرائيل، والأردن وممثلي سكان الضفة الغربية وغزة يلزم أن تتفق على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلى القضايا المعلقة الأخرى مع حلول نهاية الفترة الانتقالية.

2) تقـديم اتفـاقيتهم لتـصويت مـن المـمثلين المنتخـبين مـن سـكان الـضفة الغربية وغزة.

3) إعـداد المطلـوب للمـثلين المنتخـبين مـن سـكان الـضفة الغربيـة وغـزة ليقرروا الكيفية التي سيحكمون بها أنفسهم على نحو متوافق مع أحكام اتفاقيتهم.

4) المـشاركة كمـا هـو مـبين أعـلاه في عمـل اللجنـة الـتي تتفـاوض علـى معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن.

2. سـوف تتخـذ كـل الإجـراءات اللازمـة وسـوف توضـع الـشروط لـضمان أمـن إسـرائيل وجيرانهـا في أثنـاء الفـترة الانتقاليـة وفي مـا بعـدها. وللمـساعدة في توفير مثل هـذا الأمـن، ستقوم سـلطة الحكـم الـذاتي بتشكيل قـوة شـرطة محليـة قويـة. وسـوف تكـون مـشكلة مـن سـكان الـضفة الغربيـة وغـزة. وسـتحافظ الـشرطة علـى الاتـصال المـستمر في قـضايا الأمـن الـداخلي مـع الضباط الإسرائيليين، والأردنيين، والمصريين المعنيين لذلك.

3. في أثناء الفترة الانتقالية، سوف يكّون ممثلو مصر، وإسرائيل، والأردن، وسـلطة الحكـم الـذاتي لجنـة مـستمرة لتقـرر بالاتفـاق المراسـم أو البروتوكـولات أو الـشروط المحيطـة بالاتفاقيـة والمفاوضـات (*modalities*) اللازمـة لـدخول الأشـخاص الـذين طـردوا مـن الـضفة الغربيـة وغـزة في العـام 1967، وذلك مـع الإجـراءات اللازمـة لمنـع الاضـطراب وانعـدام النظـام. ويجـوز أيضاً أن تتم معالجة أمور أخرى ذات اهتمام مشترك من قبل هذه اللجنة.

4. سوف تعمل مصر وإسرائيل إحداهما مع الأخرى ومع أطراف أخرى مهتمة بالعمل، على وضع إجراءات متفق عليها من أجل التنفيذ الفوري، والعادل، والدائم لحل مشكلة اللاجئين.

ب. مصر وإسرائيل:

1. تتعهد مصر وإسرائيل بألا تلجأان إلى التهديد أو استخدام القوة لتسوية النزاعات. وسوف تحل أي نزاعات بالوسائل السلمية وفقاً لأحكام المادة 33 من ميثاق الأمم المتحدة.

2. يوافق الطرفان، من أجل تحقيق السلام بينهما، على التفاوض بحسن نية والغاية هي استكمال الوصول في غضون ثلاثة أشهر من توقيع هذا الإطار إلى معاهدة سلام بينهما، في الوقت الذي تدعى فيه الأطراف الأخرى في النزاع إلى الاستمرار بشكل متزامن في التفاوض لاستكمال الوصول إلى معاهدات سلام مشابهة بقصد تحقيق سلام شامل في المنطقة. إن الإطار الخاص باستكمال الوصول إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل سوف يحكم مفاوضات السلام بينهما. وسوف يوافق الطرفان على المراسم أو البروتوكولات أو الشروط المحيطة بالاتفاقية أو المفاوضات اللازمة، وعلى الجدول الزمني اللازم لتنفيذ التزاماتهم بموجب المعاهدة.

ج. المبادئ المرتبطة:

1. تعلن مصر وإسرائيل أن المبادئ والأحكام المبينة أدناه ينبغي أن تنطبق على معاهدات السلام بين إسرائيل وبين كل واحد من جيرانها مصر، والأردن، وسورية، ولبنان.

2. سوف يقيم الموقعون فيما بينهم العلاقات المعتادة بين الدول التي تكون في حالة سلام إحداها مع الأخرى. ومن أجل هذه الغاية، فإنهم يتعهدون بالالتزام بكل أحكام ميثاق الأمم المتحدة. والخطوات التي يلزم اتخاذها في هذا الشأن تتضمن:

(أ) اعترافاً كاملاً.

(ب) إلغاء المقاطعات الاقتصادية،

(ج) ضمان أن مواطني الأطراف الأخرى سوف يتمتعون بموجب سلطتهم القضائية بحماية الإجراء القانوني المناسب.

3. يجب على الموقعين استكشاف الإمكانيات المتاحة من أجل التنمية الاقتصادية في سياق معاهدات السلام النهائية، وذلك بغرض الإسهام في جو السلام، والتعاون، والصداقة، وهي غايتهم المشتركة.

4. يجوز إنشاء لجان مطالبات من أجل حل جميع المطالبات المالية المتبادلة.

5. سوف تدعى الولايات المتحدة لتشارك في المحادثات حول المسائل المتصلة بالمراسم أو البرتوكولات أو الشروط المحيطة بالاتفاقية أو المفاوضات الخاصة بتنفيذ الاتفاقات وإعداد جدول زمني لتنفيذ التزامات الأطراف.

6. سوف يطلب من مجلس الأمن في الأمم المتحدة أن يصادق على معاهدات السلام وأن يضمن أن أحكامها لن تخرق. وسوف يطلب من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن أن يوقعوا بالموافقة على معاهدات السلام وبضمان الاحترام لأحكامها. وسوف يطلب منهم أيضاً مطابقة سياساتهم وأفعالهم مع التعهدات المشمولة في هذا الإطار.

عن حكومة جمهورية مصر العربية	**عن حكومة إسرائيل**
أ. سادات	**م. بيغن**

شهد عليه:

جيمي كارتر

رئيس الولايات الأمريكية المتحدة.

الملحق (4)

إطار لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل 1978

من أجل تحقيق السلام بين إسرائيل ومصر، فإنهما توافقان على التفاوض بحسن نية، والغاية هي أن يستكملا الوصول، في غضون ثلاثة أشهر من توقيع هذا الإطار، إلى معاهدة سلام بينهما.

لقد تم الاتفاق على:

1. أن موقع المفاوضات سيكون تحت علم الأمم المتحدة في موقع أو مواقع يلزم الاتفاق عليها اتفاقا مشتركاً.
2. جميع مبادئ قرار الأمم المتحدة رقم 242 سوف تنطبق على هذا الحل للنزاع بين إسرائيل ومصر.
3. ما لم يتم الاتفاق المشترك على غير ذلك، فإن شروط معاهدة السلام سوف تنفذ بين سنتين أو ثلاث سنوات بعد أن تكون معاهدة السلام قد وقعت.
4. المسائل التالية متفق عليها بين الجانبين:

(أ) الممارسة الكاملة للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها بين مصر وبين فلسطين التي كانت تحت الانتداب،

(ب) انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من سيناء،

(ج) استخدام المطارات التي تركها الإسرائيليون قرب العريش، ورفح، ورأس النقب، وشرم الشيخ لأغراض مدنية فقط، ومن جملة ذلك الاستخدام التجاري الممكن من كل الأمم.

(د) الحق في المرور الحر لسفن إسرائيل عبر خليج السويس وقناة السويس على أساس معاهدة القسطنطينية للعام 1888 التي تنطبق على كل الأمم،

ومضائق تيران وخليج العقبة طرق مائية دولية يلزم أن تفتح لجميع الأمم من أجل حرية الملاحة غير المعاقة وغير القابلة للتعليق وحرية الطيران فوقها.

(هـ) إنشاء طريق عام بين سيناء والأردن قرب إيلات مع ضمان المرور الحر السلمي من قبل مصر والأردن.

(و) مرابطة القوات العسكرية المدرجة أدناه.

مرابطة القوات:

(أ) لن ترابط من القوات المسلحة المصرية أي قوة تزيد عن فرقة واحد (ميكانيكية أو مشاة) داخل منطقة تقع تقريباً على بعد 50 كيلو متراً شرقي خليج السويس وقناة السويس.

(ب) قوات الأمم المتحدة فقط والشرطة المدنية المجهزة بأسلحة خفيفة لتؤدي أعمال الشرطة المعتادة سوف ترابط داخل منطقة تقع غرب الحد الدولي وخليج العقبة، مختلفة في العرض من 20 كيلو مترا إلى 40 كيلو متراً.

(ج) في المنطقة التي تقع داخل 3 كيلو مترات شرق الحد الدولي سيكون هناك قوات عسكرية إسرائيلية محدودة لا تتجاوز أربع كتائب مشاة ومراقبين من الأمم المتحدة.

(د) وحدات دوريات الحدود، التي لا تتجاوز ثلاث كتائب، سوف تضاف إلى الشرطة المدنية في المحافظة على النظام في المنطقة غير المشمولة أعلاه.

وسيكون التحديد الدقيق للمناطق المبينة أعلاه وفق ما يتقرر في أثناء مفاوضات السلام.

يجوز أن توجد محطات إنذار مبكر لضمان الامتثال لشروط الاتفاقية.

وسوف ترابط قوات الأمم المتحدة:

(أ) في جزء من المنطقة الموجودة في سيناء والواقعة ضمن حوالي 20 كيلو متراً من البحر الأبيض المتوسط والمتاخمة للحدود الدولية. و(ب) في منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور عبر مضيق تيران، ولن تبعد هذه القوات ما لم يوافق على مثل

هذا الأبعاد من قبل مجلس الأمن في الأمم المتحدة بإجماع أصوات الأعضاء الخمسة الدائمين.

بعد أن تكون معاهدة السلام قد وُقِعت، وبعد أن يكون الانسحاب المؤقت قد اكتمل، سوف تقام علاقات عادية بين مصر وإسرائيل، ومن جملة ذلك: اعتراف كامل، ومن ضمنه علاقات دبلوماسية، واقتصادية، وثقافية، وإنهاء المقاطعات الاقتصادية والحواجز التي تحول دون حرية حركة السلع والأشخاص، والحماية المتبادلة للمواطنين وفق الإجراء القانوني المناسب.

الانسحاب المؤقت:

بعد توقيع معاهدة السلام بمدةٍ ما بين ثلاثة وتسعة أشهر، سوف تنسحب كل القوات الإسرائيلية شرق خط يمتد من نقطة شرق العريش إلى رأس محمد، وسيتعين تحديد الموقع الدقيق لهذا الخط بالاتفاق المتبادل.

عن حكومة جمهورية مصر العربية	**عن حكومة إسرائيل**
أ. سادات	**م. بيغن**

شهد عليه:

جيمي كارتر

رئيس الولايات الأمريكية المتحدة.

* ملاحظة: أعلنت نصوص الوثائق في 18 أيلول/سبتمبر. (المؤلف)

الملحق (5)

قرار الأمم المتحدة رقم 465 للعام 1980

مجلس الأمن في الأمم المتحدة

قرار رقم 465، في 1 آذار/مارس من العام 1980

إن مجلس الأمن، **إذ يلاحظ** تقارير لجنة مجلس الأمن المشكلة بموجب القرار رقم 446 (1979) لفحص الحالة المتعلقة بالمستوطنات في الأراضي العربية المحتلة منذ العام 1967، ومن جملتها القدس، والمتضمنة في الوثائق س/13450 والمراسلات اوس/13679، **وإذ يلاحظ** أيضاً الرسائل المرسلة من الممثل الدائم للأردن (س/13801) والممثل الدائم للمغرب، رئيس المجموعة الإسلامية (س/13802)، **يدين** بقوة رفض إسرائيل التعاون مع اللجنة ويأسف لرفضها الرسمي للقرارين رقم 446 (1979) ورقم 452 (1979)، **ويؤكد** مرة أخرى أن اتفاقية جنيف الرابعة المتصلة بحماية الأشخاص المدنيين في زمن الحرب والمؤرخة في 12 آب/ أغسطس من العام 1949 تنطبق على الأراضي العربية المحتلة من قبل إسرائيل منذ العام 1967، ومن جملتها القدس، **ويدين** قرار حكومة إسرائيل الداعي إلى دعم رسمي للمستوطنات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى المحتلة منذ العام 1967،

ويعبر عن القلق العميق بشأن ممارسات السلطات الإسرائيلية في تنفيذ تلك السياسة الاستيطانية في الأراضي العربية المحتلة، ومن ضمنها القدس، وعواقبها بالنسبة إلى السكان العرب والفلسطينيين المحليين، **ويأخذ** بالاعتبار الحاجة إلى دراسة إجراءات من أجل الحماية المحايدة للأرض الخاصة والعامة وللملكية، ولمصادر المياه، **ويضع** نصب عينيه الوضع المحدد للقدس، وعلى وجه الخصوص، الحاجة إلى حماية البعد الروحي والديني الفريد للأماكن المقدسة في المدينة والمحافظة عليها، **ويلفت** الانتباه إلى العواقب الخطيرة التي ستكون لازمة عن

سياسة الاستيطان على أي محاولة للوصول إلى سلام شامل، وعادل، ودائم في الشرق الأوسط.

ويستذكر قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالموضوع، وعلى وجه التخصيص القرارات رقم 237 (1967) بتاريخ 14 حزيران/يونيو للعام 1967، ورقم 252 (1968) بتاريخ 21 أيار/مايو 1968، ورقم 267 (1969) بتاريخ 3 تموز/يوليو 1969، ورقم 271 (1969) بتاريخ 15 أيلول/سبتمبر 1969، ورقم 298 (1971) بتاريخ 25 أيلول/سبتمبر 1971، وكذلك البيان الإجماعي الذي أصدره رئيس مجلس الأمن بتاريخ 11 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1976، وبعد أن دعا فهد القواسمة رئيس بلدية الخليل، في الأرض المحتلة، ليزوده بالمعلومات طبقاً للقاعدة رقم 39 من قواعد الإجراءات المؤقتة:

1. يثني على العمل الذي قامت به اللجنة في إعداد التقرير المتضمن في الوثيقة س/13679.
2. يقبل النتائج والتوصيات المتضمنة في التقرير المذكور أعلاه من اللجنة.
3. يدعو كل الأطراف، وخصوصاً حكومة إسرائيل إلى التعاون مع اللجنة.
4. يدين بشدة قرار إسرائيل منع السفر الحر لرئيس البلدية فهد القواسمة كي يمثل أمام مجلس الأمن، ويطلب من إسرائيل أن تسمح له بالسفر الحر إلى رئاسة الأمم المتحدة لذلك الغرض.
5. يقرر أن كل الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغير الطبيعة المادية، أو التكوين السكاني، أو البنية المؤسسية أو وضع الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى المحتلة منذ العام 1967، ومن ضمنها القدس، أو أي جزء منها، هي إجراءات ليس لها صحة قانونية وأن سياسة إسرائيل وممارساتها في توطين أقسام من سكانها ومن المهاجرين الجدد في تلك الأراضي يشكل خرقاً فاضحاً لاتفاقية جنيف الرابعة المتصلة بحماية الأشخاص المدنيين في زمن الحرب وتشكل أيضاً عائقاً خطيراً لتحقيق سلام شامل، وعادل، ودائم في الشرق الأوسط.
6. يدين بشدة استمرار إسرائيل، ودأبها، في مواصلة تلك السياسات والممارسات ويدعو حكومة إسرائيل وشعبها أن يلغي تلك الإجراءات، وأن يفكك

المستوطنات الموجودة، وأن يوقف بوجه خاص، وعلى أساس مستعجل، تأسيس المستوطنات، وبناءها والتخطيط لها، في الأراضي العربية المحتلة منذ العام 1967، ومن ضمنها القدس.

7. يدعو كل الدول ألا تزود إسرائيل بأي مساعدة لتستخدم على وجه الخصوص في سياق يرتبط بالمستوطنات في الأراضي المحتلة.

8. يطلب من اللجنة أن تستمر بفحص الحالة المتصلة بالمستوطنات في الأراضي العربية المحتلة منذ العام 1967، ومن ضمنها القدس، لتحقق في الاستنفاد الخطير للموارد الطبيعية الذي رفع في التقارير، وخصوصاً موارد المياه، وذلك بقصد ضمان حماية تلك الموارد الطبيعية الهامة للأراضي الرازحة تحت الاحتلال، ولإبقاء تنفيذ القرار الحالي تحت التدقيق المحكم.

9. يطلب من اللجنة أن ترفع تقريراً إلى مجلس الأمن قبل 1 أيلول/سبتمبر من العام 1980، ويقرر أن يجتمع في أبكر تاريخ ممكن لكي يدرس التقرير والتنفيذ الكامل للقرار الحالي.

الملحق (6)

المقترح العربي للسلام 2002

"خطة سلام" الجامعة العربية

28 **آذار/مارس من العام** 2002

إن مجلس جامعة الدول العربية في مستوى القمة، وفي جلسته العادية الرابعة عشرة، إذ يعاود تأكيد القرار الذي اتخذ في حزيران/يونيو من العام 1996 في مؤتمر القمة العربية غير العادية في القاهرة بأن السلام العادل والشامل في الشرق الأوسط هو خيار إستراتيجي للبلاد العربية، وينبغي تحقيقه وفقاً للشرعية الدولية، التي تتطلب التزاماً مقابلاً من جانب الحكومة الإسرائيلية، وبعد أن استمع إلى البيان الذي ألقاه صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي عهد المملكة العربية السعودية والذي عرض فيه سموه مبادرته، التي تدعو إلى انسحاب إسرائيلي كامل من كل الأراضي العربية المحتلة منذ حزيران/يونيو في العام 1967، تنفيذاً لقراري مجلس الأمن رقم 242 ورقم 338، واللذين أعيد تأكيدهما من مؤتمر مدريد في العام 1991 ومبدأ الأرض في مقابل السلام، وقبول إسرائيل بدولة فلسطينية مستقلة، والقدس الشرقية عاصمة لها، في مقابل إقامة علاقات عادية في سياق سلام شامل مع إسرائيل.

وانبثاقاً من قناعة البلاد العربية أن الحل العسكري للنزاع لن يحقق السلام أو يوفر الأمن للأطراف، فإن المجلس:

1. يطلب من إسرائيل أن تعيد النظر في سياساتها وتصرح أن السلام العادل هو خيارها الإستراتيجي كذلك.

2. وبالإضافة إلى ذلك تدعو إسرائيل لتؤكد:

أ) الانسحاب الإسرائيلي الكامل من كل الأراضي المحتلة منذ العام 1967، ومن جملتها مرتفعات الجولان السورية إلى خطوط 4 حزيران/يونيو من العام 1967 والأراضي المحتلة اللبنانية المتبقية كذلك في جنوب لبنان.

ب) تحقيق حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين سيتعين الاتفاق عليها وفقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 194.

ج) قبول تأسيس دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ الرابع من شهر حزيران/يونيو من العام 1967 في الضفة الغربية وقطاع غزة، مع القدس الشرقية عاصمة لها.

3. وبناء على ذلك، فإن البلاد العربية تؤكد ما يلي:

أ) تعتبر النزاع العربي الإسرائيلي منتهياً، وتدخل في اتفاقية سلام مع إسرائيل، وتوفر الأمن لجميع الدول في المنطقة.

ب) تقيم علاقات عادية مع إسرائيل في سياق هذا السلام الشامل.

4. تضمن رفض كل أشكال توطين الفلسطينيين التي تتعارض مع الظروف الخاصة للبلاد العربية المضيفة.

5. تدعو حكومة إسرائيل وكل الإسرائيليين أن يقبلوا هذه المبادرة من أجل حماية فرص نجاح السلام ولوقف المزيد من سفك الدم، وتمكين البلاد العربية وإسرائيل من العيش في سلام وجوار حسن وتزويد أجيال المستقبل بالأمن، والاستقرار والرفاهية.

6. تدعو المجتمع الدولي وكل البلدان والمنظمات إلى مساندة هذه المبادرة.

7. تطلب من رئيس مجلس القمة أن يشكل لجنة خاصة مكونة من بعض دولها الأعضاء المعنية والأمين العام لجامعة الدول العربية لمتابعة الاتصالات اللازمة لكسب الدعم لهذه المبادرة على جميع المستويات، ومن الأمم المتحدة على وجه الخصوص، ومن مجلس الأمن، ومن الولايات المتحدة، ومن روسيا الاتحادية، ومن الدول الإسلامية، ومن الاتحاد الأوروبي.

الملحق (7)

رد إسرائيل على خريطة الطريق

25 أيار/ مايو، من العام 2005

1. في بداية العملية وفي أثنائها معاً، وذلك شرط لاستمرارها، ستتم المُحافظة على الهدوء. وسيفكك الفلسطينيون المنظمات الأمنية الموجودة وينفذون إصلاحات أمنية في أثناء المسار الذي ستشكل منه منظمات جديدة وتعمل على محاربة الإرهاب، والعنف، والتحريض (ويجب أن يتوقف التحريض فوراً ويجب على السلطة الفلسطينية أن تُعلِّم من أجل السلام). وهذه المنظمات سوف تشترك في المنع الحقيقي للإرهاب والعنف من خلال الاعتقالات، والتحقيقات، والوقاية والتنفيذ للأعمال التحضيرية القانونية من أجل التحقيقات، والمقاضاة، والعقوبة. وفي المرحلة الأولى من الخطة وذلك شرط للتقدم إلى المرحلة الثانية، سوف يكمل الفلسطينيون تفكيك المنظمات الإرهابية (حماس، والجهاد الإسلامي، والجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية، وكتائب الأقصى والأجهزة الأخرى) وبنيتها الأساسية، وجمع كل الأسلحة غير القانونية وتحويلها إلى طرف ثالث لغرض إزالتها من المنطقة وتدميرها، ووقف تهريب الأسلحة وإنتاج الأسلحة داخل السلطة الفلسطينية، وتفعيل جهاز المنع الكامل وتوقف التحريض. ولن يكون هناك أي تقدم إلى المرحلة الثانية من دون تنفيذ كل الشروط المبينة أعلاه المتصلة بالحرب ضد الإرهاب. وخطط الأمن التي يتعين أن تنفذ هي خطط تينت وزيني (كما هو في الأطر المشتركة الأخرى، فإن خريطة الطريق لن تنص على أن إسرائيل يجب أن توقف العنف والتحريض ضد الفلسطينيين.)
2. التنفيذ الكامل سيكون شرطاً للتقدم بين المراحل وللتقدم ضمن المراحل. وسيكون الشرط الأول للتقدم هو التوقف الكامل للإرهاب، والعنف،

والتحريض. ولن يأتي التقدم بين المراحل إلا بعد التطبيق الكامل للمرحلة السابقة فقط. وسوف يصرف الانتباه لا إلى خطوط الزمن، ولكن إلى معايير التنفيذ. (خطوط الزمن ستخدم لتكون نقاطاً مرجعية فقط.)

3. بروز قيادة جديدة مختلفة في السلطة الفلسطينية داخل إطار الإصلاح الحكومي: إن تشكيل قيادة جديدة يشكل شرطاً للتقدم إلى المرحلة الثانية من الخطة. وفي هذا الإطار ستجري الانتخابات من أجل المجلس التشريعي الفلسطيني بعد التنسيق مع إسرائيل.

4. ستكون آلية المراقبة تحت إدارة أمريكية. وسوف يركز النشاط الرئيسي للتحقق على إنشاء كيان فلسطيني آخر والتقدم في عملية الإصلاح المدني داخل السلطة الفلسطينية. وسينفذ التحقق على وجه الحصر على أساس مهني وحسب كل قضية (اقتصادية، قانونية، مالية) من دون وجود آلية مشتركة أو موحدة. وستبقى القرارات الجوهرية في أيدي الطرفين.

5. سوف تتقرر شخصية الدولة الفلسطينية المؤقتة من خلال مفاوضات بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل. وسيكون للدولة المؤقتة حدود مؤقتة ومظاهر معينة من السيادة، وستكون مجردة من السلاح تجريداً كاملاً ومن دون قوات عسكرية، ولكن لها شرطة فقط وقوات أمن داخلي ذات مدى وتسليح محدودين، وستكون من دون صلاحية لتقرر أحلافاً عسكرية أو تعاوناً عسكرياً، ولإسرائيل السيطرة على دخول وخروج كل الأشخاص والشحنات، ولها كذلك السيطرة على جوها وفضائها والطيف الإليكترو مغناطيسي فيها.

6. وفي ما يتصل بكل من البيانات التمهيدية والتسوية النهائية يجب عمل إشارات صريحة إلى حق إسرائيل في الوجود بصفتها دولة يهودية وإلى التنازل عن أي حق في العودة للاجئين الفلسطينيين إلى دولة إسرائيل.

7. نهاية الخطة سوف تقود إلى نهاية كل المطالب وليس إلى نهاية النزاع فقط.

8. سيكون الوصول إلى التسوية المستقبلية من خلال الاتفاق والمفاوضات المباشرة بين الطرفين، ووفقاً للرؤية التي لخصها الرئيس بوش في خطابه الذي ألقاه في 24 حزيران/يونيو.

9. لن يكون هناك أي ربط مع القضايا المتصلة بالتسوية النهائية. ومن بين القضايا التي لا يتعين مناقشتها: التسوية في اليهودية، والسامرة، وغزة (باستثناء تجميد استيطان ومراكز أمامية غير قانونية)، ووضع السلطة الفلسطينية ومؤسساتها في القدس، وكل المسائل الأخرى التي تتعلق طبيعتها بالتسوية النهائية.

10. إزالة المراجع ما عدا 242 و338 (1397، والمبادرة السعودية والمبادرة العربية التي تم تبنيها في بيروت). إن تسوية مستندة إلى خريطة الطريق ستكون تسوية مستقلة استقلالاً ذاتياً تستمد صحتها من نفسها. والإشارة الممكنة الوحيدة يجب أن تكون إلى القرارين 242 و338، وعندئذ بوصفهما فقط المخطط التمهيدي لإجراء المفاوضات المستقبلية على التسوية الدائمة.

11. تعزيز عملية الإصلاح في السلطة الفلسطينية: سيتم تأليف دستور فلسطيني مؤقت، وسيتم بناء بنية تحتية قانونية فلسطينية ويتم تجديد التعاون مع إسرائيل في هذا الميدان. وفي المجال الاقتصادي: سوف تستمر الجهود الدولية لإعادة تأهيل الاقتصاد الفلسطيني. وفي المجال المالي: سوف يتم تنفيذ الاتفاقية الأمريكية الإسرائيلية ـ الفلسطينية بالكامل، وذلك شرط للتحويل المستمر لعائدات الضرائب.

12. سيكون نشر قوات من قوات الدفاع الإسرائيلية على طول خطوط أيلول/سبتمبر للعام 2000 خاضعاً لنص المادة 4 (الهدوء المطلق) وسوف تنفذ تمشياً مع التغييرات التي تتطلبها طبيعة الظروف الجديدة والحاجات الناشئة منها. وسوف يوضع التشديد على تقسيم المسؤوليات وعلى السلطة المدنية مثلما هو في أيلول/سبتمبر للعام 2000، وليس على موقع القوات على الأرض في ذلك الوقت.

13. بناء على ظروف الأمن، سوف تعمل إسرائيل على إعادة الحياة الفلسطينية إلى الحياة العادية: تعزيز الحالة الاقتصادية، تنمية الاتصالات التجارية، تشجيع نشاطات الوكالات الإنسانية المعترف بها والمساعدة عليها. لن تذكر أي إشارة إلى تقرير بيرتيني بوصفه وثيقة ومصدراً ملزماً داخل إطار القضية الإنسانية.

14. سوف تساعد الدول العربية العملية من خلال إدانة النشاط الإرهابي. ولن يتأسس أي رابط بين المسار الفلسطيني والمسارات الأخرى (السوري واللبناني).

شكر

منذ أكثر من ربع قرن، انضممت إلى الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن في التوقيع على معاهدة سلام بين أمتيهما، بعد أربعة حروب نشبت منذ أن صارت إسرائيل حقيقة واقعة. وألزم هذان الزعيمان نفسيهما بالعدل للفلسطينيين، وبانسحاب القوات العسكرية والسياسية الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، وبفرصة للإسرائيليين وجميع جيرانهم للعيش في انسجام بعضهم مع بعضاً. وصادق البرلمانان في القاهرة وفي القدس على الاتفاقيات، التي وافق عليها المواطنون في كلا البلدين موافقة كاسحة ولم تخرق هذه الاتفاقات قط.

ومنذ ذلك الوقت، تم الإخلال بالكثير من الوعود، وكانت هناك دورات مستمرة من سفك الدماء ومد متصاعد من عدم الثقة ومن الكراهية. وهذا الكتاب مصمم ليفحص الأسباب الجذرية للنزاع المستمر وليوضح الطريق الواضح الوحيد إلى السلام الدائم والعدالة في الأرض المقدسة.

وكانت معظم علاقتي الشخصية بالمنطقة المضطربة منذ مغادرتي البيت الأبيض هي العمل ممثلاً لمركز كارتر، وهو منظمة مكرسة لتعزيز السلام، والحرية، وحقوق الإنسان، وتخفيف المعاناة. وقد ساعدني زملائي هناك على فهم التداخلات المعقدة للعلاقات داخل إسرائيل، وفي صفوف الفلسطينيين، وبينهم وبين الحكومات المجاورة. لقد كان ماثيو هودز، وديفيد كارول، وآخرون مشاركين مشاركة فعالة في صياغة مقترحات سلام معقولة وتشجيع الديمقراطية. وقام مساعداي الخاصان فاي بيردو ولورين غاي بتقديم المشورة الجيدة في إعداد مسوداتي، وانضم الدكتور ستيف هوكمان مع زوجتي، روزالين، في متابعة النص لكشف الأخطاء واستبعادها.

ولدى سايمون وشوستر، تلقيت مساعدة نفيسة من أليس مايهيو بوصفها المحررة الحصيفة القوية لكتابي، ومن سيرينا جونز، مساعدتها، ومن بول بوغليز،

الذي أعد الخرائط. وأود أيضاً أن أعبر عن شكري إلى لين نيسبيت، وكيلتي، التي أنعمت علي بترتيب هذه المشاركة مع مثل دار النشر هذه غير العادية.

وكانت مطبعة جامعة أركنساس كريمة جداً في السماح لي باستخدام بعض المادة المنشورة في الأصل في كتابي دم إبراهيم الذي ما زال موجوداً في الأسواق وسيكون مزوداً الآن بتسلسل حديث للتواريخ وبتقويم للتصورات الحديثة في الشرق الأوسط.

عن المؤلف

ولد جيمي كارتر في بلينز، في جورجيا، وخدم في منصب الرئيس التاسع والثلاثين للولايات المتحدة. أسس هو وزوجته، روزالين، مركز كارتر، وهو مؤسسة غير ربحية تمنع النزاعات وتحلها، وتعزز الحرية والديمقراطية، وتحسن الصحة حول العالم. وهو مؤلف العديد من الكتب، ومن جملتها ساعة قبل نور النهار الذي يسمى "أثراً أمريكي، "وكتاب قيمنا المعرضة للخطر الذي اعتبرته نيويوك تايمز الكتاب الأول في أفضل الكتب مبيعاً.

كتب أخرى بقلم جيمي كارتر

- قيمنا المعرضة للخطر
- المشاركة في الأزمنة الطيبة
- عش الزنابير
- محاضرة جائزة نوبل للسلام
- عيد الميلاد في بلينز (موضح بالرسوم من آمي كارتر)
- ساعة قبل نور النهار
- فضائل الشيخوخة
- مصادر القوة: تأملات في الكتاب المقدس من أجل إيمان حي
- إيمان حي
- الطفل الصغير سنوغل – فليجر (موضح بالرسوم من آمي كارتر)
- حساب دوماً وقصائد أخرى
- التحدث بالسلام: رؤية من أجل الجيل القادم
- نقطة تحول: مرشح، ودولة، وأمة تبلغ سن الرشد
- يوميات في أحضان الطبيعة: مغامرات وتأملات
- كل شيء لتربح: الاستفادة من بقية حياتك غاية ما تستفيد
- (مع روزالين كارتر)
- دم إبراهيم: نظرات متفرسة في الشرق الأوسط
- التفاوض: البديل للعداوة
- المحافظة على الإيمان: مذكرات رئيس
- الحكومة مثل شعبها
- لماذا ليس الأفضل؟

جيمي كارتر